

من الشرق والغرب



خير سني العمر

تأليف
والتر ب. بتكرت

ترجمة
اللواء عبد المنصف محمود
أمين فهيرت القندور

مراجعة
عبد الرزيم سرور



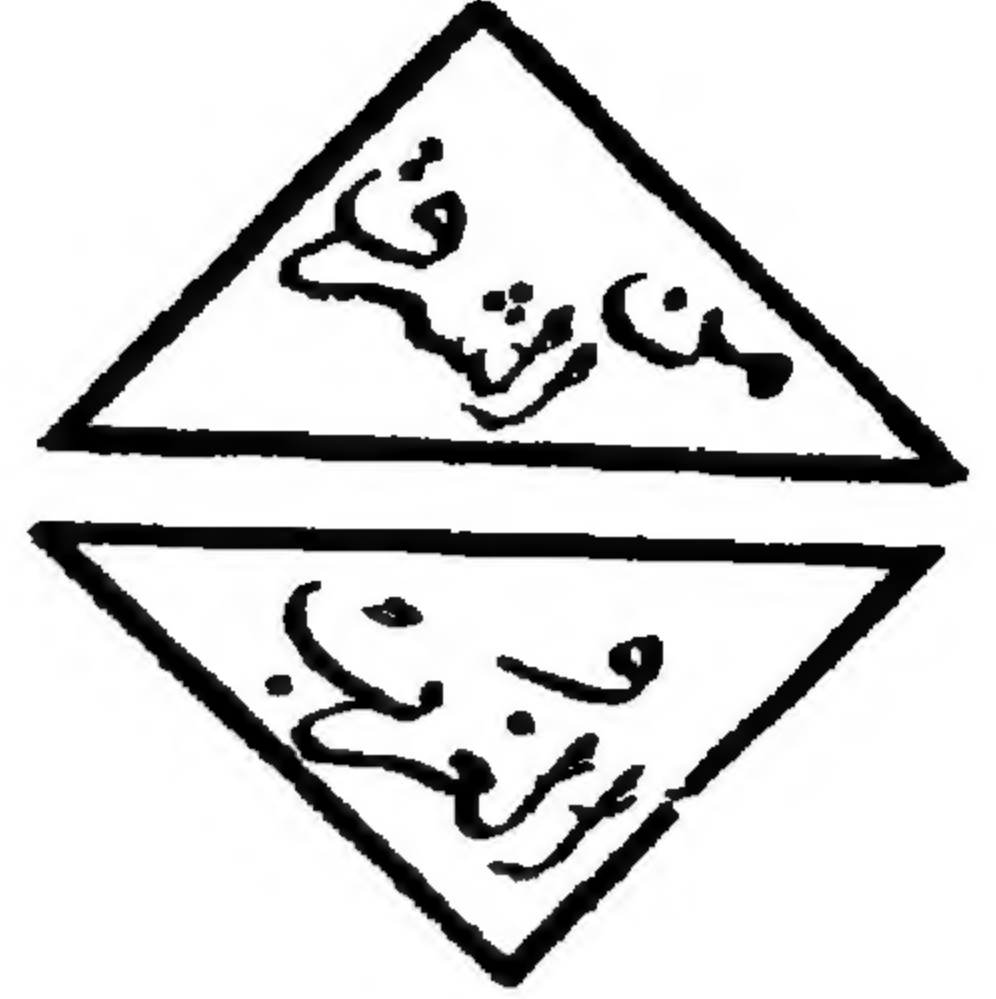
٨٠٠ د. ب.



اهداءات ٢٠٠١

د. محمود دياب

رأع بالمستشفى الملكي المصري



خبر سني العمر

تأليف: والترب. بتكن
ترجمة: اللوار عبد المصطفى محمود
أميرة خيرة القندور
مراجعة: عبد الرحيم سرور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجمين

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الحياة وسخر لنا الأرض وما عليها
متاعا الى حين ، وميزنا على باقي مخلوقاته تعالى بالعقل لنتهدى الى الخير
ونعمل لاسعاد حياتنا ، وبعد :

فاطالة العمر والتمتع باطياب الحياة هما أمنية كل انسان ، يرجوها
لنفسه ، وينشدها لولده ، ويريدها لحبيبه . وهي مشكلة قديمة
هزت واستعصت على العلماء والمفكرين في كل حين ، فحاولوا معالجتها
بجاهدين بشتى الوسائل حتى وقتنا هذا .

فاذا طلع علينا « والتر ب. بتكن » بواسطة معلوماته وفيض
أبحاثه في كتابه هذا « خير منى العمر » يبشر باطالة العمر ، وامتداد
الأجل وتحقيق هذه الضالة المنشودة ، ثم يرشد الى خير السبل

للاستمتاع بحياة لا يظلمها المرض ، ولا يقعددها العجز ، ولا يشنئها عن العمل خوف الوهم ، فقد أهدى الينا راحة البال والطمأنينة في كل صفحة بل في كل سطر بالدليل والبرهان .

اغلب الظن ان القارئ لهذا الكتاب سوف يؤمن ، او يعجب ، او تغمره نشوة السعادة ، او تمتلىء روحه همة بنظرية بتكن السهلة الممتعة ، فيكاد لسان حاله يقول : « كيف غابت عنا ولم نغتن اليها وهي قريبة منا حتى كشفها ذلك الكاتب القدير ؟ » .

ما أحوج الذين أشرفوا على الخمسين أو جاوزوا الستين أو تخطوا السبعين أو أكثر من ذلك الى الاطلاع على ما كتبه المسترب . بتكن . انه يعتمد على الأدلة الملموسة والاحصائيات المرصودة ليبين أن متوسط عمر الانسان سوف يبلغ المائة سنة ويزيد عليها ، نتيجة لما أصابه العلم والعلماء من نجاح في القضاء على أسباب الوفيات ، وتهوين لآثر الامراض الفتاكة ، وكذلك بازدهار الحضارة ، وانتشار الثقافة ، وتقارب الاقطار ، وسرعة الاتصال ، وارتفاع مستوى المعيشة الذي كان انخفاضه عاملا هداما لاطالة عمر الانسان وبالأحرى زمن الشباب .

ويقول بتكن : ان تطور المعيشة في عصرنا هذا تطلب المزيد عن ذي قبل من التعليم والدراسة والتحصيل والتمرين والتدريب للنزول بها الى معترك الحياة لكسب العيش ، وان ذلك يستغرق كل أيام الصبا ومستهل زمن الشباب . واذن فالحياة تبدأ في صورة واقعية في نهاية العقد الثالث وهذا هو بداية العمر في حقيقة الامر . ولهذا كان حتما أن تستبدل الطبيعة نظرية الحياة القديمة بنظرية جديدة تتلاءم ومطالب حياة اليوم وجنى ثمارها بما يتفق وسنى العمر التي تقضيها للاستعداد والتأهيل ، فليس غريبا أن يطول عمر الانسان على مر الزمان لمسيرة سنن الطبيعة وناموسها .

ان عصر الذرة غير وسيغيز من معالم الكون الشيء الكثير وسيخلق أجيالا تنظر الى ما نحن عليه الآن نظرة التعجب والحسرة على حياة قضيناها متحملين الجهل ، والصبر ، والالام ، والبطء ، والمرض ، لانهم سيألفون حياة اضاءها نور العلم والعرفان والاكتشافات والاختراعات الحديثة .

ان بتكن رجل واسع الافق منطقي يعرض نظريته « كيف يتمتع الشاب والشيخ بحياة طويلة هنيئة سعيدة لا يشوبها ارهاق ولا

ينتابها مرض ولا عجز ولا قلق ؟ ، وأكبر الظن أن هذا سيكون من حظ
الاجيال القادمة في القريب العاجل .

ويعرض بتكن في كتابه هذا كيف يستطيع الشيخ والكهل ان
يبسطا الحياة ويفيدا منها الى يوم يموت كل منهما متمتعا بلذتها بعيدا عن
مساوئها ؟ انه كتاب كتب خصيصا لكل من اعتزل العمل في سن مبكرة
او لبلوغه سن التقاعد ، وهو يجزم أن من أهم أسباب الموت الخطيرة هو
ذلك الوهم الذي يتسلط على عقول معتزلي العمل بأنهم انما يعتزلون بذلك
الحياة المألوفة لديهم فيتوارون وينزرون في دورهم ويحسبون أنفسهم في
عداد الخارجين من ركب الدنيا ، الراحلين الى دار البقاء فيسارعون الى
موتهم الادبي قبل موتهم الابدی ، انه يبشرهم بأن عمرهم سيطول
أكثر مما يتصورون لو انهم غيروا من طرق الحياة العادية المألوفة لديهم ،
فأدخلوا عليها بعض ما يناسبها من ظروف واحتياطات صحية مع
استبقاء حيويتهم في عمل يقدرون عليه وينفعون الناس به ، فان لهم من
الخبرة والمران والحكمة كنزا يخرجون منه للناس تباعا مابقيت لهم
الحياة في صحة وفورة وعقول سليمة .

أمين خيرات الغنطور ، عبد المنصف محمود

مقدمة المؤلف

قال لصاحبه وهو يحاوره :

« اننا مع الاسف لم نبحث من قبل السبيل الى تنظيم حياة الذين اعتزلوا العمل غير اننا مع ذلك نعرف رجلا حاول ان ينظم حياته . »

« هذا امر هام ونحن في حاجة الى سماع بياناتك عنه وان لم يكن لدينا ما تقدمه لك . »

« لقد سمعت عن اناس كثيرين اعتزلوا العمل ولكن لا اعلم ان احدا قام بتحري شئونهم تحريا جديا . »

« ان كل ما تعرفه سيساعدنا في ان نعالج بشيء من الكياسة شئون عمالنا الذين تقاعدوا عن العمل . »

على نسق هذا الحوار كان يكتب موظفو نحو مائة منظمة كبيرة تستخدم قرابة خمسة ملايين من العمال ، وعلى هذا النمط نفسه كان يكتب مثل هذا العدد من الاصدقاء الذين حملنا واسع خبرتهم على الظن بانهم يعرفون شيئا من الوسائل التي اعاد بها الرجال والنساء تنظيم حياتهم بعد التقاعد .

إهداء إلى بنجامين فرانكلين^(١)

ذى العبقرية التى لم يفقها الا حسن ذوقه والتى لم
يستخدمها فى خير مما استخدمها يوما فى أواسط حياته
العملية المديدة حينما اعتزل العمل وعدل عن مجرد كسب
العيش الى الفن الأعظم .. فن الحياة .

ففى سنيه الاثنتين والأربعين الاولى التى كان يكدح
فيها فى طلب الخبز والزبد تعلم ان الانسان لا يعيش بالخبز
وحده ولذا تخلص عن خطة الخبز وهو فى عنفوان سلطانه
واتجه الى ما يجزى من الأشياء .

ولقد نسي الناس الشطر الاول من حياته ولكن العاتم
لن ينسى ابدا الشطر الآخر وسيبقى الى ماشاء الله المثل
الاعلى الذى لا يمكننا ان نبلفه نحن معشر الأدين من الناس
الذين يجاهدون فى سبيل استخلاص أكبر فائدة من :

(١) BengaminFranklin (١٧٠٦ - ١٧٩٠) سياسي أمريكي وعالم
كبير اخترع مائة للصواعق .

أجمع الكل على أن هذه المسألة لم يدرسها أحد كما
أجمعوا على وجوب التعميل في بحث الموضوع وكذلك أجمعوا
على أن مجرد الكلام الملقى على عواهنه لا قيمة له إذ لا بد
أن تكون لدينا حقائق ملموسة .

لقد بحثت عن هذه الحقائق فوجدت الكثير منها
وفاتني ما هو أكثر . فأمامنا حاجز لا يعلم أحد عما وراءه
شيئا كثيرا ، ويأتي الرحالة بقصص عجيبة وتروج عنه
الخرافات . فما أيسر أن يضل الإنسان في الغابة من أن
يهتدي إلى الطريق السوي ! غير أن الشيء الوحيد الذي
يجب عمله عند هذا الحاجز بل في سائر الحواجز هو أن
تتغلغل في أعماق الغابة وأن تشق طريقك خلالها على خير
ما تستطيع .

لم يزودني أحد بالكثير ولكن كثيرين زودني كل منهم
بالقليل فاستحق الشكر مني عدد غفير بقدر ضئيل وعسى
الآ يحمل هذا على جحود الفضل فاتني أرجى الحمد لجميع
الأصدقاء ومن ربطتني بهم وشائج التعارف على ما أسهموا به
نقد جاد كل بما عنده وجهد المقل غير قليل .

والتر . ب . بيتكن

تحريرا في سانتا بريلرا بولاية كاليفورنيا

لم لا تتخلون عن العمل وتستمتعون بأوقات طيبة ؟
ما هو المال لا يعوزكم يا من جاوزتم الستين فأنتم تحرزون
من كل دينار ثلاثة أخماسه اما بين أيديكم واما في خزانكم
وان ستة من كل عشرة من بينكم في يسر لا يحتاجون معه
الى عون أحد ، ولذا ففي استطاعتكم من الناحية المالية ان
تعتزلوا الاعمال اذا شئتم وفي امكانكم ان تستمتعوا أيضا
بوقت طيب اذا كنتم على قسط كاف من الذكاء والنشاط .
اجل، ذلك اذا كنتم على قسط كاف من الذكاء والنشاط
ولكن هل أنتم كذلك ؟ هذا ما لا اعرفه الآن .

لقد عملتم وقتا طويلا وعجلتم بمزاولة العمل بعد
العشرين ومازلتم تكادحون حتى اليوم اي نحو خمسة وأربعين
عاما ولم تعودوا تستطيعون ادارة عملكم القديم بالنشاط
الذي كان لكم من قبل ، فأنتم ترون بين الفينة والفينة ،
وانتم توقعون الصكوك المالية ، مروجاً خضراء وجداول ماء
يصيد فيها الصغار الاسماك تحت ظلال الاشجار
فتعجبون وتعجبون .

لقد تعلمتم ما يكفي لأن تعرفوا انكم في حاجة الى زيادة
معلوماتكم عن هذا العالم الفسيح لا من خلال العمل الصاحب
الدائب ولكن من فوق سطح سفينة أو على متن طائرة أو في
عربة من عربات الريكشا (١) . وكل أولئك دون ان يوجد
ما يستحث خطاكم .

أنتم على درجة كبيرة من صحة البدن وصمودكم سليمة
واطرافكم متينة وفي استطاعتكم ان تصمدوا أربع مجموعات
من درجات السلم اذا اضطررتم الى ذلك (ونرجو أن يكون
المصعد غير متوقف) .

(١) الريكشا عربة خفيفة ذات عجلتين ولها مظلة ويجرها رجل أو اثنان

ولقد استعملت في اليابان لأول مرة سنة ١٨٧٠ وتكتب بالانجليزية

على عدة صور Jirikisha, Jinricksha, Rickshaw, Ricksha

وباللغة اليابانية Jin ومعناها رجل و Riki معناها قوة و Sha

عربة تحركها القوى الانسية

وأخيرا فليس لديكم ما يشغلكم فقد شب الأطفال جميعا وغادروا المنزل وتوجه أصغرهم الى معهد العلم وأكبرهم الى عمل حسن .
وأصبحت أنت وزوجك تستطيعان أن تعلقا الدار في الغداة وأن تملأ خزانة السيارة القديمة وأن تضربا في أرض الله الواسعة . أما ابن تكون وجهتكما فأمره لكما .
واذن فخبراني عنها .

ان من المهارة الفكاك من الاسر فهل لديكم هذه المهارة ؟ ومن الشجاعة أن ترجع الى نفسك وتستمتع بالحياة بعد كل هذه السنين التي قضيتها في هذا الاسر فهل لديك هذه الشجاعة ؟

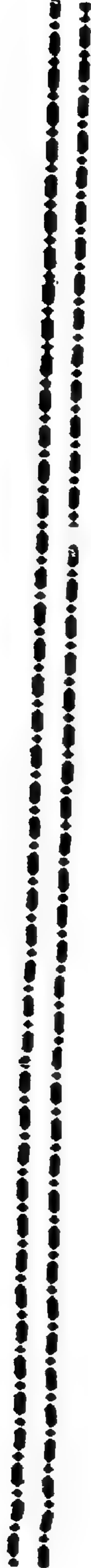
إذا كانت لديك فأرنيها .

وبينا أنت تعمل الفكر سادلك على شيء يبدل من قرارك ولو قليلا وذلك بأن اظهرك على جديد لم يصل علمه الى الصحف لأن الصحف تنشر الحوادث وهذا ليس من بينها لانه اتجاه ، والاتجاه أشبه ما يكون بالبيضة التي مضى عليها أسبوع وهي دافئة في المحضنة فأصبحت لا هي بيضة ولا هي فروجا ولكنه شيء سيتمخض عنه شيء آخر .

ان هذا الشيء في سبيل التكوين اليوم وهو في مرحلته الحاضرة يضارع في أهميته تفتيت الذرة فما الذي سينجم عنه ؟ نعم ما الذي سيحدث لبيضة المحضنة ؟ هل ينقفها فروج أو يخرج منها أفعى تفع فينا ؟ أو هل تفسد البيضة ؟ أو هل يسقطها أحد الناس ؟ من يدري ؟ كل ما تستطيع قوله في الوقت الحاضر ان هو الا احتمالات يترنح منها الخيال .

انك في حاجة الى أن تهجر العمل وتستمتع بوقت طيب . حسنا تستطيع تحقيق أحلامك ، ولكن قد يكون ذلك بطريقة لم تخطر لك على بال ، فأفكارك عند اعتزال العمل أفكار عتيقة ، ولا يمكن أن تكون فتية لأنك قدمت الى هذا العالم منذ سنين عدة . أليس كذلك ؟ ولقد راقبت من هم أكبر منك سنا عندما كنت صغيرا أو استمعت الى ما كان يدور على المائدة من أحاديث عن الناس الذين اعتزلوا العمل فما تفكر فيه الآن عن تقاعدك هو ما بدأت تتعلمه منذ أربعين أو خمسين أو ستين سنة مضت ، نعم ، انها أفكار قديمة موهلة في القدم ولذا متواجهاك أشياء مفاجئة ولكننا نرجو أن تكون المفاجأة سارة .

تستطيع أن تغلق مكتبك وتقفز الى عربتك وأن تقودها الى المروج الخضراء ولكن ماذا بعد ذلك ؟ هذا ما سنتناوله قصتنا فيما يلي :



ان هذا هو اول كتاب يكتب عن الوجه الخامس من اهم وجوه حياة الانسان وهو يوضح للناس كيف يجتازون الوجه الرابع الى الوجه الخامس؟ وكيف يجعلون من السنين التالية خير السنين جميعا ؟ .

اما الوجه الاول فهو الخروج الى الحياة الدنيا ، والثاني النمو ، والثالث التناسل ، والرابع التكسب ، والخامس الاستمتاع بالحياة . وطالما تجشم طلاب العلم المشاق في دراسة الوجوه الاربعة الاولى ، أما كيف انهم غفلوا عن الوجه الخامس أو تجنبوه فستجد الجواب عنه في أثناء مطالعتك هذا الكتاب وهو جواب يجمع بين المتعة والتفقه ، كما أنه يكشف النقاب عن نبا غاية في الغرابة .

للمرة الاولى في ملايين السنين التي قضاها الانسان في كفاحه في سبيل البقاء أصبح من الميسور لملايين الناس أن يستمتعوا بلذة الحياة لا ليوم أو يومين ولكن لسنين تتلوها سنون فمنذ قرن من الزمان ما كان لمثل هذا الكتاب أن يصنف ولو صح أن ظهر لكان حديث خرافة . لقد اكتسب الانسان الهيمنة على أشياء قليلة وكانت هيمنته على نفسه أقلها جميعا وهو لم يخلق الحوادث ولكن الحوادث خلقتة وان فكرة لنكولن(١) انعكس عليها عالم من الحقائق وان ملايين من أشكال الحياة الدنيا كانت تفتك بالجنين في الرحم ، وبالوليد في انلقائف وبالصبى العايب وبالفتى اللاهث ، وبالفتاة اللعوب وبالفلاح الكادح وبزوجه المرهقة بالعمل وبالتاجر الحاسر وبالكاتب الرديء الخط وبالقاضي المريض بالنقرس وبالمملك المخور ومن نجا من البكتريا (الجراثيم) وقع في قبضة البلادة . وهكذا : ما كان يجب أن يكون في منتصف الطريق أصبح في خاتمة المطاف فلم تكن الجمهرة ترى خمسة وجوه للحياة بل كانت تراها أربعة يعقبها موت الفجأة .

ثم ان السعى وراء الرزق ينهك قوى الناس رجالا ونساء في صن مبدرة لانهم لا يملكون الا قليلا من القوة اكثر مما تزودهم به عضلاتهم

(١) Lincoln, Abraham سياسي أمريكي عظيم وزعيم وطني وقائد ملهم قضي على الفتنة وألغى الرق ، ولقد ولد في كوخ خشبي بولاية كنتكي Kentucky وكان أبوه فلاحا فقيرا غير أن شجاعة ابراهام وخلقه وكياسته بوائه مركزا وفيما هو منصب رئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة عام ١٨٦٠ ثم توفي مقتولا .

وهم لم يدركوا بعد كل الادراك كيف يسخرون الجوهر الفرد والذرة ولقد بدعوا بداية طيبة ومازال الكادحون يفتنون قواهم البدنية قبل أن يبلغوا الخمسين بزمان طويل وكان المترفون يعجزون عن العمل فى سن الخامسة والثلاثين والملاحون فى حوالى الأربعين . أما المعمرون فهم أولئك الذين لم يستخدموا قواهم العضلية فكانوا هم أساتذة الجامعات ووزراء وقضاة .

لم يصبح الوجه الخامس للحياة طويل المدى كثير الثمر الا منذ وقت قريب لذلك يستحق أن تؤلف الكتب عن مشاكله الجديدة فهو ميدان بكر للرواد وهو محشو بالمفاجآت وأكثرها سار ولكنه يستدعى تفكيراً عميقاً وتعديلات جوهرية يجب أن يقوم بها كثير من الناس ، والذين يتوقون الى أن يكونوا على الدوام فى سن الحادية والعشرين يحتاجون الى شجاعة تفوق أعمارهم والذين يثقون بأن القنبلة الذرية قضت على كل شئ وعليهم أن يبدعوا حياة جديدة فان « خير سنى العمر » ليست فى جزء الحياة الذى يبدأ من عهد الأجنة الى سن الحادية والعشرين وليست نهاية الحياة فى الغد القريب .

تأتى « خير السنين » بعد الخمسين وهى خيرها بالمعنى الأعم لا المعنى الضيق فالرجل الذى لا يفهم الا أهون أنواع الحيز رجل عاثر الجدد لم يرتفع عن الوليد من لدن ولادته وقد يكون مديراً لأحد المصارف المالية ويبلغ من العمر الرابعة والأربعين لكنه لا يزال طفلاً فيكون مصيره على الغالب مصير أمثاله فينتقل من تمتمة الطفولة الى خرف الشيخوخة فى غمضة عين يوم يعتزل منصبه الرئيسى ، ولما كان طفلاً فلن يستطيع أن يستمتع بالحياة ولذا فسيتوقف عن الحياة وستكون جنازته يوم الخميس ونرجو من المشيعين ألا يستحضروا معهم طاقات الزهر !

كثير من المجاهدين فى سبيل العيش يخضعون أنفسهم للعبودية نصف قرن يكسسون فيه ودائعهم ومستثمراتهم المسالية ويزيدون فى قصورهم جناحاً لغرفة بليارد جديدة ويضع غرف نوم للضيوف لكى يتوقفوا يوماً عن العمل ليستمتعوا بالحياة كما يحبون أن يقولوا لأصدقائهم ، ثم ينوى كثير منهم ويجف وتذروه الرياح قبل أن يتم النقاشون وخرفة حجرة البليارد .

فهؤلاء الناس يرتكبون أخطاء جمة لانهم أساءوا فهم فن الحياة ، ولكن لا تلمهم لانهم نشئوا فى عالم لم يفهم الوجه الخامس للحياة . وكلمة تقدمت بهم السن قل فهمهم وكلمة كانوا فى مستقبل العمر سهل وضع

الصفحات التالية تحت انظارهم ، غير أنا سنستثنى من هذه القاعدة العامة بين وقت وآخر بعض الاستثناءات لأننا نجد حقا بين الطاعنين فى السن من أوتوا حظ الاستمتاع بالحياة سننوات عدة كما نجد أيضا كثيرين من الشباب غرهم الشباب واستذلهم حتى تسرب الى اقتدتهم ان الحياة المثلى على الدوام انما هى فى سن الحادية والعشرين .

هل هزمت وخرفت وهل عز عليك الآن ان تتعلم ؟ ان صبح هذا فلم يوضع هذا الكتاب لك .

أما زلت فى عنقوان الشباب نزقا فى تصرفاتك ؟ وهل تثق بأن البنين والبنات زهرة البشرية وأن الحياة بعد سننى الدراسة ليست الا هبوطا وانبا حزينا نحو التراب والرماد : ان صبح هذا فقف فى مطالعتك عند هذا الحد .

واذا أوتيت حظا من الكياسة حتى لتأوى الى المنزل اذا ما نزل المطر او تتقيه بالمظلة (المطرة) ، واذا ما سايرو الزمن ففرقت بين الثرى والثريا وميزت الاورانيوم من زهر الجيرانيوم كان لك اذن أن تضيف الى حياتك بعد أن تكون قد نجحت فى طلب الرزق حقبة من الزمن بين عشرين سنة وأربعين تحياها حياة طيبة هنيئة .

فاذا كنت من هذا الطراز كان نصيبك من الخير أوفر كلما صغرت سنك ، وكان بوى أن اصنف هذا الكتاب للقراء الذين تختلف أسنانهم بين السادسة والرابعة عشرة ولكنى لا أستطيع أن أرسم اشكالا هزلية ولا أن أحيل النص الى عناوين مضحكة ، وسيأتى يوم يستطيع فيه أناس أشد منى ذكاء أن يلقنوا الأطفال الدروس التى أودعتها كتابى هذا . وحين ذاك سنكون قد اتخذنا سبيلنا نحو الحياة المجيدة لأن فن الوجه الخامس يبدأ فى مرحلة الوجه الثانى فالأحداث يجب أن يفهموا بأسرع ما يمكن فن الأسن منهم وعليهم أن ينظروا الى الحياة بمنظارها الحقيقى وعليهم ألا يظنوا أن غايتها تلتبس فى أول غرام أو أول طفل أو أول عمل ، فكل أولئك حوادث فى قصة لم تتم فصولها .

ولقد وصل الحكيم (بن فرانكلين) الى لباب الامر حينما كتب يقول:

«ان الشاب الذى له خبرة الشيوخ سيكون شيخا له أهمية الشباب»

ويقول لى الكثيرون : انهم لا يفقهون هذا القول ولست أجيبهم بأنهم ينمون بهذا عن عدم نضجهم ، وانى أربأ بنفسى عن أن أقول لهم ان هذا

الكتاب محاولة لتعليم الناس كيف يحيون حياة طويلة دون أن يهرموا وهذا القول في نظرهم مجرد هراء ولكنه لم يكن كذلك في نظر «جونانثان سويفت (١)» الذي كان أول من قال : أن كل انسان يود أن تطول حياته ولكن ما من انسان يود أن يهرم . فما أحسن أن يعيش المرء قرنا من الزمن ! وما أحسن ألا ينتسابه ألم أو وجع ! وما أحلى أن يبصر بعينين حديديتين وأن يسمع بأذنين مرهفتين وأن يتناول كعكته بيديه ويقضمها بأسنانه !

لقد حان الوقت الذي تستطيع فيه ، بشكل ما ، أن تتناول كعكتك وأن تأكلها أيضا وتستطيع أن تحيا حياة طويلة دون أن تهرم ، ولكن لا تحاول أن تحمل هذا الوعد على محمل لا يمكن أن يؤديه ، خذ مني على ما يعنى الا ما يعنيه : أى أن فى استطاعتك أن تجعل ما بعد الخمسين من السنوات خير عمرك لو أنك أحسنت الافادة مما تقدمه لك دنيا اليوم ، وسنريك كيف تفعل هذا .

(١) ولد عام ١٦٦٧ وتوفي عام ١٧٤٥ وهو من أعظم الكتاب الانجليز ومن أشهر مؤلفاته « رحلات جلفر » .

- ۳ -

ماہی خیر سنی العمر ؟

انى لأسمع ضحكات السخرية تنبعث من فم فتى يقفز قفزة الضفدعة فوق ظهور رفاقه الركع ومن فم الشباب وهو يمارس أول عمل له ، ومن فم الرجل فى ربيع الحياة وقد كسب عشرات الالوف من الجنيهاات من بيعه حمولة سفينتين من الدراجات البخارية المستعملة الى شرطة باراجواى وأسمعهم وهم يقولون « **أيها النصاب الكبير** : أتقول لنا : ان خير سننى العمر تأتى بعد الخمسين ؟ أغرب عنا وبع فى الطريق الآخر ما تحمل من سقط المتاع ! » .

وانك لتجد بعد الخمسين مثل هؤلاء النقاد على حقيقتهم فتبتسم لذلك ، فما الذى يستطيع الفتيان أن يعرفوه عن الحياة فى السن المتأخرة ؟ انهم لا يعلمون شيئا الا عن السنوات القلائل الاولى ، وما يعلمونه عنها غير دقيق لان مواهبهم لتفهم الاشياء ما زالت ضعيفة ، وما الذى يستطيع أن يعرفه الشبان ؟ ان الميول الجنسية لتحرق أجسامهم وهم لا ينظرون الى الاشياء الا نظرة المستولد المستنبت ؟ وما الذى يستطيع أن يعرفه رجل الاعمال وهو يحبو الى الخمسين ؟ حقا انه يعرف أكثر مما يعرف الشاب وما يعرفه الشاب غير كثير فان عقله منصرف الى تلك الارباح التى ربحها فى (باراجواى) وانه ليظن أن الحياة هى فى القدرة على كسب العيش ، وهو يحدثنا أن الحياة الطيبة هى الصفقة الرابعة أى أن خير سننى العمر فى رأيه لابد أن تكون السنين التى يجتنى فيها أكبر قدر من الارباح المالية (ويدفع فيها أقل قدر من ضرائب الدخل) .

وليس لدينا لكل هؤلاء النقدة الا جواب واحد يتخذ صيغة السؤال الآتى : ما الخير فى خير سننى العمر ؟ .

- هل هو لكسب مباراة فى القفز الى الماء ؟ لا !
- هل هو لكسب مباراة فى المصارعة من عشرين جولة ؟ لا !
- هل هو للقاء فى احدى مسرحيات الاوبرا ؟ لا !
- هل هو للرقص فى الباليه ؟ لا !
- هل هو لتربية الاطفال ؟ لا !
- هل هو لادارة متاجر الحلوى النسائية ؟ لا !

هل هو لتولى وظيفة كبير الجراحين في أحد المستشفيات ؟ لا !

هل هو لإدارة أحد المصانع ؟ لا !

اذن فما هو ؟ !

هو ما ذكرناه من قبل وهو أن تعيش العيشة التي تهواها وتستمتع بحياتك لا بنصف حياة ولا بحياة مستعارة ، ولكن ما تلك الحياة ؟ أغلب الظن أنك لا تعرفها لأنه لا يعرفها بيننا إلا القليل ، ولم يكن ذلك إلا منذ عهد قريب ، على أنها كانت بشكل من الاشكال هي تلك الحياة التي كمثت فيك خلال أهم تسعة أشهر في عمرك كله قبيل أن تنفصل عن أمك ، وكانت هي أيضا الحياة التي انبثق بعضها من تطاحن الظروف خلال فترة نموك في سنواتك الأولى التي تبلسغ عشرا أو تزيد ولم تكن بكل تأكيد حياتك كمصدر للنسل أو حياتك كشخص يعمل للغير سدا لمطالب العيش ، فليس من الحياة أن يكون لك أولاد أو أن يكون لك مصدر رزق : انهما من وظائف الحياة وانهما على أحسن الفروض لا يمثلان إلا جزأين ضئيلين من حياة رحبة متعددة الجنبات ، وعلى أسوأ الفروض لا يمثلان شيئا .

وإذا كنت تعدني بألا تحاسبني على كل حرف أتقوه به فاني سأشرح لك معنى دعابتي القديمة التي عفى عليها الزمن ، وهي مع ذلك ليست دعابة هزلية : ان الحياة معظمها حرارة وقوة وضوء : حرارة في الشباب وقوة في عنفوان الرجولة ، وضوء في السنوات التي تلي سن الخمسين ، والحرارة تهدى للخيال والبسالة والحب ، والقوة للعزة وذبوع الصيت ، اما الضوء فيكشف الأشياء على حقيقتها . وتأتي أول ما تأتي السنوات المملوءة بالحرارة ، تتلوها سنوات القوة وفي نهاية الجميع سنوات الضوء ، وعلى هدى سنوات الضوء تقيس الشؤون الكونية .

ولكي تفيد أكبر فائدة من خير سنني العمر عليك أولا أن تسلط الضوء على نفسك لتعرف من أنت ؟ وما الذي ينبثق من نفسك الأصلية التي تولدت معك وأنت جنين ؟ وكيف تشق طريقك بين الأكداس المقدسة من العادات التي اكتسبتها وأنت تعول أسرتك وتكافح في سبيل الحصول على المال الكافي لكسوة الأطفال ؟ وكيف وجدت نفسك في سفح جرف الجليد ؟

استعار الكثيرون منا حياة فترة من الزمن بلغت من الطول حده
لم يعد يستطيع معه أن نخترقه لنصل الى نفوسنا الحقيقية غير أنه يجب
علينا أن نتعلم فن الحياة الجديد وانا لنستطيع ذلك اذا ما حزمنا أمرنا عليه
ولكن كيف السبيل لاقتناع الناس للهيمنة على مثل هذه المشكلات ؟ انى
أظن أنه يجب علينا أولا أن نقنعهم بأنهم سيبدلون جهدا أقل ويجنون ربحا
أوفر مما أتبع لأبائهم وأجدادهم أو أجداد آبائهم •
والآن فلنلق نظرة على العصر الذرى •

انى اوتر ان تكون سننى اليوم سبعين سنة على ان اكون شابا فى شرح الصبا فى عصر سابق من عصور الدنيا واوتر ان اكون الآن كسيحا اصم هل ان اكون السيبيادس (١) الامر د فى اثينا على عهد بركليس (٢) وان العصر الذرى وفجره يبرز الآن يحقق من الاحلام اكثر مما حققته الوف الاجيال التى تقدمته ، وقد يكون ابهى حلم بينها جميعا هو الذى ترى فيه سننى ما بعد الخمسين وهى تتحفنا بالمزيد من البهجة والمزيد من الطرب والمزيد من الخدق والمزيد من جديد التجارب بما يفوق ما تزودنا به سائر ايام الحياة .

اتقول : ان هذا القول هذيان وهذر ؟ اذن تعال معى نطلع على سجل الحقائق .

منذ اربع عشرة سنة فقط حينما قلت ان الحياة تبدأ فى سن الأربعين (٣) قلت وأعدت القول ان هذا كان حين ذاك للكثير من الناس مجرد حلم ، وللقللة التى حباها الله بثاقب النظر حقيقة للموسة ، وتكهنت ايضا ان تتجه جميع البحوث الى معاونة الناس باطراد على ان يجعلوا من الحلم حقيقة ، وقد بدا لى فى ذلك الوقت ان اكثر الناس قد يجدون بعد اربعين سنة او خمسين خير سنيهم بعد الأربعين .

ولكن الاحداث سبقت ما تكهنت به .

فمنذ اربع عشرة سنة كان يتوقع للوليد ساعة يولد ان تمتد به الحياة خمسا وخمسين سنة اما اليوم فقد ارتفع مدى الحياة المتوقع الى نحو سبعين سنة وأخفت الآن شركات التأمين على الحياة فى مراجعة جداولها ومستتضخم صفوف المواطنين الذين جاوزوا السبعين من ستة ملايين ونصف المليون الى عشرة ملايين فى خمس عشرة سنة القادمة ثم الى خمسة عشر مليونا فى الوقت الذى يبلغ فيه أبناء الثلاثين حد السن الوارد فى الانجيل .

(١) السيبيادس Alcibiades (٤٥٠ - ٤٠٤ ق.م.) قائد وسياسي يوناني من اثينا.
(٢) بركليس Pericles (٤٩٩ - ٤٢٩ ق.م.) اشهر سياسي بآثينا .
(٣) للمؤلف كتاب اسمه « الحياة تبدأ فى سن الأربعين » Life Begins at Forty.

فما أغرب أن يضاف فى غضون أربع عشرة سنة فقط خمس عشرة الى مدى الحياة المتوقع ، على أنها هى الدنيا كل يوم تتغير وتبدل .

منذ أربع عشرة سنة كانت الكثرة الكاثرة من العمال كادحين (١) مدقعين (٢) فأعمال المزارع ما برحت ثلاثة اخماسها تنفذ باليد وما فتىء الناس يرصون اللبنة بالأسلوب الذى اتبعه اسلافهم حينما شادوا روما القديمة وكان النجارون ينشرون الألواح ويدقون الدر كما كانوا يفعلون منذ الوف السنين ولم يجهز من المصانع بالآلات المريحة من عناء العمل الا خمسها . أما فى سائر العالم فكان يستوى فى نظر رجل العصر الحجرى كل موضع يحل فيه : فثم داره .

ولكن ما الحال الآن ؟ يقول المتشائمون : ان عمال المصانع ينتجون فى الساعة نصف ما كانوا ينتجون من قبل ويقول المتفائلون : انهم ينتجون اكثر من ضعفه وان عددا قليلا من المهندسين الذين يقولون انهم يعرفون اثر الحرب فى كفاية العامل ليخرجون على الافتراض بأننا حينما نعلم ما وقع منذ ١٩٣٩ سنجد زيادة كبيرة جدا فى مقدار ما ينتجه العامل فى الساعة ، ولكن ليس لنا أن نعول على مثل هذه الأمانى وحسبنا ما وقع قبل الحرب ففيه ما يكفى لاثارة العجب .

واليوم يحصل الزارع العصري على انتاج فى الساعة يزيد بمقدار خمسين فى المائة أو ستين على ما كان يحصل عليه منذ أربع عشرة سنة ، على أن بعض الزارعين الذين اختصوا بزراعة نباتات معينة جنوا أكثر من الضعفين ، ومع أن الكفاية سارت بسرعة البرق الخاطف فان نتاج المحصولات الزراعية لم يزد الا بكل تؤدة ورفق وأخذ عدد العمال يقل يوما عن يوم ، وأخذ ما ينتجون من الأغذية يزيد يوما عن يوم ويعلم كل مهندس زراعى حق العلم أن فى استطاعة أى زارع أن يضاعف انتاجه اذا استخدم خير الآلات والمعدات بخير الطرق .

واليوم يستطيع الانسان أن يحصل فى عشرات الميادين على انتاج فى أسبوع ذى عشرين ساعة يضارع ما كان يحصل عليه فى أسبوع ذى ثلاثين ساعة منذ أربع عشرة سنة فقط ولذا نرانا قطعنا شوطا كبيرا نحو بلوغ عهد يساوى فيه العمل نصف الوقت ، العمل طوال الوقت وهنا يتوقف ذوو الحصانة ليتساءلوا : لم تعنى انفسنا بتقصير يوم

(١) الكدح عامة الكسب وقيل هو السعى فى مشقة .

(٢) الادقاع والدقاعة سوء الكسبة .

العمل ؟ وكيف ننتفع بالفراغ ؟ ولقد كنا على وشك أن نعالج هذا الأمر حينما دوى نذير حرب عالمية في آذاننا وحسم كل نقاش .

منذ أربع عشرة سنة كان الناس يتساءلون عما يحملنا على محاولة إطالة الحياة ويقولون ان العمل والاستقام التي تبرى جسد الهرم وتدنفه مع مافية من وهن لتجعل من سنواته الاخيرة أسوأ سننى حياته فلم تطيلون الحياة ولو يوما بعد أن امتنعت عليها للذة ؟ ولم يمر الأطباء جوابا عن هذه الأسئلة لأنهم لا يعرفون كيف يدخلون البهجة على السنوات الأخيرة ؟ .

وما الحال الآن ؟ انى لا أستطيع أن أنهى اليكم جميع الأخبار السارة لكثرتها وانتشارها فى مئات ميادين الأبحاث التى يشقى فيها العلماء بعيدين عن الأنظار : فمن ذا الذى سمع بعقار السلفا منذ أربع عشرة سنة ؟ لم يسمع به الا رجل أو رجلان ثم لم يعملوا بهذا العقار شيئا أما اليوم فالسلفا من الأشياء المألوفة الدارجة ، وكم من ألوف من الناس لولا السلفا لقضوا نحبهم وهم الآن ينعمون بالحياة .

منذ أربع عشرة سنة لم يسمع أحد بالبنسلين ولكنه اليوم ينتج على نطاق واسع ويحوم الكيماويون على شفا اختراع عظيم يمكن المصانع من تحضير بنسلين صناعى . وقد أنقذ هذا الطحلب حتى اليوم عشرات الألوف من الموت المبكر وقد يضيف الى حياة الملايين سنوات لا تقل عن عشر وقد تبلغ أربعين .

ومن ذا الذى سمع منذ أربع عشرة سنة بعقار ستربتوميسين ، أو عقار جراميسيدين أو كورار أو أى من مئات المواد الكيماوية الأخرى التى أحدثت ثورة فى ميادين الطب ؟ لم يسمع بها أحد وهى اليوم ذائعة الاستعمال يعمل كل منها على انقاذ الأرواح زرافات زرافات .

ومنذ أربع عشرة سنة هل أصاب أحد نجاحا فى علاج الرثية (١) هذا المرض المؤلم الذى يصيب الانسان فى شيخوخته ؟ كلا : أما اليوم فيقرر الروسسيون أنهم شفوا بمصل جديد عشرات الألوف من هؤلاء المتوجعين شفاء تاما . وهذا المصل موضع الفحص والاختبار - وأنا أخط هذه السطور - فى كثير من معالمنا الكيماوية وعياداتنا الطبية .

ومنذ أربع عشرة سنة كان الانسان يكاد يكون واثقا بأنه سيلتزم الفراش أسبوعين بعد استئصال الزائدة الدودية دون انفجارها أما اليوم

(١) الرثية الوجع فى المفاصل واليدين والرجلين وهى « الروماتزم »

فهو يغادر الفراش في اليوم التالي بل ان بعض المرضى يغادرون المستشفى في اليوم الأول - وان كان قليلا - ثم انه تم في الأربع عشرة سنة الماضية ادخال تحسينات فنية مذهشة جردت مائة فرع من الجراحات الكبرى من مخاطرها وستصبح المستشفيات في الغد نوعا من الحوانيت، فلقد صرح أحد الجراحين أن الانسان يوشك أن يدخل المستشفى لتستأصل زائدته الدودية كما يدخل عيادة طبيب الاسنان ليحشو له سنا نخرة .

منذ أربع عشرة سنة لم يدر بخلد أحد وجود حقن للانفلونزا أما الآن فان هذا العقار يستخدمه على نطاق واسع الأطباء والمستشفيات كعلاج مألوف ، وثلاثة أرباع الأشخاص الذين يعالجون به يكتسبون مناعة تامة ضد هذا المرض المزعج والباقون يصابون به بشكل خفيف .

منذ أربع عشرة سنة كان الذي يصاب بالالتهاب الرئوى لا تكون له الا فرصة ضئيلة للتمتع بخير سننى حياته ولكن ما الحال اليوم ؟ صرح أحد الاخصائيين البارزين من وقت قريب أنه اتصل تليفونيا بأسرة أحد المرضى وقال لهم : لا بأس ليس الأمر خطيرا فان كل ما به التهاب رئوى .

منذ أربع عشرة سنة لم يقف أحد على طريقة علاج القرع المعوية بغير عقاقير أو جراحة في معظم الحالات أما اليوم فان علاجها أصبح أمرا مألوفاً .

منذ أربع عشرة سنة صرح بعض العلماء المتعجلين بأنهم على وشك ان يتقنوا صنع المواد الكيماوية ويجيدوا طرق العلاج لكي ينتجوا - على حسب الطلب - أى طراز من الجنس البشرى واليوم وان لم يحقق الانسان هذا الغرض - فقد أصبح أقرب اليه مما كان يجرو الكيرون منا على الخدس به والتطلع اليه ، حقا انه أحرز نجاح قرن من الزمان في مدى عشر سنين وليس الوقت ببعيد حينما تستطيع بعض جماعات العلماء أن تخرج طرازا بشريا جديدا فيذهلوا الدنيا أكثر مما أذهلها محطمو الذرة وقد يحدث هذا وانت على قيد الحياة .

منذ أربع عشرة سنة لم يسمع أحد بالرادار أو بالأجهزة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت الا قلة من علماء الطبيعة في معاملهم المجهولة ولم يسمع أحد بأكثر من نوعين أو ثلاثة من اللدائن الا الكيميائيين الذين كانوا يجرون التجارب على هذه المواد ولم يعمل أحد، الا ثلاثة أو أربعة ، من علماء الطبيعة ، أكثر من أن يحلم بتفجير الذرة في يوم بعيد ، واني لاذكر منذ

عشر سنوات كيف أن اثنين من ألمع علماء الطبيعة أكدا أنه إذا ما فجر الإنسان الذرة في يوم ما فلن يتم ذلك قبل مرور قرن أو قرنين ، وأنصت الى أحد العلماء الممتازين وهو يحدثنى بأنهم وفقوا الى أعداد آلة للأشعة السينية تبلغ قوتها ١٠٠٠ ر٠ ١٠٠٠ فولت .

وما الحال الآن؟ ان القنابل الذرية تستطيع أن تذيب الجليد المتجمد على جرينلند وأنه إذا ما ذهب مرة فلا رجعة له كما يقول جميع علماء طبيعة الأرض وعندئذ تصطلى انجلترا بشمس اشبيلية على حين يتخلى الاسكتلنديون عن طحين القرطم ويستبدلون به عصير البرتقال الذى سوف يصنع فى أراضيهم ، ولن يحصل هذا الا اذا توقفتا عن تفتيت الجليد فى جرينلند وتجنبنا فى تجمسنا للمشروع أن تجرفنا مياهه ولو أننا أذبنا ثلج المحيط المتجمد الشمالى أيضاً لمحونا من الوجود لندن ونيويورك وشنغهاى وبومباى وكلكتا وألوقا من الموانئ الأخرى لأن مياه الثلوج المذابة ستغطى هذه المدن بطبقة من مياه البحر الزرقاء عمقها أكثر من مائة وخمسين قدماً وقد يؤثر هذا فى شئون الملكية العقارية .

منذ أربع عشرة سنة لم يكن المستقبل يبشر بخير كبير لمرضى السرطان فما الحال اليوم ؟ ان كثيراً من حالات هذا المرض يمكن شفاؤها شفاء تاماً أو تحسينها جوهرياً لو أنها عولجت فى وقت مبكر ، والفرصة الآن سانحة لتنمية الأبحاث الذرية فى غضون السنوات القليلة المقبلة الى درجة هذا المرض ، وهو أسوأ الأمراض ، سيتمكن التغلب عليه ، وفى الوقت ذاته فإن أسوأ وجوهه أصبح اليوم فى خبر كان . ومنذ أن شرعت فى كتابة هذا الكتاب أتم أحد جراحي ألمخ جراحة وضعت حدا لجميع الآلام الصعبة الاحتمال حتى فى أسوأ الحالات ، واستغنى بذلك عن الطريقة القديمة طريقة استخدام المورفين .

وسيكون أدنى الى التحقيق وأشد أهمية لرجال هذا العصر تلك الخطوات الواسعة فى سبيل السيطرة على السرطان وربما على بعض الأمراض الأخرى الناهكة للجسم فى مراحل الحياة الأخيرة وذلك باستخدام أشعة ذات قوة هائلة تكون كلها محكومة بأنواع جديدة من المفاتيح لتسليطها على الأنسجة المريضة . وتغدق فى الوقت الحاضر الملايين من الأموال على معامل الأبحاث الطبية لاستخدام المعلومات الجديدة عن النشاط الذرى وسيؤتى استثمار هذه الأموال على هذا الوجه ثمرته عاجلاً .

انى لأرى الرجل الطاعن فى السن يهز رأسه وتلمع فى عينيه الحزينة قطرة من الدموع .

ويقول : « هذا حديث طلي بل جد طلي ايها الشاب المرح الظريف ولكنه لن يقني عني أو عنك شيئا فانه أمر لن يتحقق في أيامنا ! نعم لن يتحقق في أيامنا فانه سوف يستغرق سنوات وسنوات حتى تثمر الأبحاث وتعم الناس جميعا » .

لقد كنت على هذا الرأي في وقت ما أما اليوم فقد عدلت عنه فما الذي دعاني الى تغيير رأيي ؟

أولا : السرعة المذهلة التي صاحبت التحسينات في عالم الطيران .

وثانيا : تقدم الصناعة الذي لا يستطيع رجل الشارع أن يفهم معظمه .

منذ احدى عشرة سنة فقط جرى بعضنا نحن معشر الثرثارين الى الكتابة والخطابة متكهنين بطائرات تطير بسرعة خمسمائة ميل في الساعة في الجيل المقبل فحذرنا الأصدقاء هذا القول لان الحكومة تعتقل الناس الذين يختل منهم مافوق الأذنين !

ولكن لم تمض سنة بعد الحرب حتى كانت الطائرات تطير بسرعة تزيد على ستمائة ميل في الساعة وأحب الناس هذه السرعة وقد علمنا أن أحد الطائرین زاد في بعض مراحل الطيران سرعة طائرته الى سبعمائة ميل ، والآن يتوقع كل مهندس أن توجد في خلال عشر سنوات أو عشرين سنة طائرات عملاقة تسبح فيما وراء الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض بسرعة ثابتة تبلغ خمسمائة ميل في الساعة في طوافها حول الأرض . وستبلغ سرعة الطائرات الحربية ألف ميل في الساعة قبل أن نفاجا بنشوب الحرب التالية ، واليوم لا يعد الخبر ثرثارا ولا متشدقا ما لم يكن يعمل في صنع طائرة لرحلة يصل بها الى القمر ويعود منه في ذات الليلة .

منذ أربع عشرة سنة كانت الطائرة تستطيع أن تصل الى أية بقعة على الأرض في مدة خمس وثمانين ساعة اذا أمكنها أن تحمل وقودا كافيا أو تتزود بالوقود خلال رحلتها ولما كان كلا الأمرين متعذرا فقد استعصى عليها الطواف حول العالم . وكانت الرحلات محدودة ببضعة آلاف من الأميال مع توقف في بعض المحطات المناسبة ، ومنذ خمس سنوات أظهر بعض الخبراء شجاعة اذ نشروا أن طائراتهم تستطيع أن تطير من أية بقعة في العالم وتصل الى أية بقعة أخرى فيه في مدة لا تزيد على اثنتين وخمسين ساعة . وقد زاد عجبنا من هذا الأمر ولكن أليس العالم مليئا بالعجب العجائب ؟

ان لدينا طائرات جبارة تستطيع الوصول الى ابعد ركن في هذا العالم الصغير في غضون ثلاثين ساعة تقريبا ، ولدينا طائرات يمكنها بواسطة محطة وقود أو محطتين على طول خط السير أن تصل الى ابعد الأماكن في مدة اثنتين وعشرين ساعة تقريبا مع غرض النظر عن ساعتين للتزود بالوقود واختبار الطائرة . وفي الوقت الذي تطالع فيه هذه الصفحة يحتمل أن تكون قد خرجت إحدى الطائرات في تجربة للطواف حول العالم فوق خط الاستواء في خمس وثلاثين ساعة أو نصف هذا الطريق في نصف ذلك الزمن .

وبينا أكتب هذا السطر تدرس واشنطنجون طلبا قدمته إحدى شركات الطيران لتسيير خطا جويا بطائرة الهليكوبتر بناحية لوس انجيليز ، وسيصبح عن قريب انتقال رجال المال والتجارة من دورهم الى مكاتبهم في نحو ربع الزمن الذي كان يستغرقه القطار أو السيارة ، وستمتد حدود مدينة لوس انجيليز الى بفنلاند شمالا وبناما جنوبا . وحديثا شحن أحد الزراع الفرنسيين طنين من الخس الطازج الى لندن في طائرة بضائع وباعهما بأعلى الأسعار . والآن نرى جماعة من الطيارين القدامى يشتغلون بتأجير طائرات لتسييرها عبر القارة حاملة أى متاع مهما ضؤل الى أى مكان مهما ابعد .

والآن فلنتناول الغامض من الأمور التي أسلفنا ذكرها :

لم أستطع أن أدرك في معظمها شيئا أكثر من ظن سقيم من أن الناس أحدثوا ثورة في مئات الصناعات ومازال أكثرها طي الكتمان ولم تنشر أغلبها إلا تقارير مقتضبة ولكن حتى مجرد الإشارة الى طبيعتها يثير النشوة في كل انسان له خيال .

ومنذ بدأ الناس يبحثون طرق تحطيم الذرة في « أوك ريدج » Oak Rigde في ولاية تينيسى (١) استوفوا نحو خمسة آلاف من المنتجات والأساليب الجديدة التي تقيّد بدرجات متفاوتة في مئات من الصناعات التي لا يستخدم كثير منها الذرة المحطمة . وكانت تلك التحسينات في الأجهزة الخاصة بتنظيم درجات الحرارة ومنع حدوث مسام في أوعية الغازات وتنظيم الفولتاج العالي وهلم جرا .. وقد

(١) Tennessee ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية محصورة بين ولايتي كنتكي شمالا والاباما جنوبا .

أحدث عدد قليل من الاختراعات أساليب واجهزة جديدة كل الجدة أدت فعلا الى تغييرات عميقة في صناعات كبرى ويسمى أحدها «بالاشماع الغازى» وهو أسلوب لادخال الغاز عنوة في الأشياء الصلبة لقتل عناصرها كل عن الآخر . وفى «أوك ريدج» استخدم هذا الأسلوب لفصل الوحدة المرموز لها برقم ٢٣٥ من الأورانيوم ، وهناك أسلوب آخر شديد الصلة بالأول يحيل المواد الصلبة الى غازات بواسطة الكيمياءات بدلا من الأفران الكهربائية، وما عرف العلماء عن امتزاج الفلورين بالهيدروجين فى هذا الأسلوب قد قلب معلوماتنا عن تآكل المعادن رأسا على عقب ، ويقرر المهندسون أن هذه المعلومات ستؤدى فى القريب الى أن يقتصد رجال الصناعات ملايين الجنيهات سنويا .

ان الطلبات ذات الضغط العالى قد أخذت هى الأخرى تتطور تطورا كليا ويتكهن المهندسون فى هذا الصدد خاصة بأن الفوائد التى ستعود على الصناعة من استعمال مضخات أرخص ثمنا وأكثر أمنا وأسرع عملا ستعوض وحدها فى مدى عشرين سنة جميع ما تكلفته أبحاث القنبلة الذرية . فحاول أن تزدرد هذه اللقمة دفعة واحدة . ولكن هذا ليس أسهل على التصديق مما يؤكده الكثيرون من المهندسين البارزين : فهم يحدثوننا الآن أن صناعة البترول يحذفها يجب إعادة بنائها حتى اذا ماتم ذلك حصلنا على جازولين(١) وشعوم وعشرات من المنتجات الفرعية بأثمان زهيدة . ويجرى الآن إعادة بناء صناعة التبريد على نفس الأسلوب وتسايرها صناعة المواد الباردة التى تمتص الحرارة غير المرغوب فيها مع الهواء أو الماء أو الكيمياءات وهكذا الحال مع صناع الصهاريج والمراجل ومع صناع الأدوية من الكيميائيين وغيرهم . فهل تستطيع أن تتخيل الآثار المجتمعة التى تنجم عن استعمال خمسة آلاف جهاز حديث . لا ! حتى ولا اينشتين(٢) . فلن يستطيع ذلك العقل الضئيل الذى فى جسم الانسان الضئيل أن يتناول خمسة آلاف أداة دفعة واحدة بل انه ليعجز عن أن يحل ، بغير تدريب دقيق ، التشكيلات التى تتألف من تغيير مواضع ثلاثة أرقام مختلفة لا تربط بينها صلة ما ، وحتى مع التدريب لا تتسع قواه لمعالجة خمسة أرقام ، فما بالك اذا كان علينا أن نتناول خمسة آلاف رقم ؟ وانما هناك أمر واحد يمكننا أن نؤكد كل التاكيد وهو أن كل

(١) الجازولين بترول مكرر طيار قابل للاشتعال ويستخرج بتقطير البترول .
(٢) البرت اينشتين ولد سنة ١٨٧٩ وهو عالم سويسرى يهودى اشتهر بنظرية النسبية التى وضعها سنة ١٩٠٥ .

شهر في المستقبل سيضع تحت تصرف الكافة - اما لخيرهم واما لشرهم - أدوات جديدة غريبة ووجوها لاستخدامها أشد غرابة ولكن منها آثار متسلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض ولم تكن تخطر ببال على الإطلاق وستصبح الحياة مغامرة جنونية وسيستأصل كل عام جزءا من الدنيا القديمة ، وعلى أنقاض هذه الدنيا تظهر عادات جديدة واتجاهات جديدة وآراء جديدة .

ومن هم أول من يجنون فائدة هذا كله ؟ لا شك أنهم هم الذين لهم من حدة الذكاء ما يدركون به قيمة الأشياء الجديدة ولهم من النشاط واليقظة ما يمكنهم من الافادة منها خير افادة ، ولهم من الشراء ما يستطيعون به شراءها ، وبعبارة أخرى هم الرجال والنساء الذين بلغوا الخمسين من العمر أو جاوزوها والذين هم بين الثلث الأول من أصحاب الدخل الذين قضوا نصف القرن الأول من حياتهم يرقبون ويفكرون ويدخرون ويعملون ، ثم يرقبون ويفكرون ويدخرون ويعملون . وسيسيرون على هذه الوتيرة ولو مع شيء من الهوادة ، ولهذا كادوا يجمعون بين أيديهم المال والعقار والمناصب الرئيسية في جميع الشركات الكبرى تقريبا ، كما أنهم يتمتعون بخير النصائح والآراء . فلماذا إذن لا يكونون أول من يحصد ثمار العصر الذري ؟

لقد زاد في الأربع عشرة سنة الماضية تقدم هؤلاء المسنين في كل ميدان زيادة أكثر مما أحرزه أى شخص في القرن الماضى . ومنذ ذلك الوقت وهم يورثون أولادهم وحفداتهم مزايا ما حصلوه . وتحيا ذرايرهم حياة أطول وأحسن من أى جيل سابق فى أية بقعة من الأرض .

وإذا رجعنا الى عام ١٩٣٢ وجدنا أنه كانت تتاح فرصة واحدة لفرد واحد من بين كل مائة فرد لكى يبدأ حياته بالمعنى المنشود فى سن الأربعين . واليوم يحتمل أن تسنح الفرصة لواحد من بين كل عشرة أشخاص على الأقل ، وسيأتى يوم تصل فيه النسبة الى واحد من بين كل خمسة . وعندئذ يقف هذا التسلسل كما هو سنة الحياة لأن البرغوث لا ينمو حتى يصبح كالفيل ولا الفيل ينمو حتى يبلغ الجبال وليس الانسان مهما طال عمره بمخلد على الدهر .

ولكى يفوز اللاعب بما تجمع على المائدة الخضراء من مال يجب أن يعلن قيمة ما بيده من أوراق فأوراق اللعب كلها موزعة على الجميع والعالم ملك لكم ولكن مازال عليكم أن تنهضوا وأن تسعوا وأن تأخذوه فما يزال الانسان مهددا بالموت جوعا مالم يكن راغبا فى أن يرفع الى فمه المعلقة . وما هو ذا الخوان قد أعد لكم فاقعدوا واطعموا .

ان خير سنى العمر لا يتمتع بها الا من يرونها على حقيقتها
ويستخدمون ما يعلمون للافادة على قدر الامكان مما يملكون . وعلينا أن
نعترف مع الأسف بأن الرجال والنساء الذين جاوزوا الخمسين
لا يستخدمون في الوقت الحاضر أكثر من واحد في المائة مما يملكون، وهذا
الجزء من المائة لا يستخدمه بنوع خاص الا أكثرهم ثراء وأقدرهم تمرسا
وهم لا يجاوزون جزءا من مائة جزء من الناس . أما جموع الشعب فتتسكع
في هذا العالم المظلم الصاخب العريبد عالم الحيوان الضاحك ذى الساقين
(الانسان) .

أما زلت تشك في أن السنوات التي تلي سن الخمسين هي خير سنى
حياتك ؟ لا أستطيع الا أن أقول : انك غير قادر على أن تدرك عالم الفرص
الذى يحيط بك فان الافادة من هذا العالم لا تكفيها الحرارة والقوة .
انها تحتاج الى كثير من الضوء أيضا .

فهل ينقصك الضوء ؟ لابد اذن أن تكون شيئا صغيرا يبلغ من العمر
ثلاثين سنة أو نحوها ولكن صبرا فان الضوء قد ينبعث ، وقبل أن تبلغ
الخمسين بزمان طويل سينتج الناس في يوم العمل الذى مداه أربع
ساعات سلعا أكثر وأحسن مما ينتجه اليوم أى شخص فى ثماني ساعات،
وستنتهى النساء من الحمل بين سن العشرين والثلاثين وسيتعلم الأطفال
أن يكذبوا لأنفسهم حوالى السادسة عشرة ، وسيستقل الوالدان
بشئونهما عقب الأربعين توا ويعيشان على مواردهما وأمامهما الدنيا
الفسيحة الرحبة يذهبان فيها حيث يشاءان وسيعملان فى المنزل ساعة
أو ساعتين فى اليوم لإدارة شئونه ويأكلان المانجو الثلجة فى وجبة
الافطار وضلع الغزال فى الغذاء ويتخذان فاكهة الخبز^(١) بدلا من الشاي،
وسيستنفذ الناس مافى العالم من غذاء والشئ الوحيد الذى يعز عليهم
أن يتمتعوا به هو أن يتساقط من أغصان الأشجار الى أفواههم تفاح
مخبوز بالقشدة !

وسيدفع الناس ضرائب هيئة للاحتفاظ بالشرطة العالمية ولن يكون
فى العالم أى جيش . أما الأساطيل البحرية الحربية فلن يكون منها الا
القليل للرقابة والحماية وحمل الطائرات . وأما الأرباح الناجمة عن
المخترعات المدارة بالذرة المحطمة والمملوكة للحكومة فستدفع منها أكثر
تكاليف الحياة . وسيكون من النادر وجود رجل يشقى أكثر من ألف

(١) فاكهة الخبز : هى ثمرة شجرة كبيرة تنبت في جزر البحر الجنوبي وحجبتها كحجم
البطيخة واذا شوى لبها كان مثل الخبز .

ساعة في السنة الا في الهوايات والمباحث العلمية التي يختارها طوعا ،
وسيبلى هذه الدرجة من الندرة وجود المريض المزمع أو ذي العاهة
المصاب في حادث ما ، وسيكون من العبارات البالية أن تقول : « انى لم
اضع بسبب المرض خلال السنوات الخمسين الماضية الا أربعة ايام » .

كيف أجسر على أن أقول هذا القول ؟

لأنه في غضون السنوات القليلة الماضية ولأول مرة في تاريخ
البشرية استطاع الأذكىاء من الناس أن يدركوا على حين فجأة ما يمكن
فيهم من قوى : فهم يعلمون الآن أنهم يستطيعون أن يعملوا أى شيء تقريبا
الا أن يخلقوا في خمس دقائق طفلا يبلغ من العمر أسبوعا . فلهم سيطرة
كاملة على الطبيعة وهم يقتربون بسرعة من السيطرة على الطبيعة البشرية
بمثل تلك القوة وبعد سنوات قليلة سيجد النساء والرجال الذين جاوزوا
الخمسين في دهشة سارة - أنهم كجماعة حسنة التنظيم يستطيعون إدارة
أى نظام تضعه الحكومة لجعل خير سننى العمر مملوءة بالخيرات ، وبين
مواطنينا عدد كبير جاوزوا الخمسين . فلو أن ربع هذا العدد الضخم
اتحد وأنذر الأحزاب السياسية بأن عدة ملايين من الناخبين سيؤيدون
أول مرشح يعد علانية أن يعطيهم ما يريدون فأى مرشح مجرب يجرؤ على
أن يتجاهل هذا العرض ؟ ان أى انتخاب في أمريكا يمكن أن يغير اتجاهه
بانتقال أصوات تبلغ مليونين وقد تصل الى أربعة ملايين من مرشح الى
آخر ، وهذه عدة ملايين من الأصوات وانها لكفيلة بأن تضمن انتخاب
المرشح المفضل .

ليس هذا كل شيء لأن أغلب الثروة في أيدي الناس الذين جاوزوا
الخمسين فلو أنهم جمعوا جزءا ضئيلا من أموالهم للقيام بكفاح قسوى
لتحقيق نظام جديد لاستطاعوا أن يشقوا طريقهم بأموالهم هذه الى
« يوتوبيا » (١) . فى وسائل نقل من طراز بولمان (٢) ولست أعلم طريقة
أنحقق بها من الدخل الحقيقى لجميع من جاوزوا الخمسين ، ولكنى أعلم أنهم
خلال سنة ١٩٤٦ حصلوا على نسبة كبيرة من ثروة هذه البلاد . وانه
ليظهر اذا ما تلفت الانسان الى من حوله من الناس أن المراكز المربحة فى

(١) Utopia اسم لقصة كتبها توماس مور باللغة اللاتينية ظهرت للمرة الاولى

سنة ١٥١٦ وهى تدور حول جزيرة بهذا الاسم كانت حكومتها وكل شيء فيها بالفا

حد الكمال :-

(٢) Pullman جورج مورتي مور ولد سنة ١٨٢١ وتوفي سنة ١٨٩٧ وهو مخترع

أمريكى أدخل في عربات السكك الحديدية نظام القاعات الفسيحة الفاخرة وحجرات

الطعام وغيرها من التحسينات :-

محيط الأساتذة والمحامين ونظائهم وفي الوظائف الرفيعة في طوائف
التجار والصناع يشغلها في الغالب أناس في هذه السن . فتصور هذه
القوة المنظمة التي تستطيع بأموالها أن تخلق دنيا تكون خير سنى العمر
هى خير ما بها .

ولكن الثروة والنشاط السياسى لا يستطيعان أن يأتيا بهذا العصر
العظيم بأسرع مما يستطيعه أكبر مفاخر جيلك : خياله ومهارته فان أكثر
العجائب التي كنا نلمحها أخيرا نبئت من أذهان أناس جاوزوا الآن
الخمسين ، وإذا أضفت من توفاهم الله منذ عشر سنوات أو عشرين سنة
والذين كانوا من رفاق الكثيرين من الأحياء العاملين ظهر لك أن كل شيء
حديث يكاد يكون من صنع وتفكير الجيل الذى ولد منذ سنة ١٨٦٠ وهم
أقوى مجموعة من الأذهان فى كل الأزمان فهم العمالقة الذين اكتشفوا
النشاط الاشعاعى والذين اخترعوا الآلات ذات الاحتراق الداخلى وخلقوا
الطائرات والغواصات وحسنوا أجهزة الرؤية عن بعد والآلات الناطقة
وانتزعوا النيتروجين من الهواء والبرومين من البحر ، وطبخوا اللدائن
واحده اثر أخرى فى أول الأمر ثم بالعشرات فيما بعد ، وفكروا فى
الأجهزة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت وفى الأجهزة الالكترونية
وأوجدوها فى عالم المحسوسات حتى وصلوا فى نهاية الشوط الى أعظم
ما حققته الايام من نجاح وهو تحطيم الذرات والقضاء قضاء تاما على
الانسان القديم وعلى كل طرقه التي تشبه طرق القرده وعلى تقاليده
القيعية التي كان يمجدها كل التمجيد .

لدينا الآن سلالة تستطيع أن تجنى أكبر فائدة من خير سنى العمر
وهؤلاء الناس لن يجلسوا مكتوفى الأيدي يتطلعون الى الشفق الأرجوانى
وينتظرون خاتمة الأبحاث . فاترك هذا المسلك الهزيل لرجال ما قبل
الذرة فان الحياة بعد الخمسين ستكون خير حياة وجدت على الأرض والا
كان على هؤلاء الناس الوزر .

وهم حينما يطلبون المساعدة تلبى النداء وستحصل على نتائج لأنك
أسمى من رجل الشارع بالأمس سمو هؤلاء الجبابرة على الجبابرة الأسبقين .
حقا اننا دخلنا فى عصر الرجل القذ وان لدينا ملايين من الناس يرتفعون
عن الرجل العادى بالأمس ارتفاعه عن القرد .

واليوم نرى رجل الستين العادى أنصر عودا من جد أبيه عندما كان
فى سن الأربعين وأن رجل الأربعين فى جملة أشد قوة من فتى العشرين
اليوم لا لأنه يملك القوة البهيمية فهو لا يمكنه أبدا أن يضارع الفتى

النامي الجسم في الجرى أو القفز أو المصارعة ، الا أن أحسن ملاكم في سن العشرين لا يمكن أن يضارع غوريلا صغيرة السن (وقد استعرنا هذا التعبير من مستر آرثر برسبين^(١) الذي اعتاد أن يستعمله في الأيام المطيرة التي لا يجد فيها شيئا يكتبه خيرا من هذا) .

وحيثما يجمع التاريخ الكامل للحرب العالمية الثانية سنجد أن كل من اشترك فيها يعرف الآن أن جميع الأعمال الثقيلة المملة قام بها الأحداث وأن جميع الأعمال الفكرية الفاصلة وإدارة الحرب إدارة فنية جريئة صدرت عن أناس أقرب ما يكونون إلى السبعين منهم إلى العشرين ، وأن كثيرا من أعمال العبقرية الثائرة والمخابرات والاستعلامات كان يصدر عن رجال جاوزوا السبعين بقليل ، وسيتضح أيضا كما اتضح في الحرب العالمية الأولى أن المحاربين الكبار السن أثبتوا أنهم خير من الشبان في ساعات اليأس فالمحاربون الذين اشتعلت رموسهم شيئا كانوا يصدون الفرع وكانوا للشبان المفزوعين مركز التجمع واسترداد الثقة . وأثبت متوسط الأعمار مرة أخرى كل ما يعرفه علماء النفس من أن الحكم على الأشياء في برود وثبات ونضج له قوة هائلة في استقرار الأمور إذا ما بدأت تسير من سيئ إلى أسوأ .

ولما كانت الآلات والأساليب تبسط الأعمال فإن المتقدمين في السن من الرجال والنساء يستطيعون الاضطلاع بأعمال تستغرق كل الوقت زمنا أطول مما كانوا يستطيعونه من قبل ولهذا السبب نفسه يجدون العمل المألوف الذي يستغرق نصف الوقت أمرا سهلا ولهذا يجدون من المناسب أن ينتقلوا من العمل كل الوقت إلى العمل نصف الوقت ، وفيما بعد قد ينتقلون إلى عمل يتطلب مجهودا عضليا أقل ، ولكنه يتطلب في الوقت نفسه زيادة في التقدير والتبعة .

وعلى أية حال فهم يتمتعون بالحياة كلها على نحو لم يدركه أي من أسلافهم وهم يقدمون للعالم خيرا لأنهم يعملون بعدة أفضل ويعلم أغزر ، وهم بهذا يدخلون خير سنى العمر بروح منتعش لا كحطام يضعه - بعد قليل - الجيل الناشئ فوق رف مترب في ركن مهجور من أركان المنزل . تبعث هذه الثورة الارتباك في نفوس كثير من الناس الذين كانوا يعتزمون أن يعتزلوا أعمالهم منذ ثلاثين سنة أو تزيد ويجب الآن فحص هذا الموقف الحاطيء نحو اعتزال العمل فحصا دقيقا .

(١) Arthur Brisbane محور باب الحوادث في بعض صحف الأخبار التي

يملكها ويليام واندولف هيرست (المولود سنة ١٨٦٣) وهو من أشهر الصحفيين الأمريكيين ومن بين الصحف التي يملكها صحيفة نيويورك أمريكان New York American

- ٥ -

» ماذا تقول ؟ أأعزل العمل ؟ كلا !

قال الصديق وهو يهز يد الرجل الكبير : « أبلغت الخامسة والستين حقا ؟ ومتى تعتزم أن تعتزل العمل » ؟ .

فينتفض الرجل الكبير ويحملق في الصديق ويقول :

« ماذا تقول ؟ أعتزل العمل ؟ أعتزله ؟ أنا ؟ انى لم أكن فى يوم من الأيام أصبح منى الآن ! كلا ! انى أحب عملى وأحب العمال وأحب بيتى وفى الواقع أحب كل شىء كما هو الآن فلماذا أعتزل العمل ؟ انى أصلح للعمل مائة سنة أخرى . تفضل خذ سيجارا » .

يسمع الصديق ضحكة عالية ونقاشا غاضبا وقرعا عنيفا على المكتب ولا يقول ان زميله أكثر من الاحتجاج ، ولكنه يظن ذلك ، ولهذا لا يهتم عندما يسترعى الرجل الكبير نظره الى كأس قضية فاز بها أخيرا فى مباراة « الجولف » .

ما الذى يدور خلف هذا الزهو الصاخب ؟ .

ما الذى يخيف المهرة من اعتزال العمل والتمتع بخير سننى عمرهم ؟ .

هو المثل السيء . واعتقد أنك رأيت مئات المرات ولقد شاهدته أنا بنفسى ألف مرة ومن بين عشرين نوعا مختلفا منه تبرز أربعة أنواع تستوى كثرة ذبوعها مع شدة قبورها .

فالنوع الأول : هو الخادم الطيب الأمين التابع لشركة الفول الغازى ، فهو بعد قضائه سبعا وأربعين سنة فى العمل يتشقق فجأة ثم يجمع شقافة جسمه بالمكنسة ويضعها فى صندوق القمامة .

والنوع الثانى : هو الخادم الطيب الأمين (التابع لشركة عربات الحيل ليمتد) فهو على الرغم من الثلاث والخمسين سنة التى قضاهما فى الكدح لم يستطع أن يدخر ما يكفيه لليوم المطر وينتهى به المطاف الى أن يبقى فى رذاذ مستمر وبغير معطف ولا واق من الأوحال كأنه لاجئ مهذب غارق فى تفكيره .

والنوع الثالث : هو ذو الذهن اللامع النجاح فى ناحية واحدة

(نائب رئيس شركة أحسن مروح (١) لحب الشباب) الذى يعرف أكثر من أى شخص آخر على وجه الأرض عن الرموس السوداء (٢) ومع ذلك يعتزل العمل بمعاش سمين • حقيرا كرأس الدبوس لا أمل فيه ولا يهتم بأمر من أمور الدنيا الا بالرموس السوداء •

والنوع الرابع : هو الأنانى الناجح الذى وصل الى السلطة والثروة بالمهارة العظيمة فى التعالى على الكتبة وفى التزلف للرؤساء • وفى نهاية حياته العملية يلجأ الى عالم لا يستطيع فيه أن يتزلف الى أحد لأنه لا شيء ثم ان غضبه الكامن فى نفسه على هبوط منزلته يذبل ازهار حديقة روحه •

والآن أقول : ان هذه الأنواع الأربعة هى النتاج الخاص لمدينة هذا العصر وان الحاجة الى هذه الأنواع ليست أكثر من الحاجة الى أخص سادس ، وان الاهمال المحض ساهم فى انتاجها أكثر من أى عامل آخر وان اعتزال العمل يجب ألا يلوث باى من مساوئها •

فالنوع الأول يتفتت نتيجة للاهمال الذاتى فى تسع حالات من عشر فهو يسرف فى العمل أو فى الغذاء أو فى الشراب أو فى حمل الهموم غير معنى بالقلب أو الرئتين أو الرأس أو القدمين أو الطحال •

والنوع الثانى ينتهى بالعدم والاملاق لا لشيء الا لأنه لم يتعلم بتاتا أبسط قواعد الادخار أو لم يمارس بعضها على الأقل وان العامل الوضع ليسطيع ، اذا كان لديه حسن التقدير ، أن يدخر خير سننى العمر •

والنوع الثالث قد سمح لعمله أن يحصره فى دائرة ضيقة من التخصص التافه الذى لا خطر له مطلقا فى هذه الدنيا الواسعة التى يعتزل اليها وقد أتى به تعليمه السيئ فى فجر حياته الى هذه الحالة المحزنة •

ان المناطق الزراعية عندنا أنتجت عشرات الآلاف من الرجال والنساء أغلبهم من النوع الثالث ، ولكنهم ينقسمون الى أقسام ريفية ، وسأذكر حالة رجل طالبنى بالألا أذكر اسمه ولست ألومه على التخفى خلف هذا الستار السميك من التنكر •

هذا المحامى الريفى الذى يبلغ الآن الخامسة والسبعين قد قضى

(١) مرخ جسده دهنه بالروح وهو ما يمرخ به البدن من دهن وغيره •

(٢) حب الشباب •

كل أيامه في أودية يوركشير ومرابعها وحضر في عشرات القرى منازل ريفية من كل نوع ولكنه احتفظ بروحه المعنوية فياله من رجل !

وانى مورد كلامه بنصه وفصه :

في هذه البلاد تضرع عقول الرجال المسنين الذين اعتزلوا العمل أو تتحلل بأسرع منها عند الذين يستمرون في عملهم النشيط . وعندما يجد الزارعون النشيطون ذوو السعة أن أولادهم جميعا رحلوا عنهم وأن عليهم أن يعتمدوا على عمال يستأجرونهم يشعرون بالضيق فيؤجرون المزرعة أو يبيعونها ويلجئون الى المدينة حيث يصبحون مصدر متاعب كبيرة أو صغيرة وهم يتناقشون في الشئون الخاصة بالمجاري والانارة واستهلاك الغاز وهلم جرا . وهم يطالبون بتخفيض ضرائب المدن، وهم في سن الخامسة والستين قد فقدوا الاهتمام بإدارة المجالس البلدية أو مواجهة ما طرا اليوم من تغير على ظروف الحياة .

وفي المدن الكبرى نرى أن كثيرا من هؤلاء الفلاحين الذين اعتزلوا الأعمال لا يلبثون بعد نحو ستة أشهر أن يتضايقوا من حياة المدن وهم لا يجدون من يمد اليهم يد العطف فيسرفون في الأكل ويضطرون الى استشارة الطبيب ولا يبالون بنصيحته ويظلون يأكلون الطعام كما تأكل الرحا وعادة يقضى عليهم بعد خمس سنوات أو سبع وقد يبحث بعضهم عن وظيفة حارس منزل .

ان هؤلاء الفلاحين قد ابعدوا جميعا وهم يتصفحون الصحف اليومية فلا يجدون بها أنباء عن يعرفون من أناس أو شئون ولم يدربوا من قبل على التفكير في شئون البلاد ففي الأيام الحوالى التى قضوها بالريف كان أهل القرى يتطلعون اليهم ويحترمون آراءهم . أما في المدن فلا يحتاج أحد الى أن يسمع رأيهم في أى أمر وسرعان ما تستحوذ على مشاعرهم الضرائب العالية وتكاليف الحياة .

وكثيرا ما ذهبت اليهم في ضياعهم وناقشتهم في شئون الفلاحة والمخربات والمواشى وضرائب الاراضى وتأكل الأرض وأمور كثيرة أخرى فكانوا في هذه الموضوعات يتكلمون عن معرفة وخبرة . فلما ذهبت اليهم ثانية في دورهم بالمدن حيث يستضيئون بالكهرباء لم يحروا جوابا عن أسئلتى التى وجهتها اليهم عن شئون الوطن الأكبر . وكثير منهم لا يجد ما عمله الا الجلوس والتفكير في ممتلكاته التى سيخلفها لأولاده وأصدقائه من بعده .

ان قلة النشاط والعمل تؤدي الى فقدان المواهب والكفاية ولكنها
يجب ألا تؤدي الى الانحلال والهلاك .

وهؤلاء التعسرون كثيرا ما يكونون أمشاجا من النوعين الثاني
والثالث وهم لضعف تربيتهم قضوا حياتهم يتحايلون على زرع القمح
وتنمية البطاطس وتربية الحنازير لأنهم لم تغمهم الغفلة بل تعلموا
الكثير عن القمح والبطاطس والحنازير وكل ما في الأمر أنهم أناس محدودو
التفكير لا يتجاوز تفكيرهم أثر المحراث في الأرض لأن معيشة العزلة التي
عاشوها في مزارع سحيقة ضيقت من آفاق تفكيرهم تضيقا خطيرا ،
ولذا اذا ما توقفوا عن العمل في زمن معين فكل ما يعملونه هو انتظار
الموت فعلينا أن نرسم الخطط لنمنع هذا المصير .

أما النوع الرابع : فهو يختلف اختلافا كبيرا عن ثلاثة الأنواع
الأخرى ، انه انسان فيه بذور الاختلال العقلي ، بذور حب العظمة وربما
لا تنبت هذه البذور هتلا صغيرا أخضر العود ولكنها مع ذلك لا تزال
سامة قاتلة . والى شركاء هذا الرجل في العمل يرجع جزء من اللوم على
ما اكتسب من وسائل التحكم والتسلط وعلى اعتزازه بنفسه ولو كان
نظام المجتمع خيرا مما كان لعرف هذا الرجل قدره ولزم مكانه .

والآن نجد هذه الأنواع الأربعة سابقة على الثورة وقد ازدهرت
أو ذبلت - اذا فضلت هذه اللفظة - في الأيام التي سبقت عصر الذرة
وظروف الحياة والعمل والتربية قبل سنة ١٩٤٦ هي التي خلقتها ولذا
سيكون بين أيدينا عشرات الألوف من الرجال (وقليل من النساء)
في سنواتهم الأخيرة ييئون الذعر في نفوس المراقبين الصغار . ما أقسى
المصير ! والسقوط الى هذا الدرك خير منه الموت . واذا كان اعتزال
العمل يزج بنا الى هذا المأزق فلنتجنب اذن اعتزال العمل . وهكذا
تتسلسل الافكار .

وفي الحق أيضا أن أيام ما قبل الذرة أفرخت جماعة كريهة من
عجائز وشيوخ فقدوا عقولهم وراحوا يئنون ويتمتمون ويرتعشون
ويجأرون بالشكوى وأنت ترى المتخلفين من رجالنا لا يزالون يختلفون
الى الميادين والحدائق وكثير منهم فوق كراسي ذات عجل وما من رجل له
مسكة من العقل يود أن تنتهي حياته بمثل هذه النهاية .

فالى الرجل الكبير الذي يتبجح بأنه لن يعتزل العمل في خلال مائة
السنة القادمة الى هذا الرجل نوجه القول :

« أنت فتى عفى عليك الزمن يا هرولد . وما برحت تعيش في الأيام العزيزة الغابرة في عهد ملكتنا الطيبة فكتوريا . أدرك الزمن وسير عربتك بالذرة . أنت تظن أنه من الآن فصاعدا سيعود الزمن سيرته : أى أن الرجل اذا اعتزل العمل كان عليه أن يقف بلا حراك فلا يعمل شيئا على الإطلاق ويفقد كل قواه وسيطرته ويتجاهله الشبان . أنت تظن أنه يجب أن تعتزل العمل لتأنس بذكرياتك . أنت تظن أن حياتك تتوقف . هذا هراء فان فى استطاعتك أن تكثر من العمل أو تقلل منه كما تشاء ، وتستطيع أن تعمل ما تحب أيضا . تستطيع أن تعود الى نفسك أكثر مما استطعت فى أى وقت منذ حداثة العمر » .

وهذا هو الحق الصراح ولكن هرولد لم يكن قد تعلمه من قبل فهو كأغلب رجال الأعمال النشيطين يتخلف عن العالم بجيل ، ولكنه فتى المعنى يستطيع أن يدرك ما فاتة . أتج له الفرصة ، وعندما يرى الضياء يصبح ويمسك بقبعته وينصرف جاريا ويتوارى فى غمرة سرعته بما يثيره من غبار .

فى قدرة الناس الآن أن يعملوا بالمادة كل شئ فقد أرسلوا اشارات الى القمر وقاسوا ارتفاعات جباله وغمسوا بوساطة الرادار مقياس حرارة فى جوف الشمس وقرأوا درجة حرارتها وعينوا مواقع كواكب غير مرئية على بعد آلاف من الأميال وهى تسبح فى الفضاء المظلم وحولوا الصلب بوساطة القنابل الى غاز وخلقوا بذلك درجات من الحرارة لا يمكن تصورها غير ان كل هذا ليس الا مجرد لعب حول اطراف البحار المجهولة ، ونحن نسير فى أول الطريق متجهين نحو اليوم الذى يصنع فيه الناس كل شئ فى يسر بضمن بخس حتى يستطيع أفقر متسول أن يشتريه ، وفى ذلك اليوم يستطيع العامل بما يتكسب من أجر أن يحصل على ما يريد ، ولن يكون ما يدفع شيئا مذكورا ، وسيستطيع رجل واحد أن يعمل ما يكفى ألفا غيره .

وحينئذ لن يعنى المال شيئا أكثر من صرير الجرذان وأما من يعرضون ثرواتهم للمباهاة فلن يكونوا الا اضحوكة للناس ، وسيكون أكثر منهم عرضة للسخرية أولئك الذين يندبون حظهم من الفقر وسيكون معنا فقراء ولكنهم لن يكونوا الا الأغرار البله لأن حبة من حسن التصرف تنتج جبلا من الثروة . ثم يبدأ العصر الذى لا يستغرق فيه العمل الا بعض الوقت القصير .

نتطاحن اليوم على أسبوع العمل الذى يتألف من أربعين ساعة

وعلى الأسبوع ذى خمسة الأيام • وأما فى الغد فسنتطاحن على الأسبوع ذى الثلاثين ساعة وعلى اليوم ذى أربع الساعات وعلى أثر التقدم فى تحطيم الذرة سنتطاحن على الأسبوع ذى العشرين ساعة واليوم ذى ثلاث الساعات ، وتسائر هذه المعركة معارك حرب العصابات والقناصة فى غاراتهم على ما استتب من النظم العتيقة وستدور احدى المعارك على سن التقاعد وطريقته ،

وسينقرض النوع الأول من امثلتنا غير السارة كما انقرض امثاله وسيجنب الاجهاد والهم بمجرد الاستغناء عن جميع الاعمال الشاقة وعن التفكير فى الثروة والمصير • ففى أيامنا الحاضرة ينتج الزارع الواحد كل ما يحتاج اليه عشرون آكلًا وبعد سنوات سينتج ما يكفى مائة آكل ، ثم ماذا بعد ذلك ؟ لماذا نزيد زراعة الاغذية فلنقعد عند مدخل الباب الخلفى ولنلعب الشطرنج فكل انسان سيحصل على ما يريد من طعام من زارعى العصر الذرى الذين سيقبل عددهم عن مليونين وربما قلوا الى نصف مليون (ولا تظن أن هذا لن يتم قبل ألف سنة لا بل فى خلال حياة الأطفال الذين يصرخون الآن ويطلبون زجاجات الرضاعة) وفى خلال الحرب ضاعف أحد صناعات الصلب دون أجهزة تدار بالنشاط الذرى مقدار ما ينتجه ، فاذا استخدم الذرة فقد يستطيع أن يضاعفه مرة أخرى فى السنوات القليلة القادمة ثم يضاعفه بعد ذلك مرة ثانية فثالثة، وقبل زمن طويل سيصبح كل ثلاثة من بين كل أربعة من صناعات الصلب وليس لديهم ما يصنعون لأن الرجل الرابع سيد المشتريين جميعهم بما كانوا يشترونه من الاربعة • ثم ماذا بعد ذلك ؟ •

ان الشئ الواضح الذى يهون صدمة التعطل الفجائى هو التبكير فى الاقلال التدريجى من العمل والتبكير فى اعتزاله ، ويبدو اليوم هذا الرأى للرجعيين كأنه فكرة غير مقبولة ، ولكنهم سيتقبلونه غدا على كراهية كما تقبلوا جدول الضرب • ونحن اليوم نظن أن سن الخامسة والستين هى خير سن لاعتزال العمل ، وفى الغد سننظر الى الستين هذه النظرة وبعد زمن أطول سنطالب كل انسان أن يعتزل العمل وأن يستمتع بالحياة فى سن الخامسة والخمسين ثم نواصل سيرنا لنجعل سن الاعتزال فى الخمسين وهذا أمر محقق تماما لأن جميع ما يبذل فى صناعة السلع وفى تقديم الخدمات العامة سيضطلع به قريبا نصف القوة العاملة فى الوقت الحاضر ان لم يكن ربعها •

فأى اسكاف يود أن يصنع أحذية اذا كان مصيرها الالقاء بها من النافذة لأنه لا يوجد من يرغب فى شرائها ؟ ومن ذا الذى يعنيه أن يصنع

سيارات لا يوجد من يقودها لأن السيارات القديمة ما زالت صالحة كأنها حديدية ؟ ومن ذا الذي يعمل معاطف من أجود أنواع الصوف ويلقى بها في سلال المهملات لأن كل انسان لديه من الملابس كل ما يحتاج اليه في مدى السنوات العشر القادمة ؟ .

سيصبح العمل في مرحلة معينة نوعا من الحق ولا يشقى الناس طويلا على غير طائل .

سيختفى النوع الثاني من الامة السيئة بمجرد أن يزول الفقر ، وسيأتي وشيكا الوقت الذي لا يبقى فيه الا ذوو العقول المريضة لتعنى بهم الدولة .

أما النوع الثالث فسينقرض بتحسين طرق الصناعة ونظم التعليم فالعقل ذو الناحية الواحدة يشغل الآن بال بعض التربويين وهم يدرسون ما به من خطر . وبعد وقت قصير لن نرى هذا البائس الذي يكاد يعرف كل شيء عن لا شيء ، وسيخرج تلاميذ المدارس الى الحياة مزودين بخبرة في عشرات النواحي .

والنوع الرابع سيكون آخر من يختفى لأنه أشدهم استتارا وأصلبهم انقيادا ولاسيما في المجتمعات الديمقراطية فالرجال الذين يصابون بجنون السلطة سيصبحون في العصر الذري أول من يثير قلقنا . وقد ينسفنا جميعا أحدهم نحن والارض بل والقمر ، ولحسن الحظ ندرك الخطر الذي يحيق بنا وسنواصل تحررنا حتى لا يظهر هتلر آخر لأنه أن ظهر فسيظهر في هذه المرة مسلحا بقبيلة ذرية ذات آثار يأخذ بعضها برقاب بعض حتى لتنسف المحيطات .

والرجل الكبير الذي يصر على الجلوس الى مكتبه وعلى ادارة عمله في السنوات المائة التالية سرعان ما يؤخذ ويشد فوق كتفيه قميص المجاذيب المهتاجين حتى يصحو من غفلته وينصت الى أنشودة الذرة فهل تذكر هذه المكتشفات والمخترعات الجديدة التي تبلغ خمسة آلاف عدا والتي نبتت من الأبحاث الذرية وأعدت للاستعمال في زمن السلم ؟ انها ستذهل هذا الأناني العظيم . انه عبد عاداته مثله في ذلك مثلك ومثلي ولقد اقتنى ثروته من خبرته في تجارة الجلود بحسن تخير الجلود والآلات والأساليب ولكن كل مايعلمه يصبح فجأة عديم القيمة فاحدى اللدائن تحل محل الجلد والنيلون يزيح الكتان والقطن من الطريق ولا تسعف طرق تشغيل الجلد القديمة وتتبدل حال الأسواق . ما هذا الذي نسمعه عن

شخص فى اثيوبيا يصب مادة فى قالب ثم يستخرج منه بعد ثلاث دقائق
جذء لطيفا ؟ احسنا لست اصدق ماتقول : وما الذى تبغيه ياسيدى ؟ هل
أنت ممن يخفون أموال المفلسين بالتدليس ؟ النجدة يارجال البوليس .

وما يحصل فى الجلود يحصل مثله فى المنسوجات وفى الأدوات
الأيومينية والثلاجات الكهربائية ومعاجين الأسنان والفرغرات وكرات
السلة وكعكات السمك والمثلجات والقشدة الباردة والفازلين ولقيمات
ساندوتش ، فكل الجهاز الاقتصادى يدور ويدور ونحن اليوم فى غمار
ذهول مما سيقع فى غضون مائة السنة القادمة .

فلكل انانى يصيح بملء فيه : هانذا ، ننشر فى هذا الكتاب نصيحتنا
له بالتعجيل بالخروج طالما كان الخروج مستحبا وهو اليوم لم يتخلف عن
الزمن الا سنة أو اثنتين وفى الغد سيكون تخلفه بمقدار خمس سنوات
وبعد الغد سيتخلف بمقدار عشر سنوات وحين ذاك سيحملك فى تقرير
المهندس ولا يفهم مما فيه الا جملة من كل عشر جمل ، والجملة التى يدركها
ستكون ان الشركة كان يمكن أن تجنى قليلا من الربح هذا العام لولا
التحلل المؤسف الذى أصاب الأجهزة العليا من رأس مديرنا .

اخرج فالخروج الآن مازال مستحبا .

هل يعارض فى الخروج ؟ هل يقبض بيديه على حافة مكتبه ويصرخ
فى وجوهنا ؟ حسنا يا أولادى . سلموه الأعمال ، نحن لا نود الاضرار
به . انه شاب ظريف من بعض نواحيه ولكننا الآن لابد ان نصدمه
بالحقيقة التى تؤلم .

ابلغ الشخص العنيد ان الناس الذين ليس لهم مايعيشون من أجله
يتشبثون بالحياة فى عناد ويتشبثون بأعمالهم القديمة وانت تعلم ان
« بن فرانكلين » اعتزل العمل فى سن الثانية والأربعين لكى يعيش كما
يشتهى . وما أسعد هذه الحياة التى عاشها وهو لم يقبض على طرف
مكتبه بيديه ويصيح بأن جميع الطباعين والناشرين لا يستغنون عن
خدمته . كلا ان لديه ما هو خير من ذلك ، هو نشر مواهبه الكامنة .
هو انقاذ عالم جديد من بين مظالم العالم القديم وسخافاته .

اذا كان بن فرانكلين قد استطاع أن يعتزل العمل وهو مسرور فى
سن الثانية والأربعين ، فلاشك انه ينبغى لك أن تعمل مثله وانت فى حوالى

الستين أقول : لا ؟ اذن انك تنشر ببساطة على كل العالم تفاهتك المروعة .
وفي مكتبك وأنت تسيطر على من حولك من الموظفين تتقلد المركز الرئيسي
وفي نادي موظفي ادارتك أنت شيء لا بأس به وفي أسرتك أنت المتعهد
الأكبر أيها الوالد ولكن حينما تعتزل العمل وتنصرف فريدا فأنت
تتلاشى لأنك اليوم لا شيء . وكل ما يظهر أنك اقتصيته هو هذا النسيج
السخيف من الحياة الذي تسميه عملك ، ولكي تضي على نفسك
اهمية تصر على أن العمل مهم .
أيتها الممرضة نحيه عنا .

- ٦ -
وطن نفسك على اعتزال العمل

ابداً يوم عيد ميلادك السادس بأن تغرس فى نفسك حب التقاعد وحافظ عليه مدة خمسين سنة وحينئذ يصعب عليك أن تلاحظ أثر الانسحاب من العمل والتقاعد بعد الستين .

خصص لنفسك جزءاً من الزمن واخل بها قليلاً واقض ساعة كل يوم بعيداً عن والديك ورفاق الصبا وتعلم أن ترتب مهالك واطه غذاءك ونظف حجرتك واصقل حذاءك ودبر أمرك بصفة عامة . وفوق كل شيء فكر لنفسك وتراخ ومارس الهدوء وتجنب أن يكد لك المتعجرفون أو يضايقك المتظاهرون والدساسون . واستغن عن الناس ما استطعت وعندئذ تمتع بخير سنى حياتك حتى الثمالة .

ومع الأسف انقراء هذا الكتاب ممن هم فى سن السادسة قليلاً ولكن دعنا نستخلص من الأمر خير ما فيه فإن كنت فى الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين فكيف تغرس فى نفسك الميل الى اعتزال العمل ؟

ان الميل الى اعتزال العمل يشبه من احدى نواحيه العظيمة: فبعض الناس يولد بها وبعضهم يصطنعها وبعضهم تطرح عليه : فالمولودون بها هم اسعد الناس حظاً وأمامهم فرصة طيبة فى ان يحيوا مائة عام وان يستعملون مجموعة ثالثة من أسنان صناعية بيضاء سليمة ولديهم نشاط غريزى ضخيم ومواهب قوية أخذت تبرز منذ الطفولة وهم يتجهون فى لهفة الى اعمال لا ترهق عقولهم ولا أجسامهم ، وعملهم يأخذ عليهم كل تفكيرهم ويستطيعون أن يقولوا بحق « ان عملنا اليومى هو عملنا طوال الحياة » ولم تفتح بينهم ثغرة تفرق بين العمل الذى يعملونه وبين هوايتهم ، فليس ما يبعث فيهم الלהفة على انفسهم ، وأغلب الظن أنهم تنقصهم الدوافع التى تدفع الآخرين الى حيث تسلط عليهم الاضواء وتزج بهم الى ميادين النزال ومجالى الفروسية وعروش الملك ، ولذلك فهم لا يخرقون انفسهم بنار الشهرة الكاذبة بل يواصلون سيرهم وادعين مرحين لعدة سنوات بعد أن يتحول مشاهير معاصريهم الى تماثيل مرمرية . وأما الذين يصطنعون الميل الى اعتزال العمل فيستحقون الأنواط والذكر الحسن .

أما الذين تطرح عليهم هذه الفضيلة فيستحقون ان يكونوا موضع دراسة عميقة .

والمعمرون يولدون معمرين ولا يصنعون معمرين (أو على الأقل أنهم لا يصنعون قبل أن يتم الروسيون صنع المصل المطيل للحياة) ونحن لا نتعلم منهم الا القليل ولذا نغفلهم بين وقت وآخر ، أما الفريقان الآخران من معتزلى العمل فجدىرون منا بكل وقت يمكننا أن نخصصه لدراستهم . ولنبدأ بالطراز الثالث أولا حتى لا يبقى على مناضد التحليل الا أولئك الذين يصطنعون فضيلة اعتزال العمل .

والناس الذين أصيبوا اصابة خطيرة من حادث أو مرض غالبا ما يضطرون الى اعتزال العمل عدة أشهر أو عدة سنوات ، وخلال هذا الوقت يتعلم أقدرهم كيف يبتعد عن العمل وأن يفيد من الراحة المفروضة عليه مع بذل مجهود ضئيل ، وفى استطاعتى أن أذكر هنا حالة عشرة أو أكثر من الأصدقاء أصيبوا فى مستهل حياتهم بذات الرئة ، واضطروا أن يلزموا القراش بلا حراك تحت الشمس فترات تختلف بين سنتين وعشر سنوات وبرئوا من مرضهم تماما وعادوا الى عملهم وهم يحملون معهم الميل الجديد لاعتزال العمل لأنهم تعلموا أسلوبا جديدا من الحياة واستمراوه .

وليس يجدى سرد حكاياتهم لأنك لا تفيد منها الا اذا اضطرت الى ترك العمل واذا كنت اضطرت الى ذلك فأنت تعلم عن الاعتزال أكثر مما أستطيع أن أخبرك به . وهانحن قد أخلينا المناضد وعلى ذلك نستطيع الآن أن نناقش حالة الأشخاص الذين اصطنعوا الميل الى اعتزال العمل .

ولنبدأ بأكثر الاصناف شيوعا وهو الصنف المؤلف من الذكور كله وسأفرض أنك من هذا الصنف وربما لا تكون مائة فى مائة من بعض النواحي ولكن قد تكونه من حيث الشكل على الأقل فما هو هذا الشكل ؟

عندما كنت شابا حدثا استسغت بعض وجوه النشاط الصببانية واعتقدت أن العمل هو أكبر الفضائل حتى اذا انتخبت لنفسك نوعا منه حسبت أن عليك واجبا يقتضيك القيام بأعمال كبيرة فى ميادين النشاط وكلما تقدمت فى سيرك قابلك منافسات أشد مرارة وأكثر خبثا ولكنك لم تضعف وأدخلت على نفسك الطمأنينة بما تناولته من أن المنافسة حافز قوى ، واذا وجدت هذا الهراء سخيفا قلت ان فى المنافسة يعود الربح للأصلح .

والآن عليك أن تقنع نفسك بأن الحافز الذى حفزك كان حافزا طيبا والا كنت حقيقة الرجل الأصلح لأنك نجحت، وهكذا حدثت نفسك مرة

أخرى أن مكافحة الخصوم في بيع بعض السلع عمل شريف ويستحق
المكافحة ، لأنها هي السبيل الوحيد للمحافظة على العمل الحر وهذا
العمل الحر كما يعرف كل إنسان هو الأساس الثابت لكل الرجال الأحرار
- هذا هو حديث نفسك .

عد إلى البداية مرة أخرى : حينما كنت شاباً تعلمت في مستقبل
الحياة ما للقوة من مذاق قاتل وكلما زاد ما تكسبه منها زاد ظمؤك إلى
الاستزادة منها وفي هذا الوقت لم تدرك أن شهوة القوة أسوأ شيء في طبيعة
الإنسان فهي تدفع الشبان إلى أن يقرودوا بسرعة في شوارع المدن
السيارات التي تبلغ قوتها مائة حصان، وهي تحمل (قيصر) على أن يدعى
الألوهية ، وهتلر على أن يخرب أوروبا جمعاء ، وتحمل أيضاً كثيراً من
رجال الأعمال على أن يواصلوا العمل ليقتنوا المليون الثاني من الثروة بعد
أن يكونوا قد تعاهدوا - وما أسوأ عهد الشبان - على أن يتركوا العمل
حينما يجمعون مائة ألف الأولى ، ثم إنها هي التي تدفع نفس هذا الرجل
المجنون بحب القوة إلى أن يكافح في سبيل الحصول على المليون الثالث
فالرابع وهلم جرا إلى أن يحين فتح وصيته فيجد الورثة أنهم اقتنوا كل
هذه الأموال التي يسمع صريها في جيوبهم ولكن الرجل العظيم ،
العظيم حقاً - أين هو ؟ نعم أين هو ؟ وإلى أين تولت قوته ؟

والآن فإن هذا الجهاد العنيف الذي يستنفد نشاط الإنسان ليشبع
رغبته بالقوة وإن استمرار هذه الحالة سنة بعد سنة سرعان ما يكسب
الإنسان عادات هي عادات العمل ، عادات التروؤس على العمال ، عادات
العجرفة ، عادات التحايل ، عادات النزول إلى المكتب قبل أي إنسان
بساعة والبقاء به بعد الميعاد ساعة كلما دعت الحال ، عادات التبليغ
ببعض لقيمات ساندوتش على حين تكون سماعة التليفون ملصقة بالأذن
وأنت تدون بعض الأسعار عادات ، وعادات ، وعادات ، وهي تحيل في
النهاية الحياة الغضة إلى حياة مستعارة ، فالتربية تهزم الطبيعة بنسبة
عشرة إلى واحد ورجل الأعمال الناجح يستولي نظام العمل على تسعين
في المائة من نفسه ولا يترك له منها إلا عشرة في المائة .

حينما تسمع رجلاً يقول : « انى لن أعتزل العمل في الشهر القادم
حقاً انى سأبلغ فيه الخامسة والستين ولكن الشركة في حاجة إلى لانى
الرجل الوحيد الذى يفهم المشاكل الصعبة التى تظهر فى كل يوم ، وأنا
الرجل الوحيد الذى يعرف الملفات أيضاً » اذن أعرف أنك تستمع إلى
مدير من أسوأ المديرين .

واحسن دلالة على المدير المتين هي السهولة التي يستطيع ان يختفى بها في أى وقت دون أن يلحظ اختفائه أحد ، ودون أن يحدث أى اضطراب فى العمل . والدلالة السوداء على المدير السئ هي أن ترتبك الادارة كلها كلما فاته قطار الصباح فهو لا غناء عنه وهو ولهذا يحسن الظن بنفسه مع انه فى الواقع ليس الا كتلة من الوحل .

واذا وجدت بين موظفيك رجلا لا يسغنى عنه فافصله على الفور ، وعامل نفسك هذه المعاملة عينها ودرب الآخرين على أن يعرفوا كل ماتعرفه وأن يعملوا كل ماتستطيع عمله وفى هذه الحالة يسير العمل على أساليب تعاونية بين الجميع .

لست أحمل على رجال الأعمال ولكنى أتخذ منهم أمثلة سهلة وما قلته عنهم أقوله عن الأمهات ، فالأم التي تقول ان أطفالها لا يستغنون عنها أم غير صالحة أسامت تنشئة أطفالها . ويجب أن يستدعى لها رجل البوليس أو طبيب الامراض العقلية ، والاب الذى يخبرك أن عليه أن يواصل العمل لان أسرته محتاجة الى ماياتى به من دخل رجل سئ الادارة ما لم يكن منكود الطالع منذ زمن طويل ولو أنه كان يعرف واجبه لبدأ بتدريب زوجه وولده منذ اللحظة الاولى على أن يشقوا طريقهم فى الحياة بدونه ، والمدرس الذى يظن أن مدرسته لا يمكن أن تسير بدونه أكبر غفلة من الآخرين ، وهكذا الحال فى جميع الوجبات البشرية بل ان المرضعات يجب عليهن أن يعودن الاطفال الاستغناء عنهن فى وقت مبكر .

تعلم ما يأتى : ان جميع العادات اذا ما استقرت مرة حاولت أن تبرز وجودها وأن يتقبلها العقل حتى لو كانت تحتل مناطق للعقل عليها سلطان مشروع . وتصبح كل عادة فيها صاحبة السلطان الأعلى على حسب قوة حجتها فتدعى لنفسها حقوقا ثابتة لا تتغير وتدعى انها فوق كل شئ وأن الانسان خلق لها ولم تخلق هي له .

وتضطر العادة العقل أن يقول لكل عادة معادية حلت فعلا أو اقترح حلولا فقط وهذا محال ، وهكذا استطاعت (الملكة الحمراء) أن تفوق كل الجنس البشرى بعقلها حينما تعهدت بالتفكير فى ستة أشياء ممتنعة الحصول قبل تناولها طعام الافطار وكان وليم جيمس (١) أكثر تعقلا من

(١) James, William (١٨٤٢ - ١٩١٠) فيلسوف وعالم نفسانى امريكى .

جلالتها حينما وضع قاعدة من مقتضاها أن يعمل شيئاً كل يوم يكون مناهضاً لجميع ما ألفه من عادات ، وقد تصرخ العادات وتقول « محال » أجيالاً بعد أجيال طالما أنت تفكر في أشياء لا تتفق معها ولكن إذا شرعت في أن تقوم بأشياء غير مألوفة أو مناهضة للمألوف فإن صرخات العادة ستخفت بعد قليل وتزول معها العادة نفسها ثم تنبثق عادات جديدة وتنشر ضيائها .

ولنطبق هذا على شخصك فإذا كنت - والادب يحملني على اعتقاد صحة دعواي - سليماً في عقلك معاق في بدنك لكان لك مجموعة كبيرة متنوعة من العادات استطاعت كل منها بداهتها أن تجعل عقلك يعتقد أن سلوك أي مسلك مغاير لها متعذر بل مدعاة للسخرية وضار بعيد عما يرضى الضمير ومجاف للذوق السليم ومخالف للمستور بل عمل قذر ، فنحن جميعاً نشبه اليابانيين حسنى التربية الذين يمتنع لونهم ثم يخفون وجوههم تقزراً من منظر شخصين يقبل أحدهما الآخر على الشاشة في دار الحياالة ولا تدعونا تربيتنا إلى اعتبار التقبيل عملاً فاضحاً ، ولكننا ربينا على أن نكره أو نخشى أو نمقت أعمالاً أخرى يعد أغلب الناس على وجه الأرض أن لا قيمة للكثير منها لا من ناحية الخير ولا من ناحية الشر وإذا كنت في شك من ذلك فتوجه إلى هوليوود ولاحظ مراقبي الشاشة وهم يعملون ثم استغرق في الضحك إلى النهاية .

فجلنا ميسر للعمل والنجاح فيه والتزامه إلى ما شاء الله ، غير أننا لسوء الحظ متزمتون في معاناة العمل بطرقنا السخيفة وربما لا يكون بأس من العمل ولكن البأس والضير هو التشبث بنوع العمل والاستمرار عليه ونحن نشبه إلى حد ما الملاكين الأكفاء الذين يصارعون حباً في الحصول على المال وسيأتي علينا زمن يتحتم فيه علينا مغادرة الحلبة والا حاقنا بنا الهزيمة العاجلة . والملاك القدير سرعان ما يجد لنفسه عملاً آخر يؤديه وقد يكون هذا العمل مرهقاً ولكنه يغيّر عمله الأول ، وسابن بعد قليل كيف أن الجسم البشري له مقدرة غريبة على تنظيم خطوه وأنه يحاول أن يحتفظ به ما سمح له بذلك نشاطه فالاندفاع في سبيل العمل هو الحياة نفسها ولا يمكن تعويقه دون خطر غير أن الاندفاع في سبيل العمل بحكم عادات خاصة شيء آخر فالإنسان عليه أن يكيف نفسه باستمرار وفق مختلف الظروف التي تطرأ وأن يغير عاداته كلما تنقل بين حلقات العمر لأن العالم يتغير ويجب أن يتغير معه الإنسان .

للعادة قوة دفع هائلة فاذا أوقفتها فجأة جعلت الحياة بيدك ركاما
وحطاما فلا تحاول أبدا أن تقود سيارتك بأقصى سرعة نحو جدار حجري
فهذا أمر ضار بسيارتك وقد يكون ضارا بك فاذا ما شرعت في ان توطن
نفسك على اكتساب روح التقاعد عن العمل فاتبع الأسلوب نفسه وتدرج
في الأمر وترفق بالكابحة (١) ولا تبلغ في أية حال من الأحوال يوم
الاعتزال وأنت تجري بأقصى سرعة بل ابدا بإراحة نفسك قبل حلول هذا
اليوم بعدة سنوات فاذا لم تبدأ ذلك حوالى السنة السادسة من عمرك
فليكن ذلك حوالى السنة العشرين واذا ما فاتك أن تبدأ في من العشرين
فابدأ في سن الثلاثين فالمهم أن تحسن الابتداء قبل أن تقف بوقت طويل .
فمن الطرق التي تبدأ باتباعها مهاجمة الأقيسة العقلية التي
ارتضيتها وكن محامى شيطانك فهو خير باستخراج الشر من الخير .

أنت تعرف الأقيسة التي ارتضاها عقلك أما أنا فلا أعرفها فاعمل
قائمة بجميع الحجج التي تحتاج بها أصدقاءك الذين يشيرون عليك في
رقة بأن تعتزل عملك وتخلد للراحة واجمع ما استطعت جمعه لدحض
كل حجة واطلب العون في ذلك من ألد أعدائك .

أنك لن توطن نفسك على اعتزال العمل في نهاية هذه المرحلة
فالرجل الذى يقتنع مرغما يظل على رأيه الأول والأسوأ من ذلك أن يظل
محتفظا بعاداته القديمة غير أن هذا هو الخطوة الأولى . أما خطواتك التالية
فهي اتباع قاعدة « وليم جيمس » ، فخالف كل يوم عادة على الأقل من
عاداتك المحببة وأبدا بمخالفة العادات البسيطة وانى لأعرف امرأة ذكية
في منتصف العقد الخامس حاولت هذا الأمر فبدأت بقيادة سيارتها على
طريق جديد كل صباح بغض النظر عن طول الطرق وصعوبة المرور بها
ثم غيرت المطاعم وتناولت كمية كبيرة من الطعام الذى تكرهه وأكلتها ثم
أخذت تقرأ مقالات جورج اليوت (٢) كل مساء حتى يصيبها الغيشان ثم
تطالع بعض الكتب الروحية حتى يصيبها الدوار ثم حاولت أن ترتدى مرة
كل أسبوع ملابس مختلفة كل الاختلاف عما كانت ترتديه في الأسبوع
السابق ثم أخذت تشعر بالكراهية لزي هذه الملابس كما كرهتها أيضا

(١) كبح الدابة جلد لجامها لتقف وفلانا رده ، وهذه الكلمة تصلح بدلا من «الفرملة»
العامة ترجمة لكلمة Brakes الانجليزية Freins الفرنسية .

(٢) Eliot, George ١٨١٩ وهو الاسم المستعار للقصة الانجليزية الموهوبة ماري

آن ايفانز Mary Ann Evans والتي عرفت بعد زواجها باسم مرس كروس Mrs. Cross

لائمانها ولكنها أصرت عليها وبعد قليل من السنوات نالت الشفاء التام من حياتها المستعارة ووصلت الى مرحلة من الاستقلال الجريء تخلت فيها عن عمل مجز وبدأت تمارس لحسابها الخاص عملا تجاريا وفي غضون خمس سنوات قبل اعتزالها العمل أحرزت من الثروة أكثر مما أحرزت من قبل . ولكن حذار من أن تستخلص هنا نتائج غير صحيحة .

جرب أساليب الأمثلة المقيمة فتعمق في دراسة النساء والرجال الذين ارتكبوا جميع أنواع السيئات وادرس بامعان أحوال أولئك الذين افنوا أنفسهم الى غير نتيجة قبل اعتزالهم العمل وانظر ماذا تركوا من أنفسهم .

فلو أنك بدأت في سن السادسة لوطنت نفسك على اعتزال العمل بما كنت تحصل عليه من مئات الألوف من أيام العطلة خلال حياتك المديدة السعيدة ولكن لما كنت الآن أكبر سنا فلا أستطيع الا أن أحضك على أن تحصل على أكبر عدد من العطلات تسمح به سنك .

ولعلك لم تنس أن العطلة مشتقة من التعطل وهو الفراغ (١) وقد يطلب رب الدار تعطيلها على الفور اذا امتنع المستأجر من أداء كرائها ، وتطلب الطبيعة تعطيل الاعصاب والعضلات على الفور أيضا اذا اساء شاغلها استخدام امتيازاته فيها فأجهد معداتها .

وأنت عند تعطل مصنعك تنام ولا يدور فيه شيء لأنه مصنع عاطل خال . والاطفال ينامون أكثر وقتهم لان مصانعهم آخذة في التوسع والتزين والتجهز بالآلات الجديدة ولذلك يكون على الاطفال في هذه الحالة أن يبتعدوا عنها في هذه الفترة ، اليس الامر كذلك ؟ أما اذا أصبح المصنع على أهبة العمل فان الصسبية لا يعطلونه الا في القليل النادر - لأنهم يكونون قد شبوا عن الطوق - وبعد أربعين سنة أو أكثر يحتاج العمال الى تعطيل العمل على فترات متقاربة ولم لا ؟ ان الامر كله مرده الى العادة ولا شيء غير العادة .

ينبغي للرجل اذ طالت حياته وامتدت الى خمس وسبعين سنة مثلا ان يكون قد عطل متجره نحو مائة ألف مرة وهذا رقم تقريبي تطرا عليه تغييرات كبيرة بحسب التنوع الكبير للمخلوقات البشرية وكلما علت

(١) يقال عطلوا ديارهم تركوها خالية ودار معطلة . وتعطل فلان بقى بلا عمل وهو يشكو العطلة . وعطلت المرأة وتعطلت فقدت الحلي وعطلها صاحبها وهي عاطل وعطل .

بالإنسان السن كثر اضطرابه الى التعطل ففي خلال سنواته العشرين الأولى قد لا يتعطل بمثل الكثرة التي يتعطل بها في السن المتقدمة غير أنه يجب عليه أن يتعطل عددا من المرات يجعله عنده في حكم العادة .

بعد العشرين يكون من الحكمة أن يتعطل أربع مرات يوميا تستغرق كلها نحو عشر ساعات - وهذا معدل تقريبي أيضا ، ثم عليه أن يتعطل تعطلا كاملا سبع ساعات وليخصص كل دقيقة منها للنوم العميق وليفعل ما يشاء بعطلاته الثلاث الباقية فقد لا يهتم بالتوجه فيها الى الفراش وقد يؤثر الاسترخاء على الشاطئ أو تحت شجرة ظليلة أو في مخزن البيت أو خلف البيدر أو أمام كتل الخشب الحمراء وهي تصلصل في المدفأة أو على سطح قارب وقد يؤثر ان يسترخى أمام الباب الخارجى في كرسيه المريح وأن يرقب الناس وهي تمر به ، وقد يخرج للتنزه أو يلعب بالبلياردو أو يكتفى بالانتقال مما كان يفعله الى شيء مغاير له نمام المغايرة وبذا يستخدم مجموعة من العضلات غير المجموعة السابقة : هذا اذا كان يقنع باتفه أنواع العطلة .

وكلما تعطلت تعطلا كاملا كانت الراحة أوفى وكنت أكثر استعدادا لدورة جديدة في مكافحة الحياة وكلما زاد عدد مرات التعطل حتى تبلغ في بعض الأحيان ست ساعات كان ذلك أكثر عودا بالخير ، وحذار أن تطول عطلتك أكثر من يوم أو يومين والا ساءت العاقبة ، واسوأ مكافح عرفته هو الرجل الذي يعمل أربعين سنة كأنه أسير دون أن يحصل على عطلات صحيحة أو يحصل على قليل منها ويقتنى الثروة ثم يقف بعد ذلك بلا حراك حتى يدركه الأجل وهو يسمى هذا تقاعدا . أما الموظف المنوط به فحص حالة الوفيات فيسميه انتحارا .

لم يكن ميسورا أن تنبت منذ خمسين سنة فكرة العطلات مائة الألف لأن الناس لم يكونوا قد عرفوا حين ذاك السرعة التي يرتد بها الجسد ولو كان مجهدا ولم يكونوا قد قدروا أضرار الراحة الطويلة والجهود الطويلة أما الآن فهم يقدرونها .

إن الراحة الطويلة ولا سيما في الفراش تحدث اضطرابات خطيرة فكم من رجل كان يمكن أن ينهض معافى ويباشر أعماله بعد قضاء بضعة أيام في مستشفى قد قصر حياته بالاخلاق الى الكسل وترك المرضات يقمن بكل شيء له لا شيء الا لانه يرتاح اليه وهذه قصة طويلة دلت على صحتها الوفاء للحالات التي حققت أخيرا .

ان كثيرا من الراحات القصيرة يكاد يكون خيرا لكل فرد تقريبا الا قليلا من المرضى وبخاصة المرضى بذات الرئة . جرب هذا على نفسك فاجر واحتطب واصعد التل حتى تلهث ثم اقعد واسترخ فان كنت دون الاربعين فستنتعش بعد عشرين دقيقة وان كنت فوق الاربعين واهن العظم لاحتجت الى نصف ساعة أو أكثر ، زما لم تكن مريضا بمرض ما فستستعيد تسعة اعشار نشاطك في سبع دقائق أو ثمان .

حقا انه كلما تقدمت بك السن تأخر انتعاشك غير ان هذه القاعدة تنطبق بشدة على الجهود الكبيرة المفاجئة فان اغلب الطاعنين في السن يستطيعون ان يسيروا على الاقدام طول اليوم كما يفعل ابناء العشرين غير انهم اذا ركضوا مسافة قصيرة قضى عليهم لان الرئتين لا يستطيعان التقاط الاوكسجين بسرعة تتفق مع ما يستلزمه الجهود العنيف المبالغ ولكنهما يستطيعان ان تلتقطا ما يكفي للخطو الوئيد ولو استغرق اليوم كله .

ان مزاج التقاعد هو ميل للتوقف التام عن الحركة في فترات متعددة وهو ان لم يكن غريزة وجب أن يكون عادة لانه يقينا جميعا من شر التوقف المفاجيء لنشاطنا بعد السير المتدارك سنوات عدة فالصدمة الناشئة عن هذا التوقف هي الموت فخفف الضغط على الكابحة (الفرملة) حتى لا تستهلكها أو تنزلق بك العربة .

عندما تشرع تتوجه الى المدرسة ستتعلم من أول مدرس لك مئات الالوف من العطلات فهو خبير بها أو سيكون خبيرا بها بعد قليل فهو وصناعته أقرب ما يكونان الى المثالية من أى شيء آخر فراقبه واستفد من الاقتداء به .

يتطلع الى التقاعد بعين الرضا مدرسان من بين كل الثلاثة وهذه نسبة كبيرة تسترعى النظر فكيف كان ذلك ؟ انى أظن أن السبب هو أن المدرسين أقرب من أية طائفة أخرى من طوائف العمال الى الحياة المثالية ذات مائة الالف العطلة التي أويدها كقاعدة مثالية فهم اكتسبوا عادة اعتزال العمل منذ زمن طويل . قبل أن تشغل العطلة كل وقتهم .

فمنذ البداية يخصص للمدرس ساعات قصيرة للتدريس وهي مست في كثير من المدارس ولم أجد مدرسة زادت على سبع وكانت أيام العمل في الاسبوع دائما خمسة أيام وفي الصيف تمنح دائما عطلة هائلة أطول كثيرا مما يستطيعه أثرى الأثرياء ثم يحصلون على عطلة حوالى آخر

العام تستغرق أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، فجملة ما يحصلون عليه في العام تختلف من خمسة عشر اسبوعا الى ثمانية عشر . وعلى هذا اذا بدأ المدرس عمله في سن العشرين وانتهى منه في سن الستين فيكون قد تمتع على الاقل بستمائة أسبوع أو ربما سبعمائة وعشرين أسبوعا من الوقت الطليق أو قل بين اثنتى عشرة سنة واربع عشرة من العطلات فلا عجب اذا أصبح التعطل للمدرس عادة فهو يبدأ في التحلل من العمل منذ اليوم الاول الذى يمارسه وبطبيعة الحال سيكون له أن يتمتع بخير سنين حياته لانه كان يعد نفسه لها طول حياته .

قم وافعل مثله .

وكثير من النساء لايفترقن الا قليلا عن مرتبة المدرسين ولكنهن يفقن كثيرا من الرجال في تنظيم حياتهن قبل الستين وبذا يستطعن أن يكتسبن مزاج التقاعد على نحو كريم . وحقا أن حاجتهن الى هذا الكتاب أقل من حاجة الرجال اليه .

ان الطبيعة فعلت لهن ما أحاول انا هنا أن انصح للرجال باتباعه فكثير من النساء لايتركن أعمالهن فجأة ، ومهما تقدمت بهن السن فانهن يواصلن القيام بالعمل على النسق السابق تقريبا ، فهن ترى نظر الرجال لايتقاعدن لانهن ينسحبن من العمل في غاية من الرفق .

في البيوت المتوسطة تقضى الزوجة ساعاتها حانية على الاطفال وعلى بالوعة المطبخ ، وذلك في غضون سنواتها العشرين الاولى وبعد أن يعتزل زوجها العمل تقضى أوقاتها في تربية وفي العناية ببالوعة المطبخ . أما في الأسر الثرية فتخرج الزوجة الى السوق لشراء حاجاتها وتلعب الورق وتتحدث الى الاصدقاء وتلهو في كثير من نهايات الاسبوع وبذا تقطع سنوات عمرها الى الوف من العطلات الصغيرة على النحو الذى كنا ننصح به ، وبذا تقبل على خير سنوات حياتها وهى أحسن عدة من زوجها لاعتزال العمل .

ومن حسن التوفيق لها أيضا أنها عانت ألم فقدان السيطرة حينما شب أطفالها عن الطوق وغادروا دار الأسرة . أما الزوج فلم تنل منه هذه الصدمة الا قليلا ، وأما الزوجة فقد نالت منها بالتدريج ويشعر الزوج بها فجأة حين يغلق مكتبه للمرة الاخيرة ولا يصدر أمرا بعده الى احد . وتكون الزوجة في هذا الوقت قد اعتادت حياة خالية من السلطة وأحببتها .

للزوجة واجب واحد كبير يختلف كثيرا عما يواجه زوجها عند
اعتزال العمل فهي مسئولة عن معاونته على التخلص من عادات النشاط
والدخول في حياة التحلل الجديدة مع تجنبه أكثر ما يمكن من الاضطراب
غير أن المرأة غير المتزوجة التي قضت معظم حياتها في العمل فيواجهها
ما يواجه الرجل من مشكلات وإن كانت أخف درجة إذ المحتمل أن تكون
قد ادارت منزلا بطريقتها البسيطة لنفسها أن لم يكن لامها أو اختها ، فلها
عادات معينة متأصلة في نفسها تسيرها طيلة اليوم بحالة أيسر مما
يستطيعه الرجل ولهذا يكون تنحيها عن العمل أكثر بساطة .

نعم ان النساء مجدودات فلنتركهن وحظهن السعيد وكلما أحسن
مستخدامه أعلناء على رموس الاشهاد . أما اذا لم يكن مجدودات وكان
عليهن أن يعملن كما يعمل الرجال في دنيا الرجال فليقرأن ما نقوله عن
الرجال فهو ينطبق عليهن أيضا .

- ٧ -
استسهل الصعب

نشانا انا «تشوتل» معا وهو يكبرني بأربع سنوات ، وكنت كلما كسبت فلسا في نصف القرن الماضي كان يكسب هذا الشيخ الطيب دينارا ، ولما كان على قسط وافر من الذكاء فلم يكن يضيعه الا انه اضاع الكثير في الازمات المالية المديدة وفي الحروب ، وقد اعتزل العمل في سن الستين ولديه أكثر مما يحتاج اليه ليعيش عيشة راضية وقد عاش هذه العيشة ولكن في طريق شاق .

توقف عن السير ثم قعد في بقعة دافئة وأخذ يتطلع منها الى الحلف ويكتب الرسائل الى كل من تعرف اليهم منذ كان في العاشرة وتبادل معهم الصور الفوتوغرافية وتوجه الى حفلات كل مدرسة وكلية ولو اقتضاه ذلك ان يعبر قارة اوروبة ليصل الى مكان الحفلة ويدعو زميله القديم ويشرب نخب اصدقائه الراحلين ويهتف بهتاف فصله المدرسي ثم يعود ادراجه الى داره وقد ران على قلبه شيء من الأسى لم يدر كنهه .
الا يمكن أن تكون تلك الكثر من الاربعة عشرة هي السبب .

يقول : انه يقطع في أسفاره أكثر من ألف ميل كل عام ليشهد الاجتماعات والحفلات حيث يستعيد حياته الماضية ولديه ست مجموعات من الصور الفوتوغرافية التي تمثل تشوتل وهو في المدرسة وتشوتل وهو يجري في سباق الميل وهو ثالث المتسابقين في سنة ١٨٩٩ وتشوتل في ملابس السهرة السوداء في نادي جلي (١) وتشوتل وحبيبته يشاهدان مباراة كبيرة لكرة القدم وتشوتل واخوته الثلاثة الصغار في اجتماع أهلي خطير ، وتشوتل ، وتشوتل وتشوتل في مدى خمسين عاما وأرجوك أن تظهر السرور يامستر تشوتل .

كان كلما اقترب احد اصدقاء تشوتل القدامى من مكانه يكون تشوتل مختفيا في دهلز داره ويختطف هذا الزائر ويلهيه عن عمله ليتحدث معه عن الايام الخوالي . وبعد دقائق قليلة يكشف هذا الشيخ أن عجلة الزمن قد وقفت في اليوم نفسه الذي اعتزل فيه تشوتل العمل وكل ما وقع منذ ذلك الحين ليس الا ثواني ودقائق ، فقد عاد تشوتل الى الايام الماضية تلك الايام الوحيدة التي تعيش من أجله .

فكل اجتماع غير منتظر كهذا الاجتماع يتيح لتشوتل فرصة طيبة ليولم وليمة فاخرة لصديقه القديم وليتخمن نفسه بالطعام والشراب ولهذا يزيد وزن تشوتل عن وزني باثنين واربعين رطلا برغم اني اطول منه قامة ومن جراء اغفال تشوتل للمادة الرمادية التي فوق اذنيه أصبح لا يجد ما يقوله وان وجد فيقوله ببلاهة وهذا ما يدعو للأسى لانه كان فيما مضى حاضر النكتة سريع البديهة .

وزاد الطين بلة أن فقدانه عقله كلفه كثيرا في العام الماضي اذ كان عليه أن يدير عملا تجاريا ضخما لشقيقته الطاعنة في السن فخر من المال أكثر مما خسرت طول حياتي ، وكل هذا في غمضة عين ، ومع ذلك فلا يزال يحتفظ بسيارة فخمة ، ومنزل رطب وعضوية في ستة أندية ، وضريبة دخل ضخمة . وهو يتفق على الاندية أكثر مما أنفق على معيشتي السوداء الكثيبة كما انه ينسى دفع المطالبات ولم يعد يستطيع تذكر الاسماء .

نعم ان تشوتل قضى نحبه منذ سنوات ولكنه لم يعلم ذلك بعد لانه لم يستطع أن يتقبل القاعدة الاولى اللازمة لاكتساب مزاج التقاعد فكان عليه أن يجري مع القطيع دائما ولم يكن في استطاعته أن ينفرد بنفسه حتى أتى الوقت الذي دهمه فيه القطيع فأصبح أثرا بعد عين .

خذها صريحة : ان ما قلته لم يكن القطيع الذي أشرنا اليه بل كان القطيع القديم الذي كان تشوتل فيه وكان الزحام القديم نفسه والطرائق القديمة عينها وكان القطيع هو النظام الذي اعتاده تشوتل لانه حينما بلغ الستين بذل جهده لكي يعيش عيشة العشرين والثلاثين والاربعين والخمسين من جديد فأقام حياة استعارها من أصدقائه وخلطائه ولم يعد هو تشوتل وتناسى حاضره .

لقد قضى سنواته الاخيرة وهو يعيش في الماضي وانت لا تستطيع أن تحذو حذوه دون أن يصيبك مكروه لان الحياة تتحرك في اتجاه واحد وهو دائما الاتجاه الى الامام فالحياة طريق لا يسلك الا من ناحية واحدة ولم يفقه تشوتل المسكين هذه الحقيقة . انه كان يظن ان الخير كل الخير في الماضي فما أفحش خطأه ! ان الخير فيما هو قادم . انه ظن ان الأشياء المرغوب فيها دون غيرها هي ما اعتاد أن يتمتع به فما أفحش خطأه ! ان جون ديوى (John Dewey) كان يستطيع أن يلقيه درسا احسن .

فمنذ عدة سنوات كان ديوى يقول : « ان الشوق الى الازهار يأتي

بعد التمتع بها « وهذا ما يحصل دائما . ان التجربة هي التي تؤكد الرغبة ، أن تشوتل وألوف من أمثاله ، وقعوا فريسة الخطأ القاتل . ذلك الخطأ الذي يفترض ان الخير كل الخير يكمن في الماضي ، وحجتهم في هذا السخف انهم وجدوا في الماضي كل أشياءهم الطيبة ، وهذا صحيح ، ولكن ما سعة هذا الجزء من عالم الأشياء الطيبة التي تحيط به تجارب الانسان ؟ اكتب على ورقة علامة عشرية ثم ضع على يمينها مليون صفر ثم اكتب اى رقم تشاء وستكون النتيجة مبالغه في الجواب .

والآن وقد حل عصر الذرة واخذ الانسان يرسل الاشارات الى القمر فلنحذر أكثر من أى وقت مضى جميع الأشياء الطيبة القديمة ولنبحث عن مباحج جديدة في عالم جديد واتبع نصيحة مارجريت ديبلاند (١) التي تقول : « اذا بلغت من السن درجة لا تستطيع فيها أن تأتي عملا فافعله اذن » .

واذكر عندما تحاول ذلك ، الجدة موزز ، فهي أقوى من مبدأ ديوى ، لانها أثبتت ان الرغبات التي يعثر عليها أخيرا قد تتفتح عن قوى غريبة مثيرة .

لقد سمعت حقا بهذه الفنانة المدهشة فقد ذكرت الصحف قصتها ففي سنة ١٩٣٧ حينما بلغت انا موزز (٢) الثامنة والسبعين خرجت نصطاد في مزرعتها في ايجل بريدج وعثرت على علب متروكة من دهان المنازل علتها طبقة صفراء سميكة من زيت بذر الكتان الجاف ولم تكن قد حاولت في حياتها أن ترسم صورة ، وفي الوقت الذي يبلغ فيه المرء سن الثامنة والسبعين تصبح تصرفاته بعيدة عن المعقول غير ان الجدة موزز لم تكن كذلك فقد وجدت قطعة قديمة من القنب فبسطتها على لوحة ودهنتها على سبيل التسلية لانها كانت تشكو منذ زمن طويل تصلب شرايين يديها .

كان هذا منذ تسع سنوات تحبو الى العاشرة وانا أسطر هذه الكلمات وقد باعت حتى الآن ١٠٨٦ لوحة من رسومها وتستطيع تقدير ثمن كل منها وقد علق معهد كرنيجي (٣) بعضها ، في معرضه واستنسخ

(١) Deland, Margaret ولدت سنة ١٨٥٧ وهي قصصية امريكية ومن تواليفها كتاب

جون وارد الواعظ . John Ward, Preacher .

(٢) Moses Anno

(٣) كرنيجي اندرو Carnegie Andrew (١٩٣٥ - ١٩١٩) كان اسكتلنديا مشهورا

بصهر الحديد او بطفه على الانسانية وقد هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية حيث تولى رئاسة اتحاد صناعات الصلب بالولايات المتحدة ونال ثروة ضخمة انفقها على انشاء دور الكتب وكثير من المشروعات الانسانية .

من احدى رسوماتها الجميلة ثمانية ملايين نسخة وعمت لوحاتها انحاء المعمورة وهى تعرض فى الأروقة وقد خلبت لب الناقدین ، وكانت الفنانة على سنجيتها الى حد لا يصدق ، وكيف كان ذلك ؟ انها لم تكن تتظاهر بغير حقيقتها ولم تكن تميز طرازا من الرسم من طراز . ولم تطلع على كثير من أعمال عظماء الرسامين العالمين ولا تميز بيكاسو من غيره . واذا ارادت رسم صورة تغمض عينيها وتأملها حتى يلوح لها المنظر . وعندئذ ترسم ما قد رآته ومواضع الضعف فى رسمها تزيده مسحة من القوة لانها قوة الحق المجرد .

والآن وقد بلغت الجدة موزز السادسة والثمانين فهى تفكر فى أن نحترف المعمار وفن بناء المساكن . لماذا ؟ لانها تحب البيوت ، اذ كانت سيدة بيت دائما وتعلم ما يجب أن يكون عليه المطبخ وخير مكان تحتله الحمامات .

هل كانت فى فجر حياتها فنانة فاشلة ؟ الجواب لا فان الفن لم يتطرق ابدا الى حياتها لانها نشأت امرأة مزارعة ولم تحتج الى عمل شئ آخر غير صنع الزبد والاتجار فى البان البقر وتدبير المنزل ، ولكن كيف أصبحت الآن فى هذه السن المتقدمة رسامة ذات شهرة عالمية ؟

والجواب يظهر فى الحكمة العالمية الآتية :

سأل رجل ذات مرة :

« كيف لا تنظر عيني داخل اذنى ؟ »

ولو انى صممت عليها .

فى قرارة نفسى .

لفزت حقا بما كنت ارجو .

فأنت لا تستطيع أن تجزم بشئ حتى تجربيه .

هذا هو أساس العلم كله وأساس حسن الذوق فهنا من الحكمة اكثر مما انطوت عليه دفئا سفر التكوين وآخر سطر فى وثيقة حقوق الانسان .

ليكن هذا شارة الجميع الذين ينظرون الى الوراء مثل « تشوتل » المسكين الهرم فيجدون فى الماضى جميع الاشياء الطيبة . أن هذا العصر عصر المحال وارجو ان تأتى قبل الافطار بستة منها فاذا لم تنته بأن ترسم ١٠٨٦ لوحة وتبيعها بأسعار غالية فقد توفى الى ما هو خير .

- ٧ -

لا تخصص كل وقتك لعمل واحد

ان الرجل الحكيم الذى قال لاول مرة ان فى التنوع افوايه الحياة لم يعرف الحياة لان التنوع هو قوام الحياة ويشهد بصحة هذا جميع علماء الاحياء وجميع علماء التاريخ وجميع علماء النفس وكل مديرى المصانع .

اذا قضيت « خير سنى العمر » فى عمل شىء واحد حفرت قبرك بيديك فخير زمن لنشاط واحد هو ان تقتطع له بعض وقتك فالتغير سنة النهار بل سنة الليل كما يعلم ذلك الطلاب الذين درسوا ظاهرة النوم فان أعمق الناس نوما يتقلبون فى فراشهم مرة كل سبع دقائق أو ثمان وقد أخذ الأطباء يقلقون على من ينامون كأنهم خشب مسندة .

مهما كان سؤال من يسألنى عما يفعل بعد الستين كان جوابى دائما قبل كل شىء : « عدة أشياء » ثم تناول هذه الأشياء العدة فهو يتطلع الى جميع نواحي النشاط ويتخير عشرة يؤثرها من بينها فأقول له حينئذ خصص جزءا من الوقت لكل واحدة منها. هذا اذا كان لايه القوة على ذلك والتمن المطلوب .

هل تود أن تفر منها جميعا ؟ حسنا . قم برحلات . العب الشطرنج طالع الكتب التحق بالنوادي والجمعيات التى تلقى فيها المحاضرات والمناظرات والعب الكرة والصولجان ولكن خصص لكل بعض وقتك على ألا يزيد هذا البعض على ما تسعه قواك دون ارهاق .

هل تود ان تتفرج على العالم ؟ حسنا ارحل الى أبعد ما تتمنى وتفرج على كل ماتشتهى ولكن لا تنفق كل دقيقة من سنواتك العشرين التالية وأنت تطوف بالبلاد .

كنت دائما تمنى النفس بأن تمارس عملا صغيرا لحسابك الخاص . حسنا. اذا كنت واثقا بأنك تعرف ما تدفع نفسك اليه من الحرج والمشقة ولكن لا تقض سحابة يومك فى حانوت أو مكتب حتى لو كان لك .

هل أنت فى حاجة الى مال تدعم به دخلك الضئيل ؟ هل يتحتم عليك ان تحترف عملا ما ؟ حسنا . ليكن ذلك ولكن ليكن عملا لا يستغرق إلا جزءا من وقتك .

هل كنت تتوق دائما الى تأييد مسألة من أمهات المسائل ؟ هل كنت تود أن تحسن اضمائة الطرق أو تعالج مدمنى الخمر أو تحسن

الصمغ الموضوع على طوايع البريد أو حالة الحزب أو مجارى المدينة ؟ حسنا. هلم اليه وحرك اعلامك والى خطاباتك وعين مندوبك فى شئون المجارى وليكن ذلك كله على أساس الا يشغل كل الا بعض وقتك .

خصص بعض وقتك لهذا العمل وبعض الوقت لذاك . وسيكون هذا هو المبدأ الذى يتردد فى صفحات هذا الكتاب ويتكرر حتى تصرخ وتحشو أذنيك بالقطن وسأظل أعزفها على قيثارتى لأنها الحق الثابت الذى أيده عشرات الألوف من العلماء الذين درسوا حالات مئات الألوف من الناس .

إذا أويت الى فراشك فاذكر لنفسك وكرر العبارة الآتية :

« اذا أردت أن احيا حياة كاملة على ان اقوم بعدة اشياء لا يستغرق كل منها الا جزءا من وقتى » .

ثم استيقظ وانت تتمتع بها ثم نفذ مقتضاها واذا وجدت صعوبة فى ذلك فاخرج وزر ملايين الناس الذين ماتوا ضحية الملل الذى جلبته لهم الحياة الرتيبة الناشئة عن عمل شئ واحد مثنى وثلاث ورباع وخماس فان الشخص الذى يكرر شيئا واحدا عدة مرات غالبا ما يفقد اللذة فيه، ولذلك يفقد الحافز الطبيعى على القيام به ثم يصبح التكرار شيئا مفرعا يؤثر الموت عليه على هذه الحال فيقضى نحبه .

ففى حياتك الجديدة ذات الوقت الكامل التى تبدأ بعد الستين خصص جزءا من الوقت للعب . أما مقداره فيتوقف عليك فان كنت مثلى فستخصص له فى العام أربع ساعات أو خمسا وان كنت مثل عصابة (الكرة والصولجان) فى النادي الذى انتمى اليه فستخصص له مع المتعة نصف عام ولست أنا الا مثلا حقيرا لأننى استخرج متعنى من عدة اشياء أخرى غير اللعب ولذلك دعنى أعرض عليك بضعة نماذج أفضل منه ولست أحضك على أن تتبع شيئا لأنك ستعرف أصلىح الاشياء لك .

ان عصابة الكرة والصولجان عصابة ذات مبادئ وتدابير لا تقبلها الا العقول الجبارة المثقفة وقد يسميها البعض رفيعة وقد انضمت اليها منذ ثلاثين عاما ففى أحد أيام الآحاد الحارة فى شهر يوليو أرسل الى أحد الأصدقاء سيارته فقطعت بها فى الريف خمسة وسبعين ميلا وكانت الدار محجوبة عن الطريق بما أحاط بها من سامق الشجر ومكتظة حتى لتخفى عن أكثر العيون حدة وكانت تقع على بعد ربع ميل على ربوة تشرف على روضة فسيحة يتوسطها مضمار سبق .

وكان يجلس فى المدخل الرحب مسجبة رجال وامراتان خلف
كئوس شراب كبيرة وفهمت من الحديث ان هذه الكئوس دارت عليهم
ثلاث دورات من قبل او اربعا وكان سوبى سمث او سمث المتعلق Soapy
يقول : « والظلم من شيم النفوس » وكانت الواز Eloise تقول :
ان هذه العبارة واردة فى الانجيل لانها سمعت احد القسس يقولها وهو
يتناول الشراب فى حانتها المنزلية .

استمبحكم العفو : ولنذهب للاجتماع بهؤلاء الناس فان الواز
مضيفتنا اعتادت ان تدير محلا عاما بين احضان الغسابة وقد تزوجت من
اكبر رؤساء المعسكرات وامهرهم ثم جمعا فيما بعد عدة ملايين من
العثور على فلذات فى ارض اشترياها بسعر القدان خمسة شلنات
وتستطيع ان ت تصور الباقي اما الزوج هيزن Hazen فقد مات
قبيل السبعين اذ بقر بطنه احد الثيران التى نالت جائزة فى بعض المعارض
ولولا ذلك لامتدت به السن الى التسعين واستمرت الواز تزاوّل العمل
ولكن كيف ؟ انها على درجة كبيرة من المهارة . كانت تقسو على من
لا يعنىها امرهم كثيرا وتتعجرف وتعجرف الاميرة على اصدقائها وعلى
رقيقى الحال ، وكانت تدير شئون املاكها لحسابها الخاص حتى
السنة التى وقع فيها هذا الاجتماع ثم احوالت اشق الاعمال على رجال
القانون واخذت تمتطى بشفف متون الجياد وتقامر بالعباب الحظ وتقامر
فى سوق الأوراق المالية وتكتب اغانى التعدين القديمة كلما تذكرتها
وتتعلم الرسم (وما اجهلها به) .

وكان الاسم الحقيقى لسمث المتعلق هو سوبى سمث وكان يشتري
الماشية ايام كانت المراعى مباحة للجميع ثم اصبحت مالكا لاحد هذه المراعى
ثم معدنا للذهب ثم اشياء اخرى يحسن علم ذكرها هنا وقالت عنه الواز :
انه الرجل الوحيد الذى قابلته فى حياتها والذى يستطيع ان يشرب
اربعة لترات من الشمبانيا الساخنة يتجرعها من قنينتها رأسا قبل
تناول الافطار ثم يستطيع الحياة بعدها حتى يتناول غدائه .

وكان سائر افراد الجماعة يشبهون تقريبا الواز والمتعلق بل انهم
ادنى اليه وكان اصغرهم سنا يبلغ الحادية والسبعين واكبرهم سنا
الثالثة والثمانين وكانوا فى عصر الحشب والماشية وكان « هرمان » من
اصديق الاصدقاء رجلا ملاكما يبيع الجعة وكان « مات » Mat نزيل السجون
وكان حظه من الظرف واللفظ كحظ الضبع منهما وقد دخل فى روعى ان
الواز لم تطلب انضمامه الى الجماعة ولكنه التحق بها بشكل من الاشكال

وكان فرانكلين محاميا في احدى القرى المتأخرة ولو صدقت حكاياته ليكون قد كون نفسه من القيسام عن الاثرياء بادارة اراضيهم ، ولكن دعنسا من هذا .

عندما اقترب موعد الغداء كان المتملق و « مات » قد وصلا الى حد انهما افرغا اربع زجاجات من الجن (١) في بئر على ارض النادى المزروعة ابتغاء تحسين طعم الماء وأثناء الغداء تناولت الطعام على حين كانت العصابة تشرب وتشرب وتشرب وكنت ايضا آكل وهم يغنون وبعد الغداء اتخذت مقعدى فى الظل الرطب لشجرة بلوط عظيمة فى حين توجه الجميع الى الاسسطلبات وأخرجوا الجياد وتراهنوا فيما بينهم على ركائبهم وعلى ذواتهم فامتطوا صهوات الخيل واصطفوا ثم انطلقوا يعدون حينما أطلقت الواز صرخة من حلقها وكانت قد اتخذت لها موقفا بعيدا عنهم ، ثم عادوا الى المدخل ليجرعوا كاسا جديدة من الشراب ، وبعد ذلك أخذت الواز وثلاثة آخرون فى لعب البوكر بالمال على حين اخذ الناس بمعاقدة أجفان الآخرين فنام كل منهم حيثما غلبه النعاس .

وركبت السيارة أبتغى العودة الى البيت وأنا أفكر فى الملاحظة التى أبدتها بعض من يجوز أن يصبح فى المفكرين وهى أن الانسان يقدر عمره بعمر مثله العليا . فاذا ما شرع فى ترك مثل الشباب فقد بدا يدخل فى طور الشيخوخة وقد تذكر الألفاظ نفسها اذا كنت رايتها على اللوحة الموجودة دائما على مكتب « جنرال دجلاس ماك ارثر » أما المثل العليا لالواز فهى خاصرتا الحية وأسنان الدجاجة والتضاريس الحادة للدائرة الكاملة . وأما سائر أفراد العصابة فمثلهم العليا أقل عيوباً فهل تقول : ان الجماعة لم تتقدم بعد فى السن ؟

لم يكن على هؤلاء الناس أن يعودوا الى الصبا لانهم احتفظوا حتى اليوم بصباهم لانهم كانوا دائما يراعون الا تستغرق الاعمال وقتهم كله ، فمهما كان عملهم شاقا ، وقد كان شاقا فى بعض الأحيان ، فلم يكونوا يسمحون بأن يمضى يوم دون أن يكون فيه شىء من الترفيه والتنويع فالتجربة خير معلم والعادة خير مدرب على النظام .

من الحمق الظن بأن هؤلاء الشبان المملوئين حيوية ونشاطا والذين تختلف اعمارهم بين السبعين والثمانين مدينون لمثلهم العليا لأن هذه المثل تأتى من الآباء والعلمين ولكن روح المرح تأتى من غدتى الطحسالى

(١) الجن Gin مشروب يستقطر من العيوب والشعر واشتق اسمه من جنيف Geneva ويسمى ايضا المشروب الهولندى لانه يصنع فى هولنده .

ومن الغدة الدرقية كما يرجع شطر كبير منه الى شظف العيش وكان لالواز والمتلق والباقيين الاسلاف الصالحون لهذا الغرض اما انا فلم يكن لى مثل ما كان لهم .

وكل شخص فى الحياة بعد قرن من اليسوم سيحسن صنعنا اذا اقتادى بويليام لسلى William Leslie الذى يمارس فى حماسة الانزلاق على الجليد ويمارس الرقص وهو فى منتصف العقد الثامن وهو لا يستطيع ان يغفل حلقة انزلاق أو ساحة رقص .

وهو يقول : « اذا اردت ان تحتفظ بشبابك فحافظ على نشاطك »

نعم ان هذا حق ونحن نساهم فيه بصرخة متمرده وننادى بسقوط مرض الراحة غير ان نشاط قوم قد يكون جنازة آخرين فمستر لسلى فى سن الخامسة والسبعين ينزلق برشاقة كل بضعة أيام ويرقص فى خفة وبمرح الرقصات الهمجية غير ان نظرة واحدة الى وجهه تبين للناظر ان فى دمه روح انرقص ورثه على اجساده ويكاد وجهه يخلو من التجاعيد ومن السهل حسبانته من ذوى الخمسين وهو يحتفظ برصيد من النشاط الجثمانى الذى فقده الكثيرون منا منذ زمن بعيد جدا .

فلنغبط هؤلاء الشيوخ النشيطين ولكن حذر من تقليدهم فلن تنقذنا جميع مثل الشباب العليا اذا شربنا ادواء الجن التى تتجرعها عصاة نادى الكرة والصولجان أو اذا ذهبنا نعدو على المنزلاقات الاسطوانية أو نتدحرج على الجليد دون ان نتحصن بالجهاز الذى يحفظ على القلب والرئتين والعضلات مستواها الفتى وخير ما يجرؤ عليه الملايين منا هو المرح الخفيف ويغلب ان يتمتع أكثرنا بمباهج الرقص فى حانة كالتى ابتدأها بوب كنى Bob Kenney منذ بضع سنوات .

فقد خطر بباله رأى بديع هو ان يخصص للشيوخ والعجائز وحدهم قاعة للرقص فاستأجر مضيفتين احدهما سيدة فى سن الخامسة والخمسين والاخرى خلية فى سن الخامسة والستين فكانتا تديران رقص التالف الذى يقام كل ليلة اذ يدخل الشيخ الذى يعرف كيف يتسم للفتيات دون ان يظهر طرف حلقه فتقدمه المضيفتان الى الغانية ابنة الخامسة والخمسين التى ينم عليها ماضيها . ويبدأ الرقص .

ويتردد على القاعة بانتظام راقصون كثيرون ممن جاوزوا السبعين واكبر العملاء سسنا يبلغ الثالثة والثمانين فالسن تمحو الطبقات الاجتماعية ، فيرقص ارباب الملايين مع أبناء السبيل ويرقص رجال القانون قور الرزانة والهدوء مع الارامل اللاتى يعملن فى مهنة غسل الملابس .

ويعجب الجميع رقصة الصغير فاذا ما صفر كنى Kenney غير كل راقص شريكته ولا تصرف بطاقة العضوية الا بعد تحريرات سرية عن الاخلاق ومن هنا ازدهرت قصص عديدة على أرض هذا المرقص .

بل ان الرقص قد يكون فوق طاقة الكثيرين منا بعد سن الستين وخير ما يكون عليه أن يكون ملهاة طيبة تستغرق بعض الوقت ساعة من كل أسبوع ثم ماذا بعد ذلك ؟ لننتقل الى المقامرة على ظهور السفن (١) واغفروا لى ما قد يتد عني من اشارات الاشتمزاز فاني قد شأهت ألعابا كثيرة جدا وليس من شك فى ان اللعبة شريفة وتأمر الباب المفرمين المعجبين بها غير ان الفم العبوس يؤرقنى فى منامى وان الهجوم القاسى من ساحة المحكمة كل صباح بعد الافطار يشبه مقصلة الموت فعلى اللاعب أن يواصل لعبه وان لم يظهر له بصيص من الأمل وهو يتمم مع سيرانو دبرجراك (٢) Cyrano de Bergerac بأن جميع المعارك التى تستحق العراك هى تلك التى يجب علينا أن نخسرها ولا تحول عن دار الفزع هذه لاتخذ سبيلى الى السير شوطا طويلا فها هنا شىء ما انه شوط طويل .

ومما يدعو الى الأسف اننا أو على الأقل جيلنا الذى شغف بالسيارات ونسى السير على الاقدام فالتاس فى جميع بقاع العالم لا يزالون يسيرون ويحبون السير وأنا مثلهم أنا الولد القديم العادات والتقاليد وهل بى من حاجة الى تكرار الاشادة بهذا النوع الرخيص من المتعة ؟ أرجو ألا تكون بى هذه الحاجة فان بلادنا تقدم للراجل القوى أنواعا متنوعة من المناظر والطرق والمسالك والرفاق وهناك تستطيع أن تنجو بنفسك من صخب السيارات وتنن زيجها ومن السائق المعتوه الذى يصرخ وهو يحتك فى مروره .

ان أكثر الأشياء سحرا فى المشى هو أنك تأتى ما تشاء فى كل لحظة هل نميل الى اليمين أو اليسار أو هل نسير قدما فى طريقنا أو نتوقف دقيقة أو ساعة أو أسبوعا ؟ وهل نأكل الغذاء الذى فى حقيبتنا أو نواصل السير لتناول عشاء متأخر فى ذلك الفندق ؟ وهل نقطع عشرين

(١) وتسمى Shuffle-board وضعها ان ترسم مربعات على ظهر السفينة بالطباشير

ونحوه ويرقم كل مربع منها برقم خاص ويدفع المقامرون بسهامهم فى هذه المربعات .

(٢) سيرانو دبرجراك (١٦١٩ - ٥٥) بطل مسرحية وضعها روستان Rostand خاض

غمار معارك كثيرة دفاعا عن انه القليظ الذى كان موضع سخرية الساخرين .

وادمون روستان هذا (١٨٦٨ - ١٩١٨) مؤلف وشاعر فرنسي مشهور وضع رواية

سيرانو دبرجراك نظما من خمسة فصول سنة ١٨٩٧ .

ميلا قبل غروب الشمس أو هل نعود الى الكرسي ذي العجلات بعد الساعة الثانية فكل ما تقرر عمله لعمله لأنك تحبه فان لم يكن هذا متعة كاملة فما هو ؟

هل السير طويلا مفرق في الارهاق لا هوادة فيه ؟ اذن فلتتوجه الى المتعة الساكنة التي تقتضيك الجلوس بجوارها وهكذا يفعل القائد : يصنع قائدى أزرارا جميلة فلديه مخرطته وأدواته ، وقد وضعها في أحد أطراف الحظيرة الكبيرة التي شيدها في نهاية الحرب حينما شرب مساعدي القيادة العليا من الضباط نخبه واستودعوه الله . نعم انه كان أحدمساعدي القيادة العليا للجيش ، وفي غضون حربين عالميتين عالج عملا من أقسى الأعمال التي نيطت به ولكن دون أن يعتوره ضعف أو يصيبه جرح وهو اليوم يقطن دارا ريفية منعزلة (فيلا) مسباحرة تطل على البحر من الناحية الجنوبية وفي كل يوم هطلت السماء أو أشرقت الشمس ، يجلس الى مخرطته ويصنع بعض الأشياء الصغيرة المختلفة من الأثاث الخفيف والتحف والفرائب ، ويصنع بما لا يكلف الا شروى نقيرا ، يدا جديدة للمعشقة أو مقبضا خشبيا لباب حجرة السطح فهذا القائد صانع اليدين وهو يستطيع أن يصنع أزرارا جميلة كبيرة على حين يشرح لك الحسائر الفادحة التي وقعت في بعض المعارك ويبين الأسباب التي دعت الى تغيير طراز الدبابات في السنة الثالثة للحرب .

ولو انه انفق كثيرا من الوقت على مخرطته لبكيت حزنا عليه ولكنه شديد الذكاء فهو يعلم سر الحياة بتخصيص جزء من الوقت لكل عمل ، فهو يدرس ويقضى كل يوم ساعة في وضع تاريخ حربى ، ويزور قادة آخرين متقاعدين وهو في سبيل شراء مزرعة يمارس فيها تربية الماعز الدار اللبن ، وهو يعلم أطفال الجيران صنع اللعب بالآلات ،

وننتقل أخيرا الى اللعب الذي يحتاج الى خفة الاصابع ولا سيما الموسيقى فقد تكون الرغبة قد داعبتك منذ زمن طويل في أن تتعلم البيانو بعد الستين ان بلغت الستين . اهذا جنون ؟ انك لا تستطيع أن تحكم حتي تجرب فقد تكون أصابعك ما زالت لينة وأذنك حادة ولكن لا تيأس اذا لم تحقق رجاءك فأمامك آلات أخرى كثيرة ، فقد تعلمت هذا احدى صديقتي القدامى فانها كانت تود أن تعزف البيانو ولكن لم يتسع وقتها لذلك اذ كان عليها أن تعمل كثيرا وطويلا وحينما اقتربت من السن التي تعتزل فيها العمل صممت على أن تبدأ في تحقيق أمنيتها التي طال عليها العهد وبدأت في التنفيذ . وأخفقت . . ولم يكن اخفاقها قليلا بل كان تاما وفظيعا ، فهل تملكها القنوط وألقت بنفسها الى البحر ؟

لا لم تفعل هذا بل تناقشت في مشكلتها مع أصدقائها وقال لها أحدهم
وكان رجلا عمليا ان العزف على الناي لا يحتاج الى المعقد من أعمال
الأصابع فجربته بطلتنا وقد مضى عليها أكثر من عشر سنوات وهي
تعمل في إحدى الفرق الموسيقية .

ثم توجد الرحلات . وان ما كان مذاقه لحما في فم أحد الناس قد
يكون مذاقه اسفاناخا في فم غيره فلا مشاحة في اختلاف الأذواق حتى
لو كنت أعلم علم اليقين ان ألفت أو الجزر الأبيض كربه فيجب أن نكون
واسعى التفكير وعلى ذلك اسجل على نفسى أنى ممن يحبذون الرحلات
بعد سن الستين وان البعض ليقضون كل وقتهم في اللعب وآخرين
يقضونه في المطالعة . اما أنا فأؤثر ارتياد مختلف الأماكن فان قضاء
بعض الوقت في الارتحال خير الأشياء ولكنه ليس خيرا من الرحالة
ذاته .

ولنتناول الحالات التى توضح ما تقدم : انه لا توجد أمراض ولكن
يوجد مرضى وهذا ما يقوله عقلاء الأطباء . ولاتوجد قوانين وانما يوجد
قانونيون وهذا ما يقوله أعقل المشرعين . وهذا ما أقوله أنا عن الارتحال
فلو دققنا في استعمال الألفاظ لقلنا انه لا يوجد ارتحال ، وانما يوجد
رحالة وعلى ذلك لا نستطيع أن نتهم الارتحال ونلومه الا بالعتب على بعض
الرحالة ، ولا نستطيع أن نشيد به الا بمدحهم وذلك لاننا بدأنا الآن نرعى
جانب الأشخاص .

أتذكرون ثورو (١) لقد كان يقول « ان من العبث أن تطوف بأرجاء
العالم لتعد القطط في زنجبار (٢) » ، وهى كلمة حكيمة ومع ذلك
فنحن نعلم ما لم يفعله ونحن نعلم انه توجد أشياء كثيرة يفعلها الناس
في رحلاتهم أدنى الى الحبلى من عدد القطط ومنذ أكثر من قرن لم يدرك
ثورو ، ليمن طالعه ، الحشرات الكريهة التى اجتاحت العالم وحملت
كثيرا من الأجانب على السخرية لانه لم يعرف السائح ولم يلق طول حياته
الرجل الذى فقد الشجاعة على تعاطي المسكرات فى دياره فيفر الى باريس
يستنقع فى المشروبات الكحولية . ولا المرأة التى لم تستطع أن تعود
نفسها الغنى البريء فى موطنها ، ولكنها لم تخش أن تنغمس فيه فى أحد
فنادق طرق باريس المنزوية ، ولا الفتى الذى ادخر مالا يستعين به على
الرحلة الى شانغهاى فيفقد جميعه يسوم وصوله فى وكر للمسكرات فى

(١) Thoreau : Henry David (١٨١٧ - ٦٢) أحد علماء الطبيعة الأمريكيين وكان

راعبا معتزلا الناس .

(٢) جزيرة فى الشمال الشرقى لمنطقة تانجانيقا جنوبى مستعمرة كينيا بأفريقية .

الميناء ، ويضطر أن يمتن غسيل الأطباق على السفينة لقاء أجر عودته كما لم يلق ثورو الارملة التي ورثت المال عن زوجها فتشتري تذكرة لرحلة بحرية فاخرة حول العالم وكل همها ان تلعب لعبة البردج فى كل فندق وفى كل سفينة ولا تقف أكثر من دقيقة لتتعرف أهى فى السويس أو فى كراتشى؟

والكلب حقير المنبت لا يتحول الى كلب حراسة طيب اذا ما طاردته ولو سافر المخبول من الأرض الى القمر وعاد منه لما ازداد مسـحـة من التعقل فالرحلة لا تصطبغ الا بما تصبغها به وانت كما انت ، وهذا ما يزيدنى ابتهاجا . ولو أوتيت من الصبر ما قادت الى مطالعة كتابى حتى هذه الكلمات ما عدت بين كبار ذوى الغفلة وعلى الأقل لن تكون أكثر من المؤلف فى هذه الناحية والراجح انك لا تحدث نفسك بقولك : « والآن وأنا على وشك اعتزال العمل سأذهب وأرى جميع الأماكن التى قرأت عنها » والغالب ان خبرة نصف القرن الماضى تغلى فى أعماق نفسك وقد عشت خلال حربين عالميتين ومر بك أشد الأزمات ضنكا وعرفت أن كثيرا من مفازع يومك منشؤه الجهل الذى ساد العالم عن هذا العالم ويحتمل انك تريد ان تعلم بآدى ذى بده كيف تتشـكـل الاشياء وما الذى يحمل روسيا على أن تحجل الولايات المتحدة على أن تحضر وتعدو .

والغالب أيضا أن يكون لك ابن أو ابنة أو أخ أو صديق حميم قضى سنوات فظيعة فى احدى جزر المحيط الهادى أو فى بعض الغابات أو فى بعض مجاهل افريقية أو فى عشش المانيا أو أكواخ اليابان أو ايطاليا ، وسمعت أساطير غريبة ورايت ندوبا مخيفة وتعجبت من أفاعيل القضاء والقدر فهل هذا عالم واحد أو هذا هو الفوضى ؟ ومتى تنشب الحرب العالمية التالية وأين تنشب ولم تنشب ؟ .

وهذا ما يجب أن يرسب فى الذهن المفكر عندما يبدأ العصر الذرى وهو يمد الارتحال جدية لم تكن له من قبل فقد أصبح الارتحال جزءا من الحياة ولم يعد الارتحال متعة للثرى ومهريا للملول والعليل . والارتحال أول مادة تدرس فى المدرسة بعد القراءة والكتابة والحساب .

أى انه لقراء هذا الكتاب الذين لا يعنيهـم كثيرا ذلك التوكيد البالى من ان الارتحال يوسع المدارك لأنهم يحبون الارتحال لأنه يعمقها ويسرهم أن يطوفوا بالبلاد للذة التطواف .

هل بنا من حاجة للتعرض لتفاصيل الثورة التى ستتجتاح الارتحال ؟ وهل بنا من حاجة لنؤكد للذين اعتزلوا العمل ان العالم

عالمهم وقد نالوه بثمن جعل الارتحال أقل نفقة من كراء الدور ، وانظر الى قيادة السيارات فهي تقطع اميالا اكثر بجالون البنزين وتعيش المعجلات زمنا أطول وزادت الطرق الرئيسية التي تسير عليها السيارات اميالا جديدة : اميالا في الصين وجاوه واميالا في الهند واميالا في البرازيل واميالا في المكسيك وكندا واميالا في الفلبين واستراليا واميالا في أوروبا وبريطانيا واميالا واميالا في كل مكان وعلى كل هذه المساحات الشاسعة الاطراف الجديدة من المسلح محطات طيبة لخدمة السيارات وفنادق أنيقة ، وانظر الى القطارات انها ستصبح في شمالي امريكا بعد عام أو عامين اعجوبة من الاعاجيب والمكسيك تستبدل بما لديها منها عربات وقاطرات من أحدث طراز . وانظر الى السفن فان اساطيل كبيرة جديدة في سبيلها الى البحر وبها من وسائل الراحة والكماليات ما لم يخطر بالبال منذ عشرين سنة وستقلك الى اى مكان بأجر أقل مما كانت تتقاضاه من قبل . وانظر اخيرا الى الطائرات فهي خير وسائل النقل في العصر الذرى وان فى امكانى أن اضع عنها وحدها كتابا سيكون العيب الوحيد فيه أن كل كلمة ترد به سيكون قد عفى عليها الزمن قبل أن يصل الكتاب الى قرائه .

عندما انتهت الحرب كان الانسان يستطيع أن يطير في طائرة تجارية من لندن الى نيويورك في ظرف اثنى عشرة ساعة أما اليوم فقد أعلن جدول للمواعيد لا يستغرق فيه قطع هذه المسافة الا تسع ساعات وسينخفض هذا الزمن غدا الى ست ساعات وهكذا الحال فى جميع القفزات الاخرى فمددها اليوم أقل بمقدار الربع وستقل فى الغد بمقدار النصف .

ولكن لم كل هذه السرعة انها قد تفيدنا فى الحرب ولكن ما قيمتها فى العزلة السلمية ؟ وهذا السؤال عادل ويجب أن يكون جوابه عادلا .

انها تفيدكم معشر المتقاعدين كما افادت المحاربين اذ أن معناها انه فى كل شهر تخصصه للفرجة على العالم تضيع وقتا أقل فى الانتقال الى الاماكن وتكسب وقتا أطول لرؤية الناس والاشياء بها وبدأ تشحن الزمن بلذات أكبر وثقافة أوسع مما كان يتاح لك اذا كنت قضيت معظم وقتك فى السفر ذهابا وإيابا .

حينما كنت فى مقتبل العمر كنت اتحرق شوقا لزيارة استراليا فماذا كان يحصل لو انه كان لدى الوقت والمال ؟ كنت اقتطع تسعين يوما فى أحد فصول الشتاء لأدرك فصل الصيف فى النصف المقابل

من الكرة الأرضية ولكنك أنفق الأسابيع في سبيل الوصول والأسابيع في سبيل العودة فلا يبقى لي وقت أقضية هناك أما اليوم فالامر جد مختلف .

ثم ان ، الزيارات القصيرة للأماكن القريبة قد اختزلت الطائرة الحديثة مسافاتها فاصبحت كأطراف الأبر ويكاد المرء معها لا يغادر بلده .

وفي الأيام الغابرة كان الناس يأوون الى أماكن يقيمون فيها ولا يغادرونها الا للعودة الى الوطن لتشجيع جنازة العم « اد » أو لتحصيل أموال الرهن ولذلك كان اختيار المكان يتطلب منهم عناية لأنه يجب أن يكون صالحا للإقامة فيه زمنا طويلا فسا أكبر الفرق الآن . ان الوطن هو حيث تعلق قبعتك « لو أن لك قبعة » .

حقا ان المرء يستطيع الآن أن يتحرك بحرية حيث يشاء بغض النظر عن المكان الذي يقطنه ، فهل رحل هو الى سويسرا ؟ نعم ولكنه سيهبط روما هذا الأسبوع ليقابل صديقين قديمين ونحن ننتظره ثم يعود ولكنه لا يستطيع الإقامة طويلا لأنه على موعد مع شخص في اسكتلندة سيصحبه لقضاء أسبوع في صيد السمك فننتظره مرة أخرى فيعود ولكنه يعود وهو في لهفة لحشو حقيبة أخرى يطوح بها في سيارته ثم يغادر متوجها الى إيرلندة .

أتظن هذا محض خيال ؟ كلا فان صديقة لي من أقدم أصدقائي وهي جدة من ذوات السنين المليئة بالحياة والمرح تقاعدت منذ ست سنوات وهي تطير حول البلاد كأنها فراشة سكرى فهي هنا الآن وهي الآن قد رحلت وهي الآن تحط في باريس وتعقد في فرح اجتماعا لأصدقائها وهي الآن تقضي أسبوعا مع شقيقة لها في أدنبرة فهل هذا يكلف مالا ؟ حسنا انها راغبة في العمل جزءا من وقتها لكي تنعم بهذه الرفاهية ولهذا فهي تكدح نحو شهرين كل عام بأجر حسن لتوفق بين خرجها ودخلها فالوطن هو حيث تضع قبعتها وان لديها ست قبعات ولذا فان لها ستة مواطن أم هل بهذا الحساب شيء من الخطأ ؟

ولي صديق قديم آخر كان في وقت ما استاذا باحدى الكليات وهو ايضا سريع التنقل من مكان الى مكان ولكن لا يمثل تلك الجراة فهو لا يملك من المال ما يمكنه من القيام برحلات الجدة المتتابة غير انه يطوف ولا يعرف أحد مقره في زمن ما وان له جوصقا خشبيا لصيد الأسماك بالقرب من بنزانس(١) وهو يذهب الى الريف في شهر يوليو من كل سنة

(١) Penzance مصيف في مقاطعة كورنوال في الطرف الغربي الجنوبي من إنجلترا .

حيث يقضى أسبوعين وهو يستقل الحافلة (الاتوبيس) ذهابا وإيابا بين محل إقامته الرسمي الذي نسيته وبلدة صغيرة في الريف حيث يشتغل ابنه وهو يرتب هذه الرحلات بدخل أسبوعي قدره ثمانية عشر جنيها ولكن لا تسلمني أكثر من هذا فان السياسة المالية العليا أكبر من طاقتي .

ما الذي تستخلصه من الاسفار ؟ أتستخلص ضحكة تسخر بها من أحد الفتيان الوطنيين الذين يفوضون في البحر حول باخرتك في إحدى الموانئ الاستوائية لكي تنفحه ببعض المال ؟ أو صورة فوتوغرافية سريعة لبركان فيزوف (١) أو شهقة أعجاب بتاج محل (٢) أو غضبة من تاجر السجاجيد في سوق شرقية أو نكتة وقحة يسردها عليها جراح السفينة ؟ من يدري ؟ ان السفر هو ما تصنعه أنت .

فاليوم تستطيع أن تجعل الارتحال مقدمة لدولة عالمية اذا أردت وتستطيع أن تجعله نقطة البداية لفهم جديد للعالم وتستطيع أن تجعله رياضة لطيفة تكتشف في خلالها ان أكثر الاجانب لا يحبوننا ولماذا ، تستطيع أن تجعله نوبة سكر حول العالم أو طوافا بالمواخير في أرجاء الارض أو أي شيء تريده ، فأنت أنت .

واذا كنت تميل بعد الستين الى الهرب من عالم قاس لا تقوى على مواجهة قسوته فاخص الكتب ببعض وقتك .

واذا أردت أن تتعلم بعض ملايين الأشياء التي لم تجد وقتا لدراستها ابان شبابتك فاخص الكتب ببعض وقتك .

واذا آثرت أن تواصل السيطرة على ناحية من نواحي المهارة أو العلم التي شيدت عليها مستقبلك في سنى النشاط فاخص الكتب ببعض وقتك .

واذا توقفت عقلك توقفا تاما فاخص الكتب ببعض وقتك .

وليس من كتاب هو علاج عالمي ولكن الكتب تتألف منها عقاير الروح ، ولا يوجد رف لصيدلى يحمل من العلاجات والمسكنات وموانع الأمراض ما تحمله مكتبة عامرة .

كيف أخبرك بما يجب أن تقرأ وأنا لا أعلم مواجعك ولا ميولك فان ما يمنع التهاب أصابع القدم لا يشفى وجع الأضراس فللعقل مثل

(١) فيزوف بركان قريب من نابولي بإيطاليا . وقد ثار لأول مرة سنة ٧٦ ق.م وخرب مدينتى بومبي . وهرقله .

(٢) من أجمل مباني الدنيا ، بالقرب من مدينة أجرا بالهند شيده الامبراطور المغولي شاه جيهان تخليدا للذكرى وزوجه الحبيبة نور محل . واشتغل عشرون الف عامل في بنائه مدى عشرين سنة وتم تشييده سنة ١٦٥٠ ومعظمه من الرمر الأبيض .

ما للجسم من منفصات ولكل منها كتاب فصف لنفسك الدواء لأنى لا أستطيع أن أمدك بالكثير .

وحسبى ما أقوله لك : لا تصدق أى انسان يحدثك بمثل الحديث الآتى : « عليك ان تقرأ أحسن مائة كتاب . واليك قائمة بهما وأبدأ بالكتاب رقم واحد ، وفى الوقت الذى تفرغ فيه من مطالعة الكتب الواردة فى القائمة ستكون جديرا بدرجة بكالوريوس فى الآداب من جامعة بنوم السوفسطائية (١) . »

أحسن ؟ أحسن لآى شيء ؟ لتلميع حذائك أو لحشو حديث المائدة بمقتطفات لاتينية وان باعة المعاطف والكسا قد يعتقدون أنه يوجد أحسن مائة كتاب وكذلك الكثيرون من اللعاة لبعض المعاهد وأعضائها ولا يوجد رجل مثقف يأنس بهذه الفكرة السيئة أكثر من عشر ثوان . اطعم خرافك قشاً معصوفا لتوفر على نفسك ثمن البرسيم الجيد وستجد النتيجة مدهشة الا للأغنام وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل أن تتمكن من بيعها . وغذ نفسك بأحسن مائة كتاب لتوفر عليها مشقة التفكير وتعليم النشء كيف يفكرون .

وكما هى الحال مع الشبان فهى كذلك مع الشيب : لا توجد خير كتب لكل غرض والعلاج الشامل لم يعد شائعاً ولكن اذكر رغباتك وأهدافك ثم ابحث عن الكتب التى تعالجها فقد تجد بين كل ألف مجلد على أرفف دور الكتب عشرة هى خير ما يتفق مع حاجتك وقد لا يكون بينها ما قد سمع به بائع المعاطف والكسا غير ان كلا منها قد يكون خيراً لك من الانجيل والتوراة بل دائرة المعارف البريطانية .

ولا يخدعك من العلماء والمتصرفين أمثال جون رسكين (٢)

ولعلك تذكر كلمته التى يستشهد بها كثيراً وهى :

« لما كانت الحياة قصيرة جداً وساعات الهدوء فيها قليلة كان واجباً علينا ألا نضيع شيئاً منها فى مطالعة كتب لا قيمة لها ، وهذه عاطفة

(١) Buncombe ، Bunkum اسم مقاطعة فى ولاية كارولينا الشمالية

ويقال ان ممثلها فى مجلس العموم اخذ يتكلم طويلاً فى المؤتمر النيابى كلاماً مملاً مسهباً لا موجب له . فاطلق اسم هذه المقاطعة على الثثرة التى لا طائل تحتها . كما اطلقت كلمة السوفسطائية على فرقة ينكرون الحسيات والبدييات وغيرها . والسفسطة كلمة يونانية قديمة ، وسوفسطائى نسبة غير قياسية اليها .

(٢) John Ruskin (١٨١٩ - ١٩٠٠) وهو ناقد فنى بريطانى ومصلح اجتماعى كان ذائع

السميت فى زمانه وقضى أيامه الأخيرة فى منطقة البحيرة Lake District حيث

خلد اسمه باقلمة نصب له فى Friar's Crag بلدة درونت واتر Derwentwater

نبيلة دون ريب ، وكان يمكن ان تكون أكثر نبلا لولا ان رسكين نفسه كتب عدة كتب لا قيمة لها كأي مؤلف آخر ما عدا العصاية التي ترتزق من التصنيف في القنون والآداب وربما كانت ذات فائدة له ولكن لم تكن ذات فائدة لي ولا لكثير من الناس الذين عرفتهم وبينما أنا أعبت بإصبعي ببعض صفحات هذه الكتب أتخيل نفسي في حضرة رجل من رجال الكهوف وهو قابض على آلة غامضة ويقول : ان هذه الآلة لتفلية الدينوسور (أو الزواحف العملاقة المنقرضة) وهي صالحة للعمل ، .

حقا انها قد تصلح لهذا العمل تماما ولكني لا أملك هذه الزواحف وما كان لدى منها لا تحتاج الى تفلية .

اختص الكتب بكثير من الوقت اذا كنت تعرف ما تحتاج واذا كنت تستطيع المطالعة واذا كنت ترغب في ان تدرس بالجد الذي يتطلبه الموضوع والهدف وهذا كل ما في الأمر فهو معقد كما لو انك توجهت الى الصيدلاني طلبت اليه أن يعطيك دواء مفيدا .

فيسالك بأدب « مفيدا في أي غرض » .

فتجيبه : ويتصيد المساعد شيئا .

ويقلقه وهو يقول « ثلاث مرات يوميا قبل الأكل » .

فتتعاطاء ونحن نرجو مخلصين أن تشعر بتحسّن منه ، .

واذا تعاطيت قبل أن تأوى الى فراشك قصة مزعجة تدور حول الشئون المالية أو التزوير أو الدعارة فهل تساعدك على النوم العميق ؟ تعاطها بدلا من المسكنات .

هل يحملك كتاب النكات لجو ميلر (١) على الضحك حتى لا تضطر الى أخذ ملين . اذن فاقرأ واقرا .

هل قضاء ساعة مع ارستطاليس تثير مشاعرك اذن تحمل الصدمة واصطبِر عليها .

عشرة آلاف هسلف وعشرة آلاف كتاب تعالجها وهذا ما يجعل الناشرين مستمرين على أعمالهم وينشط تجارة النظارات ويحمل الكثيرين على أن يفرقوا بين « أ » و « ب » والآن وقد حل العهد اللري

(١) Joe Miller (١٦٨٤ - ١٧٢٨) كان ممثلا كوميديا في فرقة دروري لين Drury Lane

وبعد وفاته استخدم جون موطلا Jhon Mottley اسمه في ترويج وإذاعة بعض

الفكاهات والملح .

فان الوفا من الكتب القديمة قد فقدت ما كان لها في وقت من الأوقات من الفائدة الثابتة لأن المواد التي تتكلم عنها ليست في الوجود والمستويات التي قررتها لا معنى لها الآن - والمثل العليا التي تشيد بها أصبحت ترهات وسيكتب بعض الكتاب كتباً جديدة لتحل محلها فتقرب ظهورها .

ان اكبر العهود في التاريخ الطويل للنشر يوشك ان ينبثق فجره فقد كانت الكتب يقرأها العشرات من الناس اثم المئات منهم ثم الألوف اما الآن فسيقروها الملايين وما لم تدهسنى سيارة محملة بالفراولة وأنا اتطلع الى اخبار تجارة الكتب فأعيش لأرى بضعة من السكتب يقرأها عشرات الملايين ولن تكون الكتب الأولى منها كتباً عظيمة بأية حال من الأحوال ولكنها تسد حاجة الساعة فاذا ما اختفت الحاجة اختفت معها الكتب .

واذا كنت تقرأ للهرب أو للتطهير الامعاني كان لك أن تتجاهل ملاحظتي التالية لانها لا تنطبق الا على ما نسميه عادة بالقراءة الجدية .

واذا كنت تقرأ كتاباً جدياً لتتعلم منه شيئاً فلا تقرأه بل ادرس دائماً وانظر الى المجلد نظرتك الى الكتاب المدرسى وضع علامات على الموضوعات الرئيسية فيه واستذكر فقراته المهمة واكتب ملخصات له فصلاً فصلاً واني أطلب اليك أن تعمل هذا العمل مرة واحدة لا غير فاذا لم تسرك النتائج فلن أعيد على سمعك الموضوع ثانية .

ومعنى هذا انه يجب عليك أن تطالع الكتب الجدية في أناة وعلى فترات متقاربة فان لهذه الطريقة مزايا أخرى ليس أقلها شأننا أن تشغل بها ساعات عدة حينما تشعر انك متعب لا تقوى على ارتداء نعليك .

ومعناه أيضاً انه يجب أن تناقش الكتاب مع بعض الأذكياء الذين يرغبون في مناقشة كل نقطة حتى الثمالة وهذه نصيحة يراد بها أن تبلغ الكمال وقلما تجد رجلاً له مثل هؤلاء الأصدقاء فان الحياة العصرية ثبطت المناقشة ، ولهذا فان أغلب الحديث عن المسائل الجدية انحط الى بعض عبارات قليلة أسى استعمالها . ذكرها بعضهم في إحدى المجلات - أم ترى كانت في إحدى الصحف اليومية - منذ أيام قليلة عند الكلام على شيء نسيت ماذا كان وبهذه المناسبة لم تكن صورة القرد السكران التي ظهرت في مجلة بنش (١) عجباً من العجب ؟ .

(١) Punch مجلة لندنية مشهورة مصورة تصدر أسبوعية ذات أسلوب فكاهي وكان

أول صدورها في سنة ١٨١١ - ومعنى هذا الاسم لغويًا : القراض .

نعم اختص الكتب بمزيد من الوقت .

واختص التفكير ان استطعته بجزء كبير من الوقت وان لم تستطعه فاستخدم الوقت فى اللعب أو فى الضحك أو فيما تشاء . وليس شئ اشد عمقا من محاولة اغبياء هواة حل مشكلة تستدعى مجهودا ذهنيا ضخما من النوع الذى نسميه تفكيرا .

فالتفكير هو حل مشكلة « فى رأسك » أى بمحض التذكر وبالمقارنات وبلاستنتاج وبوسائل العقل الأخرى ويقع نصف العمل على صحة صياغة المشكلة ولم نجد حتى اليوم آلة تستطيع أن تقوم بهذا النصف فقد صمم الناس آلات حاسبة عجيبة تبدأ من آلات الجيب التى تقوم بالجمع الى آلة انيساك « Eniac » هذا الجهاز الضخم الذى يعالج مشكلات تجاوز مقدرة آحاد الناس غير ان جميع هذه الأجهزة لا تقوم الا بعمل شئ واحد هو حل المشكلات التى تغذى بها وهى لا تستطيع أن ترى المشكلات ولا تستطيع أن تقسمها الى أجزاء ولا تستطيع أن تضغط أزرارها بنفسها ولا أن تشد مفاتيحها عندما تذكر نتائج المسائل فالإنسان والإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يرى المشكلات وان يذكرها ويحتمل أن يبقى هذا حتى نهاية العصر الذرى الشئ الوحيد الذى يدعى الإنسان الانفراد به .

فالتمسك برأى لا ينهض دليلا على بذل مجهود فى التفكير للوصول اليه فمن الاغلاط الشائعة بين هواة المفكرين أن يعدوا الرأى دليلا على المجهود الذهنى وعلى هذا فان محررى إحدى المجلات التجارية التى ظهرت أخيرا قد أفاضوا فى الكتابة عن أسطورة العقل البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة وشرحوا كيف ان البالغين أحسن تفكيرا من الاطفال لأن لديهم آراء من أنضج ما اتخذ فى جميع الأشياء على اختلاف أنواعها وأجرى المحررون استفتاء عاما لاثبات صحة هذه الدعوى أى انهم كانوا واثقين كل الثقة بأنفسهم غير ان الاستفتاء لم يثبت الا أن كثيرا من الناس لهم آراء يجدها كثير من الأذكيا الذين فكروا فى المسائل المتنازع عليها انها سليمة صحيحة .

« أعتقد ان التجارة مفيدة للبلاد أو ضارة بها ؟ »

ويجب معظم الناس « انها مفيدة » .

فكم منهم من حل مشكلة لها اتصال بقيمة التجارة ؟ قد يكون واحدا فقط على الأكثر لأن أكثر الآراء تنبثق عن العادات القديمة وتنحدر

العادات من الآباء والعلمين والمجلات وأحاديث اللاسلكى ومن حديث
الظهير المزوق الذى يلقيه المدير العام فى المصنع .

وبعد الستين لا تخدع نفسك بأسطورة التفكير وإذا رغبت فى أن
تخصص جزءا من الوقت للتدريب العقلى فيجب أن تبدأ بمشكلة حقيقية
من مشاكلك فهذا يكون لك الحافز الصحيح . ويجب أن تسير بطريقة
منتظمة لترتب أدلتك وتختبر كل مادة عليك أن تراجع كل نتيجة
تستخلصها وفى النهاية ستكون قادرا على أن تعرض حالتك برمتها
متوقعا لها العواقب التى انتهت إليها وما لم تستطع أن تفعل ذلك فلم
تكن تفكر فى الأمر بل كنت تستسلم لرأى قديم أو على أسوأ تقدير كنت
تحدث أو ترجم بالغيب .

والتفكير عمل شاق واشق مما يستطيعه كثير من الناس ولست
أحضك على أن تضنى نفسك به ولكن إن كان لك ميل للتفكير فواجب
على ألا أدخر جهدا لتشجيعك عليه فأى شخص جاوز الستين ممن لهم
عادات سليمة فى التفكير ليستطيع أن يأتى بالعجائب إذا التزم المثابرة
والصبر إذ يجب عليه ألا يشتغل بعيدا عن الموضوع بل يستغل لأقصى
حد مهارته القديمة وتمرسه بموضوعه . والطبيب المتقاعد يحسن صنعا
إذا خصص جزءا من وقته للتفكير فى بعض المسائل الطبية ، والقانونى
المتقاعد يتألق كأسطع ما يكون إذا فكر فى بعض المسائل المتنازع عليها
ذات الصلة بالقانون . وهلم جرا .

وإن العالم ليتألم أشد الألم من قلة ذوى التفكير السليم فى عشرات الميادين
وبخاصة ما يتعلق منها بالمسائل غير الاقتصادية ونحن بحاجة إلى الآلاف
من الرجال والنساء ذوى الخبرة الواسعة الذين يستطيعون أن يفكروا
فى حلول للمسائل التى يتجاهلها الرجال المشغولون بجمع المال وسنعود
لهذا الموضوع فيما بعد .

أختص الناس بجزء من وقتك واحذر أن تستخدم الوقت كما
تستخدمه الكثرة من الناس ودعنى أفصح لك عن بعض الأمثلة الفظيعة
التي تؤذيني أكثر مما تؤذيك .

يعيش فى بقعة جميلة اثناعشر شخصا أو يزيدون وعليهم جميعا
أن يعيشوا عيشة متواضعة على قليل من رواتب الاستيداع والمدخرات
وأنا على يقين أن ليس بينهم من يملك أكثر من ٥٠٠ جنيه فى العام وهم
يجتمعون مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع بمسكن أحدهم وأخفت إدارة

« مخبراتي السرية » في مراقبتهم وتسجيل تحركاتهم على الساعات الميقاتية الدقيقة التي معهم وقدمت التقارير الآتية :

ان ثمانين في المائة من الوقت بين الساعة السادسة ومنتصف الليل اختصت بها السيدة « جلوك » في التحدث عن هزتها الفارسية والسيد « جليك » في الاشادة بصفات كلبه الأشعث الأليف والأنسة « جلك » تشرح مرض قططها الأربع والسيد « جلورك » يثنى على ببغائه وعلى الجمل التي تعلمها أخيرا والأنسة « جلرك » تتلو قصصه جديده عن عصفورها الكناري والسيد « جليرك » يتحسر على الموت الفجائي الذي نزل بديبه الصغيرين ذوى الفراء الثمين .

وتضيق عشرة في المائة من الزمن في احتساء مشروب خفيف من الحمر الأمريكى المعروف باسم كوكتيل يتلوه مشروب قوى من مستقطر عصير قصب السكر (روم) فمشروب أقوى من مستقطر أرواح الحبوب (جن) .

وتستغرق خمسة في المائة من الزمن حكاية الحكايات القديمة بل العريقة في القدم التي شحب لونها لدرجة تجعل الأنسة جلرك تستلقى من الضحك والسيد جلورك يخور كما يخور الثور .

وينتهى المساء وقد اشتد السكر باثنين أو ثلاثة من الأعضاء فلا يستطيعون العودة الى دورهم ويفترشون الأرض حتى الصباح ثم يتمتعون بخير سنى حياتهم .

يشرب الشبان الحمر للانتعاش ويشربها الشيوخ للنسيان وما أعجب ما ينسون ! ان لديهم الكثير مما يجب أن ينسوه فعليهم ان ينسوا السنين التي أضاعوها هباء والغش والخداع والوضع ، والأصدقاء المخدوعين والفرص التي أفلتت وما أقدّر الصديق الذي نجده في باكوس اله الخمر . ان المد في بحار الكحول يزيد مايبتلعه منا يوماً عن يوم ونحن بفرقنا فرحون لأنه ليس لنا ما نعيش من أجله .

وهذه الأمثلة الفظيعة تبين لنا الطريق التي يجب ألا نستخدم سنوات العمر الأخيرة فيها واذا كان لا بد فيها من معاشرة الناس فلنعاشهم لغرض غير غرض التهرب من أنفسنا .

وخير طريقة للاستفادة من عشرة الناس هو العمل على الحصول على شيء يستحق الذكر . ما هو ؟ ان أمر اختياره متروك لك . فأنت تعلم ما يصلح لك اليس كذلك ؟ : اذن اجتمع باخوانك وتذاكر معهم فيه وانظر

ماذا يرون واستمع الى مقترحاتهم وارسم لنفسك منهجا ، وحتى لو اخفق هذا المنهج فسيختلفك مملوءا بالحياة ولن يغلبك النعاس فتسقط صريع الحمر على بساط بعض الناس .

يأتى العصر الذرى بفرض عظيمة لأولئك الذين يتلذذون بالصور المتحركة واللاسلكى والرسم والكتابة ولعلك تذكر الجدة موزس ومعرضها الضخم المملوء بقطع الكتان وقد رسمت كلها بدهان الزيت بعد ان جاوزت السبعين . حسنا ان الوفا غيرها من الناس جاوزوا الستين بعدة سنوات يستطيعون ان يستشعروا من الفن لذة كالتي وجدت وان لم يضارعوها فى عبقريتها الشاذة . وكم من رجل لا يستطيع ان يصنع صورا متحركة او ان يقيم معرضا لأجهزته اللاسلكية يستطيع ان يسترد من الوكالات التجارية كثيرا مما انفق بفضل ما انتشر فى أرجاء العالم من أسواق جديدة سريعة النمو .

تأمل أولا فرصك فى الصور المتحركة .

صنعت صديقتى الفاضلة ماري برادى بعض الصور المتحركة منذ بضع سنوات لتعلم الناس قيمة المراتب السنوية واهمية أخذ الأهبة للتقاعد قبل حلول أجله لمدة طويلة وهى لم تذهب الى هوليوود بل بقيت هاوية والحمد لله ، واختارت ممثلها من بين الاصدقاء واصدقاء الاصدقاء فأولا استحضرت أمها وهى وان كانت طاعنة فى السن لكنها تستطيع ان تتحرك ، ثم وجدت امرأة كانت ممثلة منذ أزمان وأزمان وأتى بعد ذلك المشرف على مبنى المكتب ثم الخادمة المنوط بها أعمال التنظيف .

وكانت القصة والتمثيل فى مستواهما الطبيعى ولم يكده بعد الممثل عن تمثيل شخصه وساد الرواية جو الاسرة البسيطة واتفقت الأدوار مع نشاط الممثلين وميولهم .

وسرت القشعريرة فى أجسام الشيوخ والعجائز وخرجوا منها ماري برادى ليقنعوا بأن متقدمى السن يجب أن يشاهدوا شرائط (أفلاما) تهذيبية وهذا كلام أراه أنا أيضا معقولا وفى الحق انه يقرب من أن يكون فكرة زاهية براقه .

وللشرائط التهذيبية تاريخ غريب وأنا أعلم الكثير عنها لاني أسهمت فى خمسة مشروعات على الأقل فى الأيام التى لم يكن يعرف فيها أحد شيئا بل كان كل انسان راغبا فى تجربة أى شئ مرة ، ولايجاز التاريخ فى عبارة أو اثنتين أقول ان تعليم الدروس التثقيفية أخفق

تماما مع ان تعليم الصفقات المسالية لاقى نجاحا بهر الانظار . والصور المتحركة قليلة القيمة الى ان يضطلع بها المعلمون والشرح ولا قيمة لها لو عملت على نسق المتبع في هوليوود .

في غضون السنة الاخيرة بدا للشريط الثقيفي مستقبل زاهر واخذ الشريط الضيق يحتل مكانه وتستفله اكبر شركات الصور في جميع انحاء الارض وتعديل شركات الشرائط الملونة أجهزتها لتصليح للشريط الضيق .

فالشريط الضيق — كما يعلم كل هاو — لا يكلف الا قليلا وآلات التصوير اللازمة له صغيرة الحجم خفيفة الوزن ويستطيع الانسان ان ينتقل بها الى أى مكان يشاء فى سهولة ويسر والتلف العارض الذى يصيبها تافه بالمقارنة الى نفقات الصور وتصوير المناظر فى الحلاء ناجح على وجه العموم .

غير ان السبب الرئيسى لبيان الدافع لنا على ان نقوم فى « خير سننى العمر » بعمل لا يستغرق الا بعض الوقت . ان هذا السبب لايزال طى الكتمان لم نصرح به : انه السهولة فى تكييف جميع الاعمال لتتفق مع رغبات المنتجين والمديرين وان منتج هوليوود يستأجر ممثلين كثيرى التكاليف وقد يبلغون المائة عدا . وعليه ان يدور حول جماعات من المصورين والخبراء فان اضاءة ساعة واحدة قد تعود عليه بخسارة تزيد على مائتى جنيه وقد ينفق فى بعض الصور خمسة آلاف جنيه فى اليوم فكيف يستطيع ان يختص نفسه بعطلة يوم يذهب فيه لصيد الأسماك فهو عبد أدواته الفظيعة . . يا لك من مسكين يا فرنكنشتاين !

أما مخرج الشرائط الثقيفية فيكاد لا يجد أبدا ممثلين يتعذر عليه جمعهم أو منحهم عطلة لباقي أيام الأسبوع يقضونها فى مواطنهم بنفقات زهيدة جدا وكثيرا ما يحصل على مناظره وممثليه من احد مديري المصانع الذى يسره ان يلتقط الشريط المدرسى بين آلاته ، وفى ظروف كثيرة يلتقط المخرج مناظره فى الحلاء دون أن يتقيد بأى قيد .

وقبل الحرب الاخيرة لم يتمكن الا القليلون من المنتجين المستقلين من بيع شرائطهم الثقيفية اذ كانت ترفض شركات هوليوود الكبرى شرائها ، وكانت المدارس اما لاتملك المال لشرائها واما كان الوصول اليها صعبا اذا ما ارادت المدارس ان تستأجر من صانعيها نسخا مطبوعة منها . ولكن الحرب بدلت كل هذا تبديلا وهوليوود ما زالت تشن الحرب الى النهاية فى جميع البلدان الأجنبية تقريبا . والشريط الضيق أحد

الاسلحة التي ستستخدمها فالباعة يستطيعون أن يؤجروا عشرات الألوف منها للقرى والديساكر في جميع انحاء أوروبا وآسيا وأفريقية وجنوبى امريكا حيث لا توجد مسارح وحيث يعجز الناس عن المحافظة عليها ويمكن أن تعرض السيارات المتنقلة شرائط ضيقة وتتقاضى ثلاثة بنسات (نحو اثنى عشر مليما) من كل متفرج وتخرج رابحة من ذلك ويمكن نصب الستارة خلف السيارة واقامة خيمة حولها لمنع من لم يدفع الأجر من الفرجة ، ويمكن أيضا أن يتبع هذا النظام فى اندية المؤسسات التجارية والمدارس والكنائس فى العالم طرا وتستطيع سيارة الشريط الجائلة أن تحمل معها ٢٥٠ شريطا وأن تعرض منها فى كل محلة ما يستطيع اهلها ان يدفعوا اجر الفرجة عليها ، وزيادة على ذلك يتوقع قليل من الناس فى المستقبل المشرق أن تستاجر بعض البيوت الخاصة شرائط تثقيفية وغيرها من الشرائط الضيقة واذا ابتعد الناس عن دور الصور اذا ما انتشر التلفزيون Television فقد يرون فى أنفسهم الرغبة فى رؤية صور أكثر جدية مما يستطيع أن يقدمه جهاز الرؤية عن بعد واذا استطاعوا أن يروها فى دورهم لكان ذلك ادعى لراحتهم .

فالتطور السريع سائر فى طريقه فأقرب ما يثيره من التراب .

ان ستة من الرجال والنساء فى احدى المناطق يستطيعون ان يجمعوا فيما بينهم ذكاء ومالا ويصنعوا صورا متحركة جديدة ومفيدة . وماذا لو انهم اُتلفوا بعض الوف الأقدام من شرائط التصوير اثناء محاولاتهم تعلم طرائقه وحيله . هبها انفقت فى سبيل التعلم ولا تنس اللذة التى تمتعت بها .

وقد حل الآن وقت الشروع فى العمل فأضع سنتين أو ثلاثا لتتمكن من دراسة الحيل وهى كثيرة - وخصص بضع مئات من الجنيهات لما يتلف من الاشرطة وللتوجه الى الاماكن غير الصالحة لأخذ الصور وفى الاوقات غير الملائمة وللسفر الى جهات بعيدة بغير طائل ولما يماثل هذه المسائل من التفاصيل وفى الوقت الذى تكون قد حصلت على شىء يمكن بيعه ستجد له سوقا رائجة .

وماذا ترى فى الكتابة ؟ .

انها ليست باللغة الحرارة ولكنها دافئة دفئا كافيا ليخرج منها فى الظلام بصيص خافت وان عندنا من المجلات السيئة والكتب الرديئة ما يزيد على الحاجة . وشر من هذا وذاك عندنا من القراء الرديئين عدد

أكثر مما يصح وجوده ، وعلى النقيض من ذلك لا يزال قليل من القراء الجادين متخلفين عن الركب ويظهر أن جيشا جديدا أخذ يتكون من بين صفوف القدامى ولم يسبق في التاريخ من قبل أن قرا عدد كبير من الناس عددا كبيرا من الكتب الطيبة كما حصل في معسكرات جيوشنا وعلى ظهور سفننا الحربية ، وقد تتجاسر بعض النفوس الطائشة مثلى على الظن بأن الشيوخ الشجعان اذا تضامنوا واحتالوا على جمع النفقات فيما بينهم قد يهزون العالم بعشرات من النشرات الدورية المستقبلية التى تفشى الأشياء المكتومة أو المشوهة .

وكثير منا ممن شبوا عن الطوق يدركون الحرية الزائفة للصحف وهى الحرية التى نعيش فيها ونحن نعرف جميع الرقباء ونستطيع أن نطبع أسمائهم وعنواناتهم ونحن نعرف الرجال الصغار الأذكياء الذين يجلسون مثلا فى هوليوود ويعملون على ان يدخن الممثلون والممثلات العدد الصحيح من السجائر المقرر لكل شريط مصور وأن يجرعوا العدد الصحيح من كؤوس الخمر المقررة له أرضاء لوكلاء الاعلان الذين يستخدمهم صناع الشرائط المصورة والذين يجنون منهم سنويا مبالغ طائلة ونحن نعرف وكلاء الأزياء الذين يرقبون الملابس والقبعات التى تظهر على الستائر . . . ونحن نعرف أيضا الرقباء الذين يحذفون كل شيء ابتداء من اللعنة الخافتة الى الملحوظة الخاطئة عن صناعة المأكولات المحفوظة وعن جمعية الله والدولة . والقليل منا يسره ان ينفق المال فى قص الاقاصيص المدرسية والسخرية من المحامين الذين يدافعون فى جرائم السب والقذف .

أحلاف . . اضعفك أحلام . أحلام شيوخ . والآن عم كنا نتحدث؟ آه نعم . عن الفن فى سبيل المتعة . نعم ان الكتابة لمجلك الصغيرة الخاصة ولا سيما كتابة ما يسميه الغير بأنه غير صالح للطبع ينبغى ان تكون فى العصر الذرى صناعة ناشئة فى دور الطفولة . وثمة أشياء كثيرة أحق بالتفتيت والسحق من ذرات اليورانيوم الصغيرة البريئة ويود مليون من الناس على الأقل ان يصرخوا بأعلى اصواتهم ليحصلوا على نشرات دورية تتحدى جميع الرقباء حتى لو اضطر المشترون الى أن يتسللوا الى بيوت الحلاء ليحصلوا على نسخ منها .

« أود أن اتقاعد وبي مسحة من الشباب تكفل لى التمتع بالأشياء » .

ما أكثر ما نسمع هذه العبارة من أفواه الناس وما أقل ما نرى الناس يتبعونها .

ان أسهل طريقة لتحقيق هذه الرغبة هي تكوين ثروة طيبة قبل الأربعين ثم الشروع فى الضمور والانكماش وعلى هذا فكل ما على أن أفعله هو ان اظهرك على طريقة تكوين هذه الثروة .

وتتلو هذه الطريقة فى السهولة أن تبدأ من السنة العاشرة من عمرك فى التضييق فى المعيشة فتعيش على الحبز الجاف والزبد الصناعى مع كأس من قهوة الشيكوريا للافطار وعلى اللبن المنزوعة منه قشيدته للعشاء وتلزم مكانك لا تبرحه ولا تجتمع بأحد من الناس ولا تعمل شيئا ما فاذا بلغت ربيع العمر فسيكون لديك مال يكفيك للتقاعد أو ستكون بين الاموات وانا ألاحظ عزوفا عاما عن تجربة هذا الأسلوب .

والطريقة التى من الدرجة الثالثة هي أن تبدأ فى الانكماش من السنة الأربعين اذا استطعت أو من السنة الخمسين اذا تأخرت واقرا كيف استخدم بن فرانكلين [Ben : Franklin] قواه بعد أن ترك الأعمال وهو فى سن الثانية والأربعين .

فالانسحاب التدريجى هو الطريقة الطبيعية المعقولة . وفق بين جهودك وقواك لتجنب الارهاق والصدمات لأنك اذا استمرت على أداء العمل نفسه بعد ان تكون فقدت بعضا من قواك التى كانت لك وأنت فى سن السادسة عشرة فقد تصاب بفتق فى بطنك أو يضعف قلبك أو تصاب بنزيف . وقد لحقت هذه الاعراض بألوف من الناس نتيجة الاسراع فى صعود درجات السلم أو رفع الأثقال أو القيام بأعمال شاقة ساعة بغير هوادة ، وعلى النقيض من ذلك اذا توقفت بلا حراك ولم تعمل شيئا فقد تصدعك الصدمة وليس من رجل ذى عادات حسنة يستطيع أن يتحمل وقفها السريع جميعا ما لم يكن مصابا بمرض خطير .

والرغبة فى الانسحاب التدريجى متأصلة فى نفوس البشر وتظهر واضحة فى الجهود التى لا تنتهى والتى يبذلها الرجل لتقليل ساعات العمل وفى ميله الشديد الى جعل جميع الأعمال سهلة الاحتمال .

منذ قرن واحد فقط كان العمال الزراعيون يكدهسون من مشرق الشمس الى مغربها فاتخذ الصنّاع هذا الزمن مقياسا ليوم العمل وبعد فترة شذّبوا من أطرافه وقصروه على اثنتى عشرة ساعة .

حينما كنت فتى صغيرا كان العمال الزراعيون يعملون نحو ثلاث عشرة ساعة فى اليوم الا فى منتصف الشتاء وكان يوم العمل فى المدينة عشر ساعات وقد كانت اول أموال ربحتها من اعمال مختلفة بهذا الطول من الزمن ، وكان هز الرءوس التى خطبها الشيب ينذر بالسوء اذا طلب اليها أحد العمال أن يكون يوم العمل ثمانى ساعات وأسبوع العمل ستة ايام وكان يقول الأقدمون ان العالم سيصيبه الدمار ، فقصر العمل على ثمان وأربعين ساعة فى الاسبوع سيطيع بالاخلاق .

فبينما يرغى الشسيوخ ويزبدون فى لحامهم غير المرجلة يهب أحد متطرفى حزب الاحرار (الراديكاليين) ويبدء مشروع لجعل اسبوع العمل اربعين ساعة ، وكانت المعركة التى شبها حامية الوطيس وسأذكر بعض ملامحها : مواكب تسير فى الطرقات وقاتل فى الأزقة وخطباء يتخذون من صناديق الصابون منابر . ومشاعل ذوات أضواء حمراء تشعل أمام المصانع على حين تصرخ الجموع مطالبة بدماء رؤسائهم الحمراء الندية .

وأخيرا حل الاسبوع ذو الثمانى والاربعين ساعة ولكن غير مصحوب بأى دمار والآن تطالب اتحادات العمال بأسبوع الاربعين ساعة فورا مع احتمال المطالبة بتخفيضات أخرى فى الزمن فماذا الذى نصل اليه ايهما الأعز ؟ ماذا ؟ .

اننا واصلون بلا ريب الى أسبوع الأربع والعشرين ساعة على ان هذا لن يحصل فى الغد ولا فى العام القابل بل قريبا وأقرب كثيرا مما يتخيله أقدر خبرائنا .

فما الذى يستخرجه أولئك السفلة من هذه اللعبة الحقيرة ، أولئك العلماء والمهندسون أنفسهم الذين اخترعوا القنبلة الذرية أولئك الأشخاص المنحطون الفاسدون الذين لا يفتشون يأترون على اخراج الاجهزة الشيطانية التى تعين الناس على أن يزيدوا انتاجهم ويقللوا ما يستخدمون لذلك من آلات وأدوات أو طرائق الكيمياء أو الذرات فهم الذين يعملون فى الخفاء على هدم تلك الحضارة البديعة التى قام بنيانها على تلك القواعد العظيمة من قواعد الحق الخالد وعلى القول المأثور بأن المرء يجب أن يعمل بعرق جبينه وأنه يجب علينا دائما ان نرعى الفقراء أما أعداء المجتمع هؤلاء فقد نجحوا فى أن جعلوا من المتعذر على الناس ان يعملوا بعرق جبينهم بل

يجب على هؤلاء التعساء أن يضغطوا على الأزرار ويجذبوا القضبان ويقرعوا وجوه الآلات وهم أيضا يضعون نهاية للفقر بل يحيلون الطيبين من الناس الى اثرياء ، فالويل لنا .

وبزيد الويل ويلات وويلات .. ان ثلاثا من كبريات الشركات الامريكية تدفع لعمالها أجورا سنوية لاكثر من عشر سنوات ويظهر أن هذا النظام أعجب الكثيرين ، فشركة هورمل التي تتجر في الأشياء المحفوظة وشركة بروكتور وجامبل لصناعة الصابون وشركة نون بوش لصناعة الاحذية هذه الشركات الثلاث تدفع لعمالها اجورهم لا بالساعة ولا باليوم ولكن بالسنة وكما قال الرئيس روزفلت حينما أقر هذا المنهج « ان المهم هو ما يحصل عليه العامل في الحادى والثلاثين من ديسمبر » .

وعلى هدى هذه الاتجاهات تكون الساعة الحاضرة مناسبة لمطلب جديد وهو ان العمال الذين جاوزوا الخمسين يجب أن يشتغلوا ساعات أقل ولتكن عشرين ساعة فى الاسبوع وان يتقاضوا لقاء ذلك أجورا اقل تحدد للسنة واذا كان على العامل ان يزيد كسبه لتحسن معيشته فليبحث عن عمل اضافى اما فى عمله الاصلى واما فى غيره .

ولا تعط أبدا عملا لشخص يستطيع شخص أسن منه أن يقوم به بالاحسان نفسه أو بما هو أفضل .

ان هذا هو القانون الجديد الذى يجب ان يسود البلاد وانه لهو مفتاح التقدم الصحيح وانه لينتظم آخر حكمة لرجال العلم ودع العامل يهين للعمل ما يناسبه من الأشياء الأخرى فلايزيد منها على ما يجب ولا ينقص عنه .

ولا تعط أبدا عملا لرجل قسوى يستطيع أن يؤديه رجل ضعيف بالاتقان نفسه . ولا تعط أبدا عملا لرجل ذكى يستطيع أن يؤديه رجل بليد بالاجادة نفسها ، ولا تعط عملا لعامل سريع يستطيع أن ينهض به رجل بطيء . ولا تعط أبدا عملا لعقل كبير يستطيع أن يتمه عقل صغير . ولم لا ؟ .

لأن الرجال تشكو سوء الانسجام من جانبين : الاول من معالجة شئ يجاوز مقدرتهم ويبعد عن مصالحهم الحيوية ، والآخر من عمل شئ أقل كثيرا من كفايتهم ورغباتهم فخير الظروف للناس هى حينما يبذلون خير مالىديهم من جهد لفعل خير عمل يقدرون عليه لان الروح المعنوى يكون حينئذ فى ذروته وكذلك التنفيذ ونحن نحصل من مثل هؤلاء العمال خير ما فيهم ونحن نحصل حتى على أسوأ تقدير أكثر ما انفقنا من مال .

فى الايام الغابرة التى كانت الحياة فيها سهلة لا تعقيد فيها ايام

الرواد الأول من المزارعين كان الناس يعرفون حيل الانسحاب من الأعمال وكانوا يعملون بها بغير جلبة وقد اتبع هذا النظام آخر جدي وكان له أربعة أبناء فكان منذ بلغ الخمسين يزيد نصيب كل منهم من العمل مع تقدمهم في السن فكان الانتقال من عمل قليل الى عمل كثير ومن عمل كثير الى عمل ضخم حينما لينا لم يستترع نظر أحد فكان في هذا بعض الشبه بعمل الولد الشديد في القصة القديمة المعنة في القدم : بدأ الولد يحمل العجل يوم ولادته وصار يحمله كلما نما حتى انتهى به الأمر بأن كان يحمل بقرة كاملة النمو . وحينما بلغ آخر جدي السبعين من عمره كان من سادة الريف ولديه متسع من الوقت يروح ويغدو على حسب ما يملئ عليه هواه فقد حل محله الأبناء الأربعة وان لم يكن الطول كاملاً حتى في ذلك الوقت لأن أخا جدي كان لا يزال يؤدي بعض الأعمال اليومية القليلة حتى لا ينقض يده من العمل تماماً .

واتبع الحطة نفسها رصاص (١) « سباك » شيخ أعرفه معرفة تامة فقد أخبرني قبيل يوم مولده الخمسين انه سيعمل منذ هذا التاريخ ثلاثة أيام في الأسبوع وطلب الى أن أذكر هذا ولا أنساه فسألته ما العمل لو أن أنبوبة الماء تجمدت في إحدى ليالي شهر يناير في حين يكون ممتنعاً عن العمل ؟ فأعطاني ، في وقار ، اسمي رصاصين شابين يسكنان المدينة كما أعطاني رقمي تليفونيهما .

واعتماد أن يمر بمنزلي الريفي بانتظام وفي يده شبكة الصيد وعلى قدميه حذاءان عاليان من المطاط ويدل كل مظهره على أنه على أهبة قضاء يوم في صيد سمك البحيرة الماكر ، وبمرور الزمن خفض أيام العمل الى يومين ثم الى يوم واحد وكان آنئذ قد بلغ الخامسة والسبعين وصمم على التخلي عن العمل .

ثم اليكم حالة الشيخ كنتز Kuntz الذي ابتعت منه مزرعة عتيقة مملوءة بالحجارة الصلبة كان في السبعين حينما تسلمت منه الأرض فخرج على كوخ مقام على التل المجاور وأخذ يفلح حديقته في إخلاص وكان يمر به كل يوم أحد وعليه أحسن ميدعة (مريلة) له وحول عنقه قلادة من المخرم الموصل (دنتلا من الموسلين) وهو في سبيله الى الكنيسة ، وبعد ساعتين يعود سائراً بعد أن يكون قد قطع في رحلته سبعة أميال وكان يتخلى عن العمل بتدرج خفيف الى أن جاوز الثمانين وبعد وفاته وجد منفذو وصيته انه ترك ثروة طائلة وانه كان في استطاعته

(١) الرصاص الذي يعمل الرصاص .

ان يسكن المدائن الكبرى ولا يقوم بعمل ما ، ولكن لا ، ان غرائزه كانت سليمة فلم ينسحب من العمل الا تدريجا .

واخيرا اليكم رجل السجاد وان كان بعيدا عن ان يكون اقل الجماعة شأنا فقد أردت ان اشترى منه لحديقتى بعض السجاد وحاولت كثيرا - دون جدوى - ان اتصل تليفونيا به واخيرا قالت لى زوجته :
« يجب الا تطلبه فى مثل هذا الوقت المبكر وان لدى اوامر الا اجيب على التليفون الا بعد ان يستيقظ من نومه » .
« ولم هذا ؟ » .

« انه يبلغ الثالثة والثمانين أو يكاد وهو يخرج كل صباح حوالى التاسعة » .

وكنت أطلبه فى منتصف السابعة وبلااستعلام وجدته تاجر سجاد من الطراز الفاخر لانه زارع متقاعد يتوجه للعمل الساعة التاسعة ويتركه فى منتصف الرابعة وهو لا يعمل أبدا ايام السبت ولا ايام الأحد ولديه تذكرة اشتراك فى دار الاوبرا التابعة للبلدية وهو يجيد الخطابة فى الشئون العامة . نعم انه هو ايضا فى سبيل الانسحاب من العمل .

ومن أصدق نعم الثروة انها تساعدك على الانسحاب حينما يحلو لك وكم من ثرى أطال حياته ومد فى سعادته لانه بدأ يخفف عن نفسه وهو فى حوالى الخمسين ، ولقد عرفت بعض هذه الكائنات الذكية وكان أقدرهم احد المتجرين بأعمال النشر الناجحين فقبل أن يتم الخمسين استدعى اربعة من شركائه الأصاغر وطلب اليهم ان يضعوا لانفسهم برامج للعمل جديدة لانه ابتداء من ذلك التاريخ سيتقرب عن المكتب كل يوم خميس وحذرهم من أن يطلبوه بداره أو ناديه ايام الخميس الا اذا كانت النيران قد أتت على المبنى .

وسار الموظفون على هذا النحو خمس سنوات ثم أخبرهم ان يعيدوا تنظيم الاعمال ليتمكن من الانقطاع ايام الاربعاء وأيام الخميس ففعلوا ونجح الترتيب . والآن وقد شارف على الخامسة والستين فهو لا يذهب الى المكتب الا مرتين فى الاسبوع وقد يتصل بهم تليفونيا من وقت لآخر فى ساعات معروفة يشعرهم بالرقابة .

فان كنت حكيما فاتبع فى تقاعدك قاعدتين على الأقل : الاولى ان تبدأ وضع الخطة قبل حلول أجل الاعتزال بخمس سنوات على الأقل لبيان أين وكيف تعتزل العمل . والاخرى ان تتخذ حينئذ العدة للانسحاب بأرفق ما تستطيع حتى لا تغير طريقة معيشتك فى أى وقت من الأوقات تغيرا فجائيا عنيفا .

وانا اعرف ان هذه نصيحة يقصد بها بلوغ الكمال وان الوفا من الناس لا يستطيعون اتباعها لسبب ما ولكنها مثال أنموذجي رائع .
ولأقص عليك قصة امرأة فى منتهى التعقل :

هى الآن فى أخريات الأربعين وليست على استعداد للتقاعد وكانت طوال العشرين سنة الماضية تشق طريقها الى الامام فى احدى وكالات الاعلان وهى الآن رئيسة كاتبات النسخ وتلى مدير المكتب فى المركز وقد توفى زوجها منذ بضع سنين ولم يترك لها شيئا .. فهى تعيش بمجهودها وهى تحب هذا المجهود وانا اعرف السبب لانها فى اليوم الذى بدأت فيه العمل وضعت خطتها للانسحاب منه فى يسر واناة حتى لا ترتبك من أى تغيير يطرا عليها من أسبوع لاسبوع ، ولما كانت كعادتها ذكية العقل سليمة البدن فقد كانت ايضا سعيدة الجدة بما اوتيت من واسع الكفاية التى نجدها بين الكتاب غير القصصيين وهى فى تقدير ترممان Terman شخص ذو مقدرات غير اعتيادية فى الادب الجدى ، ولذلك يحتمل ان تكون مؤهلاتها اعلى من المتوسط فى ميادين أخرى تختلف بين الخمسة والعشرة عدا ، وهذه السيدة تحقق مقياسه هذا على وجه يدعو الى الاعجاب .

ففى بداية الامر اتخذت الرسم ونجحت فيه نجاحا بعث السرور الى نفسها وان كان الراجع ألا يعود عليها بربح كبير ثم تعلمت العزف على الطنبور (القيثارة) ثم تحولت الى البيانو واخيرا كانت تمرن جسدها على الألعاب الرياضية غير أن اتجاهيها الرئيسيين هما الفلاحة وتقويم الأملاك .

فهل هى مجرد هازلة؟ اذن استمع الى هذه الحقائق: حينما احترفت الرسم استتمالت احد رجال الاعمال الأثرياء ليجلس امامها وترسمه واذا كنت تعرف شيئا عن الرسم فانت تعرف ان رسام الاشخاص يجب ان يكون فى الذروة من الفن ولا تخطئ بينه وبين السيدة التى ترسم زهرتين من زهرات الأراولة أو الكرزنثيم فى ظرف قرمزي على غطاء مائدة من المخمل الأخضر .

واصر الرجل على المطالعة فى اثناء جلوسه للتصوير وقد فعل .. وعندما نظر الى لوحة الفنانة صفر ونادى أصدقائه لرؤيتها فاتفقوا جميعا على أنها خير صورة راوها له وكان الرجل قد جلس من قبل عدة مرات ليرسمه مشاهير الرسامين ، وأوصى ثلاثة من المعجبين فى الحال الرسامة الهاوية بأن ترسم صورهم .

وقد أحرزت نجاحها الكامل فى اثنتين وخمسين ساعة (لأنها تحاسب

نفسها بأحسن طريقة يتبعها مهندسو الاخراج) وفور توافر الوقت لديها تبدأ فى تنفيذ هذه الطلبات الثلاثة الجديدة .

فهل ملأها الغرور؟ كلا . انها تقول : « اف : انك تستطيع أن ترسم حتى لو بلغت التسعين وكنت مقيدا بكرسى هزاز . والجميل فى الامر انك تستطيع ان تجد متعة فى أى موضوع تعالجه » .

وهى تنظر الى الرسم كأنه ملهاة عجيبة لما بعد الستين ولكنها تنظر الى الفلاحة وتقويم الأملاك على أنها الأساسان الراسخان لحياة الراحة والهناء .

وكلما ادخرت مالا استثمرته فى قطع صغيرة من الاراضى وفى الدور وفقا للمبادئ التى تعلمتها فى تقويم الأملاك . وقد اشترت حتى اليوم منزلين ثم باعتهما بربح يكفى لمساعدتها على شراء ثلاثة أخرى اثنان منهما خاليان من الموانع والعيوب .

وهى دقيقة فى ادخار جزء من ربحها السخى ولقد بلغت حد الكفاية الذاتية ولكن بغير ثروة . وأظن أن مدخراتها بجميع أشكالها لا تقل عن ٧٠٠٠ جنيه جمعتها فى ربع قرن من الزمان ملاته بالعمل والكد ولكن مايزيد أهمية على بيضة العش هذه هو بعد نظرها وانسحابها من ميدان العمل انسحابا ثابتا بطيئا ولن تأتى عليها ساعة تنخلع فيها من نفسها ، فقد عرفت منذ طويل ما سيأتى به الزمن وما يفيقه منه وكيف تناله .
الم أقل انها امرأة عاقلة ونحن فى حاجة الى بضسعة ملايين من طرازها .

وأكثر وجوه هذا الانسحاب أهمية هو خفض المبدول من النشاط واليك قاعدة صلبة :

تجنب كل المشروعات التى يحتمل ان تضطرك الى ارهاق نفسك بين وقت وآخر واختر من الاعمال ما يمكنك دائما أن تعمله وأنت تخطو خطوك الطبيعى السهل .

وأكبر الفروق بين الشبان والشيب هو فى المقدرة على تحمل ما فوق الطاقة ، فالشبان يستطيعون ان يبذلوا فى المضمار جهدا عنيفا مفاجئا ويستطيعون أن ينهضوا بالعبء ويجروا أقدامهم أكثر مما اعتادوه اذا الجثوا الى ذلك فترة ما ، لأن لديهم احتياطا من القوى مايساعدهم على ان يحملوا نفوسهم حملا يزيد على حملها الاعتيادى مرتين ونصف مرة ، أى ان الرجل الذى يستطيع عادة ان يرفع مائة رطل يمكنه عند الطوارئ

الملحة أن يرفع من الأرض مائتين وخمسين رطلا ، وكثيرا ما رأيت حدوث هذا ، ومع ذلك فلا يزال يحيرنى قليلا ، ولقد عملت هذه التجربة بنفسى أيضا ولكن لا يستطيع ذلك أى انسان بمحض ارادته بل ينبغى أن تكون الظروف غير مألوفة وأوفقها المواقف الحرجة مواقف الحياة والموت كما يناسبها الظروف التى تهدد بخسائر فادحة .

ومن سن الخامسة عشرة الى سن الأربعين تأخذ هذه المقدرة على حمل أكثر من الطاقة تأخذ فى النقصان البطيء المحقق ، وبعد الأربعين يكون النقصان سريعا ولكن المقدرة على الاستمرار بالخطو الطبيعى تظل كما هى فهذا الخطر يهبط بمنتهى البطء حتى سن الستين ثم تزداد سرعة هبوطه قليلا . وحمل الأشياء الثقيلة فجأة بعد الخمسين قد يتلف عضوا وبخاصة القلب ، وأنا أعرف رجلا أتلّف من حياته عشرين سنة نتيجة حمل ثقل حملته ساعة اذ كان قد آوى وحده منذ عهد قريب الى مزرعة صغيرة واشترى جرارا جميلا صغيرا مع ما يلزمه من معدات وبينما هو يحرق قطعة من الأرض اختل شيء فى الجرار فاضطر الى نزع أجزاء منه ثم اعادتها والى رفع العجلات وأن يسير فى النهاية نحو ثلاثة أميال الى المدينة ليستصحب أحد مهندسى الآلات (ميكانيكى) فأجهد قلبه ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع أن يقوم الا بأخف الأعمال حول المنزل وساحته .

ان الفلاحة عمل يحتاج الى رعاية دقائقه عن كثب ومن أسهل الأشياء على الآلات أو الأدوات أو الثيران أو الخيول أن تثير متاعب لا يمكن معالجتها بغير الإرهاق الفجائى العنيف وقد يستطيع ابن العشرين أن ينهض بهذا العبء الزائد ، ولو حاوله رجل أو امرأة ممن جاوزوا الخمسين لاقتطع من عمره عقدين ، وكذلك الحال فى أنواع كثيرة أخرى من العمل .

واذا اضطلعت بعمل من هذا القبيل لاسباب تراها قوية وكافية فلا يفوتنك أن تعرف من جيرائك من يستطيعون مد يد المساعدة الحقّة حين الطوارئ .

وسأتناول فيما بعد الفرص التى تغرى المتقاعدين باستغلال المزارع الصغيرة جزءا من الوقت وهنا أرجو أن أحذرك الآن كما سأحذرك فيما بعد من الأحمال الثقيلة التى تتجاوز طاقتك . وإى عمل تعمله رتب جميع أمورك على أنك لابد منسحب منه .

وعلى وجه العموم فانى دائم التردد فى تركية الزراعة للمسنين لما تنطوى عليه من أخطار الاجهاد الطارئ على أن كثيرا من الراغبين فيها ينجحون زمنا طويلا ثم ينسبون أخطارها .

- ١٠ -

ما خير طريقة لك

ناتى الآن الى اشد المشاكل خطورة مما يواجه الناس بعد الخمسين
وهى ذات صعوبة زائدة لانها تختلف كثيرا باختلاف الشخص ولا يتيسر
فهمها الا من تحليل المرء نفسه والتنقيب فى ثناياها ولا تقنط اذا
لم تستطع ان تفهم بسرعة بعض الاشياء هنا فان الناس لا يعرفون عنها
كثيرا اذ ليس فيها قواعد بسيطة سهلة .

وقد تكون عبارة بسيطة مقصودة بذاتها مما يساعدك على المضى فى
هذه الصفحات الجافة فاحفظها عن ظهر قلب :

« ان خير طريقة لك لتجنب شروء طفولة ثانية هي ان تحتفظ
بطفولتك الاولى حية قوية » .

سيدرك كل انسان فى يوم غير بعيد ان الشكل القبيح للشيخوخة
المعروف بالطفولة الثانية لا ينشأ الا فى البائسين الذين فقدوا كل اثر
من آثار طفولتهم الاولى .

هل يحيرك هذا ؟ فكر فيه فى أثناء قراءتك التالية .

وإثناء قراءتك ارجو ان تحفظ فى باطن تفكيرك كل ما كنا نقوله
من الانسحاب من ميادين النشاط وعن الراحة وعن اعتياد الوحدة،
فهذه القواعد الأساسية لاكتساب الزواج التقاعدى هى التى تحدد الى
درجة كبيرة ما يحسن بك ان تزاوله من المشروعات أو الأعمال أو
الهوايات .

ضع كل ما تعلمه عن طبيعتك الأصلية أمام تفكيرك فقد يكون فى
هذا خلاصك . وكلما ازداد ما تقدمه الى هذه الدنيا قل ما تحتاج الى
استعارته من حياة الآخرين ، وكلما قويت حوافزك الكامنة قل اعتمادك
على الغير فى اخريات سنينك وصغر خطر ساعات الفراغ . ولقد بينا
لك من قبل ان خواصك وميولك قد تكون دفينه تحت اكوام من العادات
فرضتها عليك الدنيا واهلها ، فان موطنك الاول ، ورفاقك فى اللعب
والاعمال التى زاولتها فى مقتبل الحياة ، ورؤساءك واصدقائك . كل
شئ وكل انسان آخر ، كل اولئك قد ساهموا بنصيب فى هذا القالب
الضخم الذى صببت فيه فهل تستطيع ان تجد نفسك . ؟ ان هذا

يتوقف على قوة طبيعتك الأولى كما يتوقف على متانة القلب فان كنت رجلا تملك خمسين مليوناً مثل بن فرانكلين Ben Franklin فستشتم القلب وتحلل نفسك الى عناصرها الأولى ثم تبسدا تعيش عيشتك الطبيعية فان لم تكن مثله فماذا تكون الحال ؟

وماذا تكون الحال لو بلغت الستين دون ان تستوثق ما الذى تفعله بعد ذلك ؟ اليك قاعدة حسنة فاتبعها .

من الجلى ان ليس لديك حوافز قوية الا اذا كانت على القيام بعمل يجاوز قواك فى الستين فاذا وجب عليك ان تجسد فى احد الاركان الداخلية فى نفسك حافزا اقل قوة .

والآن قد يكون الحافز ضعيفا لانه ضعيف او لان حوافز اقوى منه اضعفته بما نسجت فى عنفوان العمر من نسيج العادات الفسيح فاذا نفذت من هذا النسيج ووجدت الحافز السابق فقد تستطيع ان تظهر امامه الطريق لينمو قويا على مستوى من النشاط متوسط او واطىء .

قابدا اذن وراجع العشرين سنة الأولى من حياتك مراجعة دقيقة ووف المراجعة حظها من الوقت لانه يحتمل ان يكون كثير من الحوادث مقبورا فى الأعماق ودون مذكرات بما تجد . وطالع الصحف القديمة وتحدث الى اصدقائك القدامى وواظب على اعمال التنقيب هذه الى ان تستخرج منها شيئا .

وربما كان حلمك فى الطفولة ان تصنع لنفسك مزلاقا تنزلق به على الجليد ولكن ابناء الستين للأسف لا يستطيعون ان يبذلوا مثل هذا الجهد واذا أمعنت فى التنقيب فقد تجد حافزا ضعيفا ولكن لا تزال به مسحة من القوة كان يراودك فى ايام الدراسة لتنشئ وتدير حانوتا لصنع الاثاث فبالآلات الحديثة التى تقلل المجهود العملى تستطيع اما ان تنشئ هذا الحانوت الآن ان كان لديك المال اللازم واما ان تجد محلا يمكنك ان تستخدم فيه المخارط والمساحل . الفارات ، والمثاقيب بضع مرات فى الاسبوع .

واستمع الى تاريخ (لولوبل) الموجز وانظر كيف ان خير سنى حياتها هى صورة منعكسة لطفولتها الأولى لا بالمعنى المفهوم عادة من هذه العبارة لانها لم تبلغ بعد طفولتها الثانية .

يقول اصدقاؤها فى الطفولة انها لما كانت طفلة صغيرة كانت تحب ان تلعب دور صاحبة متجر فكانت تغلف الحزم وتنسلم المال من العملاء فابتنى لها أبوها متجرا صغيرا فى حظيرة الخشب فملات رفوفه بأشياء

مضحكة من طعم الأسماك للأولاد إلى الروس الجديدة للعرائس القديمة
فوضع جميع أطفال الحى هذه المؤسسة تحت رعايتهم .

ولما شبت عن الطوق كانت تضع جميع هدايا عيد ميلادها وعيد
ميلاد السيد المسيح مرصوفة على الرفوف كما لو أنها تعرضها للبيع
وما زالت تغلف الحزم بدقة وذوق ، وكانت فى العطلات الأسبوعية تحب
أن تعمل فى المتاجر الكبيرة بالمدن بائنة وعندما اقتربت منها من العشرين
تأصل فى نفسها حب الهواية فأخذت تجمع تماثيل صينية وخنسازير
صينية ودمى صينية وقيلة صينية ولم تكن تبالي بزهادة ائمانها أو قبح
اشكالها بل كانت تشتري دائما بكل درهم يفيض عن حاجتها تماثيل
تصفها على الرفوف .

ثم التحقت بعمل لدى أحد المعامير فى مدينة صغيرة وتوطدت
وشائج الصداقة المتينة بينها وبين ابنة رئيسها ، لان لولوبل كانت ذات
وقار ودعة وما كان أجمل مجموعتها من التماثيل الصينية وما أبدع
تغليفها للحزم ، لقد كانت تضم عددا من الفضائل الغربية اثرت فى الفتاة
الصغيرة نفسها وأخذت زوجة الرئيس والجيران يحبون لولوبل أيضا
وكانوا يهدون اليها التماثيل ثم طلبت إحدى النساء منها أن تبيعها بعضها
وهنا تألق نجم لولوبل .

ومرت السنون تملوها السنون وفى كل شهر تزيد لولوبل مجموعتها
بعد أن تفرغت إلى تماثيل من البرونز وإلى أخشاب محفورة وإلى رسوم
صغيرة ملونة بالألوان المائية على حسب مقدرتها المالية .

ثم استدبرت الستين وأخذت تتقاضى مبلغا صغيرا سنويا من المال
كانت قد تعاقدت عليه من قبل وكان قد مات رئيس عملها وكان يسر خلفه
أن يتخلص من كاتبة سر المكتب العجوز فخرجت لولوبل إلى الحياة وهى
تتساءل كيف تتمتع بخير سنين حياتها .

وضعت مجموعتها الحبيبة من الحلى والزخارف زهيدة القيمة فى
مستودع وهى تحدث نفسها أنها ستخرجها عما قريب ولكنها تعرف فى
قرارة قلبها الصغير الحزين أنها قد لا تطبق عليها عينيها مرة أخرى وتوجهت
إلى لوس أنجلوس Los Angeles فى عربة للسائحين وقال بعض
الأصدقاء أنها تستطيع أن تعيش هناك بنفقة قليلة وأن تدفء فى شمس
الوادي الجنوبي عظامها التى بدأت تبرد فى بط .

واشتغلت بعض الوقت فى السنة الأولى التى قضتها هناك فى أحد
المخازن الفرعية ومعانها استمالت إليها كماداتها كل الناس فقد كانت فى

منتهى التعس فغيرت العمل فى السنة الثانية واشتغلت فى نهايات الأسابيع فى محل لبيع السلاسل والقلائد واعتلت منه وقضت خمسة أشهر تستعيد قواها وتعيش على ما لا يكاد يسد رمقها من الريح الضئيل المرتب لها ثم طافت تبحث عن عمل . . ومن ذا الذى يحتاج الى امرأة نحيفة لطيفة تبلغ الثالثة والستين وقد بدت الآن شبه ما تكون بالعرائس المصنوعة من فخار درسدن والتي حفظتها فى صندوقها بالمخزن والناس لا يستاجرون عرائس درسدن الفخارية .

وقضت قرابة عام تصيد الأعمال وتموت من المسغبة ففكرت فى أن تبيع لعبها وتحفها بالمزايدة وسيكون معنى هذا خاتمة المطاف .

وبزغت الشمس ذات صباح فاستقلت حافلة (أتوبيس) الى الشاطئ لتصطلي بدفئه لأنها أصبحت تشعر بالبرد فى أحيان كثيرة وغادرت الحافلة فى محطة مملوءة بحوانيت للتحف المزيفة مما تراه فى كل مصيف بحرى كبير فتوجهت الى حانوت معلق فى نافذته بطاقة مكتوب فيها : « فى حاجة الى بائعة » .

توقفت عن المسير وتطلعت الى معروضات النافذة وحملت مبهورة الأنفاس لأنها رأت فيها اثنتى عشرة دمية صينية تبسم لها وفيلا عاجيا ضخما وقد طوح بخرطومه يرحب بها ووقفت أربعة من القردة المصنوعة من الخشب الصلب على قاعدة وأخذت تضحك لها وعلى رف علوى اصطفت مجموعة من أقداح الشاي مشتاقة لخدمتها .

دلفت الى داخل الحانوت ولم تسال عن الأجر ولم تسال عن ساعات العمل واكتفت بأن قالت : « أتيت لأتسلم العمل » .

كان ذلك كانه أمر فصعد فيها الزوجان الشيخان مالكا المحل نظريهما وسبرا غورها فى لحظة . الا يدعو الى التسلية أن تستأجر عروس صينية من درسدن لتبيع عرائس صينية من درسدن ؟ !

وباجر الأسبوع الأول بعثت لولوبل تستقدم صناديقها المملوءة بتماثيل الصينى والبرونز والخشب .

ومضى عليها حتى الآن عامان كاملان وهى تبسم من خلف منضدة البيع لكل عميل كانه ملك أرسلته السماء وهى تغلف الحزم بالدقة نفسها التى كانت لها منذ ستين عاما وهى مثال للصحة لو رايتها لقلت انها تصلح لأن تعيش مائة سنة أخرى .

عادت لولوبل الى نفسها وهي ليست فى طفولتها الثانية بل انها
فى طفولتها الاولى وليسخر العلماء ما حلت لهم السخرية فلقد وحسدت
نفسها .

سيقول بعض العلماء ان لولوبل لابد ان تكون نفسها فى غاية البساطة
والا ما ارتدت الى الطفولة وهلم جرا وانى لأعجب من هذا القول .

كنت أراقب أحد عظماء الرياضيين وهو يسير سفينة شراعية صغيرة
فى بحيرة صغيرة وكان فرحه بها عظيما كأنه صبي حافى القدمين فى العاشرة
من عمره ، وكنت أراقب أحد مغنى الأوبرا وهو يمشى على يديه وينصت
الى استاذ سابق وهو ينشد أناشيد وقحة بخير تقاليد آداب المواخير ،
وكنت أراقب ضابطا كان فى وقت من الأوقات معروفا بالجرأة فى الجيش
النظامى كنت أرقبه وهو يصنع كراسى جميلة من طراز شيراتون (١) فى
مصنعه الفنى الأنيق .

ولم أكن أراقب « مثلى اللامع » الآخر لانه كان يعيش بعيدا جدا فى
واد صغير داخلى ولم اذهب اليه أبدا ولكنى كنت أراقب عملا من أعماله
واستمع الى عملاته وهو خاتمة حسنة لهذا العرض .

كان غلاما صغيرا حينما كنت فتى كبيرا وقد استهوته السيارات
وخلبت لبه وكان يعمل بستة بنسات فى الساعة كمساعد فى حوانيت
الآلات حيث يحاول جماعة من الثرثارين ان يصنعوا جهاز خيل بغير
حصان . وقد جعل منه عصر السيارة إثريا الى حد ما ، لا من أرباب
البلايين ، كلا ، ولا من أصحاب عشرات الملايين بل من ذوى المليونين
الصغيرين الوديعين ، وليس ما يستحق الذكر وراء مكتب ضريبة الدخل
كما تعلم .

ثم آن أوان اعتزال العمل والتمتع بالحياة ولكن كيف ؟ انه لم يتردد
لقد وجد الوادى الصغير الدافئ تغمره الشمس ويفشاه الأمن والسكون
فشيد بيتا متواضعا ولكنه مريح صغير مناسب للعزب الشيخ، وبنى خلفه
حانوتا صغيرا جميلا للآلات يكاد لا يزيد حجمه على حجم « المفتاح
الانجليزى » نظيفا نظافة الوليد ساعة مولده ومحشوا من الأرض الى
السقف بكل آلة يحتاج اليها فى غرضه الكبير .

وما غرضه الكبير ؟ أرجو أن تراقب بعناية فاليد أسرع من العين .

(١) Sheraton (١٧٥١ - ١٨٠٦) ينسب اليه طراز الأثاث الذى ترعرع فى انجلترا

فى نهاية القرن الثامن عشر وكان يمتاز بالبساطة والرشاقة وباحتواء القطعة منه على
أكثر من من منفعة كالأمرة النظوية .

لقد طوف بثلاث دول ، وكان كلما عثر بسيارة عتيقة عرض على مالِكها ثَمنا لها ، فكان المالك يحملق في وجهه ويعجب في قرارة نفسه ، كيف أفلت هذا المعتوه من البيمارستان ؟ ثم يختطف منه المال قبل أن يفوت الأوان وكان بطلنا يجر الحطام الذي اشتراه الى حانوته ويفتح أبوابه الخلفية على مصاريعها لتنساب منها أشعة الشمس ثم يجرد صدره وظهره من الملابس ويبدأ عمله الأكبر ولا داعي للعجلة ، وليس أمامه منبه ينبه للوقت ولا رئيس عمل يحث الحامل بل الذي كان هنا هو الحب من أول نظرة لا العمل من فضلك ! أو على الأقل ليس عملا من جنس عملك .

من الذي رجع عقارب الساعة ؟ لاننا لا نرى أمامنا الا فتى في العاشرة من عمره ، ماذا يعمل ؟ انه يساعد مستر أولدر أو السيد الشيخ في تفكيك عربة تسير بغير حصان وهو يستعير مبردا من هنري فورد Henry Ford (١) ويصنّف أثناء العمل . أقلت العمل ؟ ان ما يقوم به لا يزيد على أكل قطعة من المثلجات ان كان هذا يسمى عملا .

وليس من مساعد يعين على رفع الجزء الخلفي من الحطام الذي ابتاعه ، وليس من مساعد قوى يعين على تشغيل الصمامات التي ران عليها الصدا فهذا الفتى مكثف بذاته ، غير أنك لن تجد فتى يعمل بمثل ما يعمل به فتانا من آلات : فهناك رافعة كهربية كبדתه مائة جنيه راقبها . وما هذا ؟ مثقاب بالضغط لم يشتريه ، أيها الفتى : انك لاتستطيع أن تشتري هذه الآلة لقد أخذتها من المدير العام وقت اعتزال العمل لأنى قلت له : انى لا أريد ساعة ذهبية يقدمها لى هدية زملائي فى الإدارة القديمة ، بل قلت انى أريد هذا المثقاب فتبسم وأجاب : « ان مرضك هذا لا يرجى له شفاء ليس الامر كذلك يا جو ؟ ! »

ويعر أسبوع واذا به يدفع من الحانوت شيئا ليس هو بالسيارة العتيقة التي اشتراها وأدخلها فيه بل شيء آخر يهر ويزار واذا ضغط على الغاز أخذ هذا الشيء يقفز على تل القيامة جنوبى الحانوت كما لو كان هذا الشيء « انثى الكنغر » تبحث عن رفيقها ، ويمسح السيد ذقنه ذات الشعر ثم يبتسم ابتسامة الرب فى اليوم السابع من الخليقة ، ويسوق الشيء الى القرية ويذهب به الى حانوت دهان ويلطخ بدنه بكمية من الدهان ثم ينشر فى الصحيفة المحلية اعلانا جذابا واذا بالعربة تباع قبل أن تغادر المطبعة النسخة الأخيرة من الصحيفة .

(١) امريكى ولد سنة ١٨٦٢ ومن كبار صناع السيارات وربما كان اقنى اهل زمانه .

وفى الاسبوع الماضى باع صديق لى عربية عتيقة من طراز بيرس أرو (Pierce Arrow) يرجع الأثريون تاريخها الى ما بين عهد آخر نمر من نمرور ما قبل التاريخ المزودة بأنياب كالحراب ، وعهد أول متعهد للكتب ، وفى أحد أيام الآحاد وكان العهد به منذ يوم ونصف يوم كان أحد الناس يسوق هذا الوحش المستصلح فى الطريق وتسلق به تلا مرتفعا بسهولة لا يضارعها الا سهولة استنشاق الجدة شنكس Jenks للسعوط وباعه على رأس التل لرجل أجنبى نقدا بمبلغ ١٥٠ جنيها ، ولما كان رجلنا هذا صاحب المعجزات قد اشترى تلك الرمة بمبلغ ٢٠ جنيها فقد احتفظ بالمائة والثلاثين جنيها للمتعة .

وهم يقولون لى أنه تقل عدد القردة الى أكثر من مائة عربية فى السنوات الخمس الأخيرة وكان أعلى ثمن دفعه للعربة المهشمة ٢٠ جنيها وكان يتقاضى عادة جنيهاين لنقل المخلفات وقد يكون متوسط ما يدفعه للسيارة فى محل الحادث ٥ جنيهاً ويستطيع أى اخصائى فى حساب النفقات أن يتخيل الباقي (أما أنا فلا أستطيعه) فالمال ليس غرضاً وانما نحن نحاول ما نحاوله لنكسب الرضا وقد عاد الينا علم طبقات الأرض الست ترى وحوش ما قبل التاريخ وهى تنهب الأرض مرحا وكل ذلك لان جو ميكانيكى السيارات المتحمس فى نصف القرن الماضى لا يزال فى طفولته الاولى .

افهم هذا بوضوح . انه لم يكن فى طفولته الثانية ولن تجد له مثيلا فى حيويته وقوته فلا غمغمة ولا استسلام ولا ترديد لعبارات الاطفال كلا ياسيدى فهو رجل من أكثر رجال الدولة عملا وهو أمهر أطباء السيارات التى ذرعت الأرض .

ستقول والآن فلنعد اليك ان جو رجل محدود ولكنك مع الأسف لم تعمل - وأنت غض الالهاب - شيئا يمكن أن تعيده الى الحياة اذن فتأمل - وتمارسه ملاعبك الأولى ورياضتك فما الذى كان يسرك منها أكثر من غيره قبل أن تبلغ العشرين ، وعد بالذاكرة الى الوراء لأبعد ما تستطيع ، أكان هذا هو السباحة ؟ نعم ، ولكنها كثيراً ما تشق على رجل الستين ، أكان هو كرة القدم ؟ هى الأخرى أعنف من استطاعتك ولكن خبرنى كيف كنت تلعب كريات الرخام (البلى) لقد كنت فيها بطل حيك ثم أمسيت بطل للمدرسة وكتبت الصحف اسمك اذن جرب كريات الرخام مرة أخرى او جرب ماهو خير منها ، جرب لعبة أكثر تعقيدا تستنفد على الأقل جزءا من مهارتك التى كنت تستخدمها فى كريات الرخام .

وقد تصبح عن قريب قادرا على أن تلعب لعبة الدجاجة أو لعبة بول أو لعبة كرات العاج أو بليارد (١) أو قد تخترع لعبة جديدة كان تكون نوعا راقيا من لعبة كريات الرخام وتستثمرها ماليا ومتاعا ولكن كيفما تنمى عادات الطفولة وتهذبها فستمر من المرحلة الآلية (وربما المملة) مرحلة التكرار إلى مرحلة العمل الممتع وهكذا إلى أن تبلغ مرحلة الهواية المملوءة بالاهتمام المقرونة بالتلذذ .

ولا تعمل بنصيحة أحد في أية الهوايات تتخذ وابتحث عن الجواب في ماضيك ذاته ، وكلما أمعنت في الرجوع إلى الماضي كبرت الفائدة واني أعرف أن هذا الكلام غريب الوقع على أذنيك ومع ذلك ففيه معنى وجوب أن يعيش كل انسان على طفولته ، ففي الطفولة تجد نفسك الحقيقية وان لم تبلغ أشدك فان بلغت أشدك ضللت تحت القذائف الحامية قذائف البركان الذي يدعى « الجنس » والذي يفرق بين الذكر والانثى ولا يوجد انسان يحتفظ بحقيقة نفسه طوال هذه السنوات فما هو الا مطية قوة كونية لا تنفك تسوقه امامها ، ولكن بعد الخمسين يخفين الدافع العاطفي أو يضعف كثيرا وحينئذ يعود الانسان إلى نفسه الحقيقية مرة أخرى ويكون الآن امتدادا لما كانه قبل أن تحرقه الشهوة ولم يعد حيوانا مملوءا بالحرارة بل صار نفسه ، وستكون خير سنى حياته هي التي يستطيع أن يستخلص من طبيعته خير ما فيها .

الحياة موازنة بين عدة قوى وكلما زادت هذه القوى وعظمت قلت سيطرة الدافع الجنسي على الميدان فما قلناه الآن ينطبق حينئذ بكل وضوح وبكل تأكيد على ذوى الميول والمقدرات المتوسطة . وسنعالج مشكلة الموهوبين من الناس وسنرى في ألتوا أنه يجب عليهم أن يقوموا بالبحث عن خير عمل لخير سنى حياتهم بأسلوب مغاير كل المغايرة .

وللافادة من القانون النفساني الذي سأقوله لا يتحتم أن تكون عبقريا بل يكفي أن تكون فوق المتوسط في بعض المواهب ولتكن الرياضيات العليا أو العزف على الساكسوفون Saxophone وكلما ارتفعت عن المتوسط تجلت الظاهرة التي أسميها « التجمع » .

والخصلة القوية قلما تنفرد بنفسها ، ويظهر أنها قطب لنسيج

(١) Pool وهي تلعب على مائدة بليارد ويكون لكل لاعب كرة ذات لون يخالف كرة زميله يحاول بها ان يلقى بالكرات الاخرى بترتيب معين في ستة جيوب ويشتبك في لعبها اثنان أو أكثر .

خاص ، أو مركز لنظام شمسي ذات حجم ذري وكلما زاد نشاطها عظم جرمها واتسع حقل القوة الذي تهيمن عليه (وربما كانت هي حقلًا من حقول القوة) وهي تلزم الحصال الصغرى بالتزام أفلاكها ومداراتها تلك الحصال التي تستمد قوتها من وجودها في حقل القوة هذا وتفوق الحصال الخارجة عن هذا الحقل .

وقد تكسب بقدر ما كسبت من الأبحاث المستفيضة للويس ترمان Lewis M. Terman عن الأطفال الموهوبين والعباقرة فهذا العالم النفساني القى طوفانا من الضوء على خصائص الطفولة وبقائها حتى سنوات العمر المتأخرة ومع انه لم يكن يعنيه أثر هذه الحقائق في مسلك الناس في أوساط العمر فقد وجد أشياء ذات قيمة كبيرة لنا ، أما ما مقدار هذه القيمة فلسنا نستطيع الآن ان نقوله غير اننا نعرف انه لا يوجد حد بين واضح يفصل بين الموهوبين وغير الموهوبين فكل درجة من النشاط والمثابرة ونشر الاهتمام وسعة الاطلاع تظهر على طول هذا الحد ، وعلى ذلك لا نعدو الحق اذا افترضنا ان جميع القراء تقريبا ممن كان لهم في طفولتهم مواهب ذكاء أو غيره يستطيعون الى حد ما أن يستأنسوا باقتراحات ترمان فيما هو خير لهم أن يفعلوه بعد التقاعد ، وكذلك يمكن أن يلتقط القراء ذوو المقدرات الصغيرة في طفولتهم إشارة من هنا أو من هناك الى الطريقة التي يمكن أن تستخدم فيها هذه المقدرات .

والشخص الوحيد الذي لا يجنى شيئا من ترمان هو عديم المواهب ولكنه لم يكن يستطيع أن يبلغ في مطالعة هذا الكتاب هذه المرحلة ولذلك ليس لنا أن نشغل أنفسنا به . ولنوجز فيما يلي مكتشفات ترمان ولنبدأ بالعبقري في طفولته .

يبدى العبقري « عنادا في مواصلة الدافع والجهد ، وثقة بمقدرته وقوة خلق عظيمة » . ومع أن المهدارين كانوا كثيرا ما يقولون عنه : انه طفل متأخر عن زملائه ، فانه لم يكن كذلك قط ، ولكن يمكن أن يكون قد خلق هذا الأثر السيئ لأنه كان يختلف عن الاطفال الاعتياديين وكثيرا ما كان يعجز عن مسايرة معلمه أو رفاقه في الفصل .

ومواضع اهتمامه التي بدت في باكورة حياته تشير الى حقل كان ينتج فيه كثيرا ولكن لا على سبيل اللوام فهو دائما سريع التحول ولذلك قد تكون له في طفولته موضوعات كثيرة تسترعى عنايته ولكنها لم تجد فرصة للنمو . والراجع أنه أظهر أكثر من متوسط القدرة في ميادين قد تبلغ خمسة أو عشرة .

قرر أحد تلاميذ ترممان حقيقة غريبة اذ حلل ثلثمائة عبقرى وقاس مدى سعة اطلاعهم بحسب الميادين التي أحرزوا فيها أكبر نجاح . واليكم ثبنا صغيرا بالنسب مشحونة بالمعاني للمتقدمين في السن ذوى المواهب الأقل :

مشاهير الكتاب من غير كتاب القصص هم أوسع الجميع اطلاعا وأسهلهم تنقلا من ميدان الى ميدان وكثيرا ما يبرزون في عشرة ميادين والسياسيون والفلاسفة يشغلون المركز الثانى .

الزعماء الدينيون ورجال الأدب القديم وعلماء الكيمياء والشعراء والقصصيون ومؤلفو المسرحيات والرياضيون يشغلون المركز الثالث .

الموسيقيون : ويحتلون الصف الاخير وهم عادة دون أية طائفة أخرى وأقرب مايكونون لذوى العقول ذات الاتجاه الواحد .

انظر الى هذا نظرة شخصية وطبقه على نفسك وانت تبحث عن نشاط تقوم به بعد الخمسين لا يشغل الا جزءا من وقتك ، وقبل أن تبدأ احفظ النسب والمعادلات السابقة لأن الغالب ان الشخص ، الذى يبرز فى نوع واحد من أنواع النشاط يكون عادة أعلى من المتوسط كثيرا فى بعض وجوه نشاط أخرى ثابتة ، ولدينا هنا فيما يلى بعض مجموعات طبيعية .

تتألف اقوى مجموعة من المقدرة فى الكيمياء والرياضيات والابتكار والاعمال اليدوية .

وتتلوها فى القوة مجموعة الشعر والقصص والمسرحيات .

وتأتى فى المرتبة الثالثة من قوة الفلسفة والنظريات الاجتماعية والتاريخ واللغات .

وتتألف المجموعة الرابعة من الزعامة الدينية والسياسة والادارة .

اما الموسيقى فتقف فريدة فى ذاتها لا يتجمع حولها أية مجموعة من القوى .

والآن اصبح لديك مساعد قيم لرسم الخطة لخير سننى العمر فكيف تستخدمه ؟

ابحث عن أكثر المجموعات صلة بالمقدرات التى كنت تستخدمها فى حياتك العملية حتى سن الخمسين ثم افحص كل أنواع الاعمال التى

تشملها المجموعة واختبر منها ما تميل اليه نفسك ورجع في هذا الاختبار
الوان المقدرة التي كنت تبديها في طفولتك أو في شبابك المبكر .

وكلما برز تفوقك في مقدرة ما بإحدى المجموعات ترجح أن تجد
في هذه المجموعة التي تشتمل على تلك المقدرة شيئا عمله .

وكلما قل تفوقك قلت قائمة هذا الاختبار لك ، وإذا لم تبرز في
شيء على الإطلاق فلا تشغل نفسك بالاختبار فقد يكون ضارا بك .

وأفهم على وجه التوكيد أن ميلين مستقلين يندمجان أحدهما في
الآخر هنا أحدهما هو الميل نحو « التجمع » والآخر الميل نحو « الانتشار »
وهما على طرفي نقيض من بعض النواحي ولذا قد يلتبس عليك الأمر
بسهولة إذا ما طبقتهما على حالتك الشخصية ولذا فسأحل لك مسألة
أو مسألتين افتراضيتين :

ماذا تكون الحال إذا كنت مؤلفا ممتازا في تحرير المقالات والمسائل
التاريخية والمقالات السياسية وغيرها مما لا يدخل في التحرير
القصصي ؟ أراجع أن تكون واسع الاطلاع سريع التنقل والتحول تستطيع
في سهولة ويسر أن تنقل يدك الى وجه من وجوه النشاط الخمسة أو الأكثر
غير المترابطة ، وعلى ذلك حينما تجاوز الخامسة والخمسين يصح لك أن تجرب
كثيرا من الأشياء وتستشعر السرور والفرح بكثير منها ، فما أسعد جدك
أيها الشيطان !!

وعلى النقيض من ذلك إذا وجدت نفسك في الصف الثالث عند تحليل
مجموعة مالدك من المقدرات أي أنك من المجموعة التي تتجه ميولها
المتصلة نحو الفلسفة والنظرية الاجتماعية والتاريخ واللغات هذه المواد
التي تندمج الى حد ما في الكاتب الناجح غير القصصي ولكنها ليست وثيقة
الصلة فيما بينها ولذلك لا يدهشك أن تجد في نفسك ميلا ضعيفا للفلسفة
أو النظرية الاجتماعية وإنما أراجع أن تنجح فيهما أكثر من نجاحك في
أوجه نشاط أخرى كالعمل اليدوي والابتكار ولكنك لا تتفوق الى درجة
أن تلقى بنفسك في رحابهما حينما تنسحب من ميدان عملك الرئيسي .

وماذا إذا كنت كيميائيا ذا تاريخ طويل في البحوث الممتازة ؟ أنك
ستكون في الصف الثالث من سعة الاطلاع وسرعة التنقل بين الميادين
وسيكون معك الزعماء الدينيون ورجال الأدب القديم والشعراء والقصصيون
وقد لا تجد الا أشياء قليلة تعملها خارج دائرة الكيمياء غير أن هفوة
الأشياء القليلة محكمة الارتباط فيما بينها . فانت الاول فيما يمس مبدأ

«التجمع» ومن السهل أن تعرف السبب فالكيميائي المتين يجب أن يكون متفوقا في الرياضيات ولا بد أن تكون روح الابتكار لديه قوية أيضا لأن كثيرا من الأبحاث أغلبها حدى ووضع لخطط جديدة لمعالجة المشاكل ثم يجب أيضا أن يكون صناع اليد ولو فيما يتعلق بتركيب الآلات والعدد الجديدة في معمله .

فلا عجب إذن أن تجد من الطبيعى ومن السار أن تمارس علما جديدا أو أن تخصص فى علم الرياضيات البحث أو أن تخترع بعض الأجهزة أو تقوم ببعض الأعمال اليدوية لأن القدرة فى هذه الأشياء لا بد أنها كانت متصلة بما لديك من مهارة ككيمياوى لعدة سنوات . وبعد أن تبلغ الخامسة والخمسين تستطيع أن تنسحب الى ميادين تتطلب نشاطا أقل ولكن بالمهارة نفسها التى لازمتك طفلة حياتك .

وأخيرا فلنفترض أنك كنت تلعب دائما مع جماعة عازفى الكمان فى احدى الفرق الموسيقية الكبيرة وأنت ألفت بعض المقطوعات الجميلة للبيانو وبعض الاغانى العاطفية وتبلغ الآن سن الخامسة والخمسين وتبدأ تحس تصلبا خفيفا فى الاصابع وضعفا فى الابصار قد يصحبه ثقل طفيف فى السمع فلا تستطيع أن تستمر طويلا فى الفرقة الموسيقية فماذا تعمل ؟

إن موسيقاك لا تهديك الى أى مجال جديد لأنها فى معزل عن غيرها لا تمت بأية صلة الى أى شئ آخر فالموسيقار اما موسيقار واما غير موسيقار، هو الطرف الآخر المناقض للكيميائي فمهاراته لا تجاوز نفسها وهى تسبح طليقة ، ولذا قد يتفق أن يتفوق شخص كموسيقار ومع ذلك يكون شيئا آخر : معتوها أو رياضيا لامعا أو مجنوناً أو قديساً منحرفاً انحرافا جنسيا أو راهبا متنسكا فضوليا اجتماعيا أو محبا للفقير ، وقد يكون لسوء الحظ أيضا نابغة فى الموسيقى وعندما فى كل ما عداها فاذا ما اضطرت الى التخلّى عن الموسيقى فقد قضى على نفسه لأن عقله ذو اتجاه واحد ولا يعرف منصرفا آخر ينصرف اليه . ألم تشاهد حياتك موسيقيين تقدمت بهم السنون فأصبحوا ارواحا هائمة؟ وانت تعرف معنى هذا كله .

فما الدروس العملية التى نستخلصها مما تقدم ؟ حذار أن تشجع الاطفال على التفرغ للموسيقى واتخاذها مرتزقا فى الحياة الا اذا عملت على أن يبكروا فى تنمية مواهب أخرى قد تستحوذ عليهم فى الوقت المناسب وتحفظ من التدمير الحق شيخوختهم . اما الموسيقيون الطاعنون فى

السن فشجعهم على أن يجربوا كل شيء مرة على الأقل قبل التخلي عن الموسيقى بعد الخامسة والخمسين فقد يعثرون على شيء لم يدر في خلد أحد من قبل .

وارجو أن تذكر أن كل هذه الأقوال تبين الاحتمالات ليس إلا فلا تطبقها على نفسك تطبيقاً صارماً فقد تخفق تلك الأقوال وقد تكون أنت استثناء من الاتجاه العام ، وإلى القارئ أضيف تحذيراً خاصاً وهو أن مقدرتك المستترة ربما اختفت عن انظارك عند الزواج أو حينما تفرغتن لخدمة أبائكن وإن العادات المملة التي تكتسبونها من إدارة شئون المنزل قد تكون أخفتكن عن أنفسكن ولذا فقد تخطئن في تقدير نفوسكن . والمرأة التي تستطيع أن تفيد من هذه المبادئ المحيرة هي التي أتاحت لها الظروف معرفة ما تنطوي عليه نفسها .

فاذا تمكنت من أن تجد طفولتها الأولى فلتحيها ولتنمها حتى تهرب من الالم الوجيع الم الطفولة الثانية .

- ١١ -

ان من يبكر فى الحضور
يتأخر فى الانصراف

إذا استكثرت من الأشياء التي تبدأ بها الحياة اشتدت بك الحاجة
الى تسهيل مصاعبها بعد الستين (ولنتجاوز عن الحوادث والأوبئة)
والتبكير في الكشف عن الخواص والمزايا في الطفولة يؤدي الى تأخير
تفتحها بالزهر (ولنتناس الكوارث) .

واليكم أكثر مناحي الحياة استرعاء للنظر وهو يعيننا أجمعين على
تقرير ما نعمل في أخريات حياتنا .

فانس كل ما تعلمته وأنت غض الأهاب عن العقول والأجسام
بعد سن الأربعين وانس كل ما تعلمته منذ أكثر من عشر سنوات أو
اثنى عشرة سنة عن العقول والأجسام بعد سن الستين لان الباحثين
لم يعالجوا مشاكل الشيوخ الا في عشر السنوات الاخيرة فانهم قاموا
بأبحاث طويلة على الوالدين والاطفال والشبان ثم تناولوا أخيراً من
جاوزوا الأربعين وما أغرب ما سقطوا عليه من الحقائق الجديدة . وسأقص
عليك نبأ كشف واحد منها ولكني أرى لزاماً على أن أحدثك أولاً عن
مبدأ مسلم به من مبادئ الحياة تقوم عليه الحقيقة الجديدة ، انه مبدأ
« تنظيم الخطو » .

يأتى كل مخلوق الى هذه الحياة ومعه قسط معين من النشاط
تطلقه أجهزة غير مفهومة الا قليلا بسرعة ثابتة ثم تستجيب اليه العضلات
بسرعة ثابتة وتعمل هذه الأجهزة بما يشبه عمل منظمات الحرارة التي
تزيد ما يخرج من الحرارة اذا أخذت الحجرة في البرودة وتقلل من
الحرارة اذا ارتفعت درجتها في الحجرة أو انها تشبه الأجهزة التلقائية في
السيارات الحديثة التي تفتح أنبوبة الهواء وتزيد الوقود اذا كان المرتفع
من الارض الذي تصعده السيارة أو كان الحمل الذي تحمله يجعل السير
شاقا وتغلق الأنبوبة اذا أندفعت السيارة في منحدر ، وبالإيجاز تنظم هذه
الأجهزة سريان النشاط على حسب ما تدعو اليه حاجة الساعة وبنأ
يظل الخطو منتظما .

والآن فان جهاز تنظيم الخطو بحسن توزيع مدخرات النشاط
على مختلف أعمار الانسان فكلما تقدمت به السن كلما أبطأ هذا الخطو وهو

لا يستطيع أن يبذل مجهودا جديدا عنيقا لأنه يشق عليه وسيحل الوقت الذي لا يستطيع أن يبذل أى جهد الا بتهديد القلب تهديدا خطيرا .

ومن السهل أن ترى كيف تصطدم عادات الانسان بخطوه ويصبح هذا الاصطدام من المشاكل العصية على الحل في اعادة تنظيم الأمور بعد السنين فللعادة خطوها ونظامها واذا ما تمكنت فقد لا تتطلب من مدخر النشاط اكثر مما يسمح به الخطو ولكن المدخر يهبط بعضى السنين فيهبط الخطو غير أن العادة لا تهبط في كثير من الناس على الاقل ، وسرعان ما نجد احدى العادات القديمة تمتص نشاط الانسان بشكل خطر .

وانت تعلم ماذا يحصل . يتعلم أحد الشبان لعبة الجولف ثم يحبها فتجعله في حالة سليمة بين العشرين والثلاثين من عمره حتى اذا ما غضب معين نشاطه حوالى الاربعين ضعف خطوه قليلا ولكنه يظل يلعب الجولف كمألوف عادته فيشعر في بداية الأمر أنه يتعب قليلا ثم يضطر الى أن يجلس على الارض اذا ما وصل الى الجحر التاسع ويستريح نصف ساعة وهو يلهث انفاسه ثم يستريح مرتين او ثلاثا واخيرا يتخلى عن اللعب بعد ان يقطع نصف الشوط ، فهو أعقل من زميله الذى تتحكم في مسلكه عاداته القديمة فهذا المخلوق سيء الحظ يسوق نفسه الى الامام والى الامام في المضمار الى ان ينهار قلبه في النهاية ويقول المسئولون عن تقرير اسباب الوفاة ان الوفاة طبيعية ، ولكننا نعرف أحسن منهم لان الشئ الطبيعى الذى كان ينبغى عمله هو الابتعاد عن ميدان الجولف .

يجب على كثير من الناس ان يبدءوا بين الاربعين والخمسين في مراجعة عاداتهم - ليوائموا بين خطوهم الوثيد ومعين نشاطهم الآخذ في النضوب فعلى كل شخص ان يدرك انه لم يعد الرجل الذى كانه ولا يحق له أن يبكى ما ولى الا اذا كان يود ان يبكى ما قضاه في الحياة حتى الساعة ، فالهبوط شئ طبيعى جدا ولا يحق له أن يملأ صدره غرورا ويصيح : انه يستطيع أن يتم دورته حول ميدان الجولف بالسرعة التى كان يقطعها بها منذ ثلاثين سنة خلت فهذا القول يسمه بميسم الغفلة فان ابن الخمسين ليس ابن عشر مضافة اليها أربعون سنة بل انه حيوان آخر له نطفة وخلايا تختلف اختلافا بينا عما كان له من قبل .

كيف تستخدم قانون الحياة هذا في اختيار ما تعمل بعد السنين أظهرتك على القواعد الأولى : عدل عاداتك لتماشى خطوك الجديد وتقبلها بقبول حسن على أنك تلعب الدور المأمونة عاقبته وخذ من العطلات مائة ألف واسترخ وكن هادى البال .

كل هذا حديث معاد . فلنعرج على الجديد :

ان اية خاصة - ماعدا ما استقر منها في العضلات الكبيرة - تبكر في خطو سريع كلما كبر الاحتمال بطول بقائها ان لم يكن بسرعة الخطو نفسها فيخطو اعلی كثيرا من المتوسط العام « ان من يبكر في الحضور يتأخر في الانصراف » ونحن نستطيع ان نقول ايضا بوجه عام دون ادعاء الدقة التامة انه كلما قل مقدار النشاط اللازم لدفع التركيبات التي تتألف منها الخاصة طال الامد الذي تعمل فيه تلك الخاصة ولاحظ كيف يتفاعل هذان الاتجاهان ليربحا العضلات الكبيرة .

تستنفد العضلات الكبيرة كثيرا من النشاط ولذا تبطئ حركتها كلما اقترب المرء من الاربعين وقد تفقد كثيرا من وظائفها بعد ذلك فالذين يتعاركون او يتصارعون او يتسابقون في بطولة مائة الياردة في سبيل حصول الفائز على جائزة مالية عليهم ان يوجهوا وجههم شطر نشاط اقل عنفا قبل ان يبلغوا الاربعين بزمان طويل فان خواص العضلات مهما سمت في اول الامر لا تبقى بحالتها هذه طويلا .

وتستنفد العضلات الصغيرة قليلا من النشاط وعلى ذلك قاية زيادة طفيفة في النشاط الموجود يدفعها دفعا شديدا زمنا طويلا وبعض الخواص الذهنية الرفيعة لا تستنفد من النشاط الا قدرا ضئيلا يصعب قياسه ولذلك فهي تستمر في العمل الى ما شاء الله .

تأمل قانون « ان ما يبكر في الحضور يتأخر في الانصراف » في اوضح مجاليه اذا اظهر احد الصبية في سنته العاشرة خيالا حيا مبدا كان خليقا به ان يظهره في سن الثمانين واذا كان وهو في سن الخامسة عشرة مغنيا للأوبرا الكبيرة فقد لا يكون كذلك في سن الخمسين فان تحقيق نزوة غناء الاوبرا لا تستنفد من النشاط أكثر من جزء من الف الف جزء .

واذا اظهر احد خيالا مبدا للمرة الاولى وهو في سن العشرين فأغلب الظن أنه في سن الخمسين لا يظهره الا قليلا او لا يظهره بتاتا لان ما يتأخر في الحضور يعجل في الانصراف .

واليكم رسما رمزيا لتوضيح كل هذا وهو ليس رسما بيانيا مقيسا بمقياس خاص .

مدة حياة أي مخلوق تساوي خمسة أضعاف أو ستة أضعاف الزمن الذي يحتاج اليه للنضوج فبين الأدميين نجد بعض الناس يدركون

البلوغ حوالى السنة الخامسة عشرة على حين يدركه قليل آخرون حوالى العشرين وعلى هذا فاقل المدة المحتملة للحياة هي خمسة اضعاف الخمس عشرة سنة أى خمسة وسبعين سنة وأطولها ستة اضعاف العشرين أى مائة وعشرين سنة وعلى هذا يسهل علينا أن نضع الكثرة من ذوى السبعين بين القلة من أمثال متوشالغ (١) الذين يتعدون حد القرن من السنين وسنجد اليوم جمعا ضخما يتوسطون ذوى الثمانين وذوى المائة ، ولتسهيل الاحصاء سنتخذ المائة سنة مقياسا للحياة فالكثيرون من علماء الاحصاء يعتقدون ان المائة سنة هي فترة الحياة الحقيقية ولكننا لا نريد هنا ان نبني أقوالنا على الافتراض ولا نتخذ مقياس المائة الا كوسيلة مناسبة لشرح اشد قوانين الحياة تعقدا .

ولا ينطبق الرسم الا على خصائص لا تستهلك كثيرا من الاسعار الحرارية على مدد طويلة فانه كلما صغرت العضلات المستخدمة كلما اتبعت الخواص هذا الرسم المتخيل وهو اكثر دقة اذا وصفت الخواص بمثل الخيال المبدع وأصالة الراى .

وعند قراءتك للرسم تذكر دائما أن طول الخط يمثل مستوى المقدرة العقلية على وجه العموم وكلما طال الخط كلما ارتفع هذا المستوى .

وجعلوا منتصف جميع الخطوط رمزا على سن الخمسين لكى يتبين لك انه كلما بكر الانسان فى السير كلما رجعت كفة مقدرة وطالت مدة نشاطه .

وليس من شخص يبدأ سيره فى الحياة قبل العاشرة ولذلك لا يتصور أن يبقى احد محتفظا بنشاطه بعد التسعين وهنا يتفق الرمز مع الحقيقة .

وليس من شخص فيمن اعرف يبدأ سيره فى الأربعين ولهذا لا يعاشى الرمز الحقيقة هنا لانه لا يوجد شخص ينتهى كلية فى سن الستين الا لمرض أو حادث .

استمر « بوث تاركنجتون (٢) Booth Tarkington ، يكتب كتباً

(١) متوشالغ هو ابو سيدنا نوح وجاء فى الآية ٢٧ من الاصحاح الخامس من سفر التكوين فى العهد القديم من الانجيل فكانت كل ايام متوشالغ «تسعمائة وتسع وستين سنة» ومات وعلى ذلك طلق اسمه على كل عصر طامن فى السن .

(٢) ولد سنة ١٨٦٦ وهو من مشاهير القصاصيين الامريكيين ومن بين مؤلفاته كتابه « السيد بوكير » .

قيمة وهو في الرابعة والسبعين وبعد أن جاوز الستين أخرج ست عشرة قصة وكتب وليسام دين هاولز (١) William Dean Howells ماظنه تاركنجتون نفسه أنه خير ماكتب ماولز بالانجليزية بعد أن بلغ الثمانين وظل جيمس ويتكوم رايلي قويا (٢) - J. Whitcomb Rily بين الستين والسبعين وعمالقة المسرح الأمريكى الثلاثة في القرن الماضى وهم جوزيف جيفرسون Joesph Jefferson واوتس سكينر Otis Skinner جسون درو John Drew تألقوا في سنينهم الخضراء الكبيرة وكل هؤلاء الرجال بكروا في العمل وأظهروا مواهبهم في الشباب ونرجو بذلك أن نكون قد أوضحنا غرضنا .

واليكم كارل سيشور Carl Seashore العالم النفساني المشهور الذي أخبرني في تواضع أنه كتب ثلاثة كتب بعد أن استدبر السبعين وكان هذا منذ عشر سنوات . غير أن دليل الاشخاص في أمريكا « Who's Who in America » يبين أنه كتب خمسة في ذلك الوقت ومن الطبيعي أن يجد التذكر صعبا عليه لأنه يقوم بأعمال عدة اذ يلعب الجولف في كل ولاية من الولايات المتحدة ما عدا دلاوير Delaware منذ أن بلغ الستين ، وهو الرجل الوحيد على هذه الارض . على ما أعلم ، الذي اعتزل العمل ثلاث مرات ، ولما كنت على وشك الانتهاء من مراجعة تجارب هذا الكتاب كتب الى يقول : ان اعتزاله العمل للمرة الثالثة بدأ في ذلك الاسبوع نفسه، ولكنه أضاف يقول « لن أتالم من قلة العمل فيما أستقبل من السنوات فلدى ثبت بأعمال متأخرة يحتاج تنفيذها الى ثلاثين سنة أخرى ، »

وما هو جون ديوى John Dewey فليسوفنا الكبير الذي سيظل يؤثر في الناس عدة سنوات فهو منذ أن بلغ السبعين من عمره صنف عشرة كتب أحدها على الأقل ذو أهمية عظيمة واثنان آخران أقل منه قليلا وهو اليوم في السابعة والثمانين ويبحث الى الفينة بعد الفينة بكتاب يخطه بيده بوضوح وثبات كما كان يكتب منذ أربعين سنة .

فهؤلاء الرجال بدعوا العمل مبكرين وحينما كانوا في فتوة الشباب ولهذا فان مزاياهم تمكث الى وقت متأخر .

وليس هذا الميدان مقصورا على الرجال وحدهم بل يشركهم فيه النساء وسنذكر بعض أمثلة لهن ولا بد أن يكون أولها هو المثل الأعلى .

(١) ولد سنة ١٨٢٧م وتوفي سنة ١٩٢٠م وهو أديب أمريكي .

(٢) ولد سنة ١٨٥٢م وتوفي سنة ١٩١٦م وهو شاعر أمريكي مشهور كان كثير الاشادة

بجمال الريف وسحره .

ان المثل الأعلى ليشبه الكوكب الذى يهتدى به الملاح فى سيره فهو مهما بعدت به الشقة وطال عليه السفر لا يمكن أن يبلغ الكوكب ولكنه يصل الى نهاية رحلته فى امان ، والمثل الأعلى لا يمكن بلوغه لأنه يصف منهجا لمسلك الانسان . وعلى هذا فنحن نتخذ الدكتور ليلين مارتن Dr. Lillian J. Martin مثلا أعلى للكثيرات لا لجميع النساء طرا ، فانها أصبحت فى زمانها رائدة فى ميادين ثلاثة : الأول علم النفس الاستشارى والثانى هداية الطفولة والثالث رعاية المسنين . وبدأت حياتها العملية كيميائية وعلمت الكيمياء والعلوم العامة ثم تخلت عن هذا العمل وتوجهت الى المانيا لتدرس علم النفس وكان حين ذاك علما جديدا ذا مستقبل متوسط غير محقق ، وعادت الى الاستاذية وسرعان ما اشتركت فى الابحاث النفسية ببحوث عشرة جديدة .

واعترلت العمل فى سن الخامسة والستين ثم بدأت عملها العظيم كما بدأت معركتها التى فازت فيها بالنصر . وكانت تعتقد وتصرح بوجوب الانفصام الحاد من الماضى ومعالجة شىء جديد حتى يحافظ المرء على ليونته وعلى هذا افتتحت عيادتها الاولى للصحة العقلية للاطفال قبل دخولهم المدارس . وكانت تستغرق افكارها عوامل السن فى الصحة العقلية وكتبت أكثر من خمسة وعشرين مقالا وكتابا فيها . وفى غمرة هذه الكتابة سرت عيادتها التى أنشأتها بعد ان علت بها السن هذه العيادة التى تطبق سمعتها الافاق فى الوقت الحاضر .

وصممت على أن تحتفظ بشبابها فاستخدمت كل أنواع النشاط التى كانت معروفة فى زمانها وتعلمت فى سن الخامسة والستين كيف تستخدم الآلة الكاتبة وبعد ذلك بعشر سنين قامت برحلة حول العالم ، ولما بلغت التاسعة والسبعين ذهبت الى روسيا بغير رفيق وبغير مساعدة وقبل البدء بهذه الرحلة كانت تعلمت قيادة السيارات ، وفى سن الحادية والثمانين قامت بسياحة مدة سبعة أسابيع حول المكسيك ولم يكن معها الا ميكانيكى لمساعدتها ، وفى سن الثامنة والثمانين طافت حول جنوبى أمريكا وختمت طوافها برحلة فى نهر الأمازون .

ويقول اصداؤها : ان حياتها سارت وفق طراز الاطفال الموهوبين حسبما رسمه ترمان والذى أوجزناه فى هذا الكتاب من قبل لانها حينما كانت طفلة صغيرة كانت دائما شديدة الرغبة فى تجربة الأشياء الجديدة وكانت دائما كثيرة الحركة لا يقر لها قرار وذاتمة التطلع . وكانت سريعة الحفظ واسعة الأفق ذات مزاج عجيب وكانت

تتعلم بسرعة من مواضع اخفاقها وتظل محتفظة بشجاعتها غير آبهة
بعدد المرات التي أخفقت فيها وكانت تحب أن تجرب كل شيء مرة .
ادركتها الوفاة وهي غضة كما لو انها توفيت وقت مولدها وكانت
سنها اثنتين وتسعين سنة وكانت طوال هذه السنوات تولد صباح كل
يوم .

فيا سيداتي الفضليات هذا كوكب تهتدين به، لن تبلغنه ولكن ان
اهتديتن به فستصلن به الى مرفأ حسن . فالدكتورة مارتن كان لديها
تركة طيبة الى حد مذهش واستخدمت ما كان لديها حتى النهاية
على غير ما يفعله الكثيرون منا . وكانت كلما زاد استخدامها لها زادت
استفادتها منها .

والمثال الآخر مثال سيدة قريبة كثيرا الى قلوب العديد من القراء
وهي ليست مثلاً أعلى ولكنها مجرد مثل لامع فكونوا مثلها او خيرا منها .
في سنة ١٨٧٧ كانت فتاة في الثانية عشرة تعظ بعض رواد الطرف
الشرقي (١) للندن East End وقد أخذتهم الدهشة ، ولكن تبلغ
الفتاة الارتفاع المناسب اعملت أحد الكراسي وكانت طلاقة لسانها تحرك
أفئدة السامعين .

وفي سنة ١٩٤٥ وصلت هذه الخطيبة الى الثمانين وهي لاتزال
مملوءة بالحماسة والفصاحة واسمها ايفانجلين بوث Evangeline Booth
وهي لم تهرم كما لم يهرم جيش الخلاص الذي ترأسه (٢) وهي تقول في
ابتسامة عذبة « اني أحس اني مازلت في مقتبل العمر ولي قلب شاب
وأظن أن لدى عقلا سريع الحركة كعقل شاب ، وكانت تعترف بهذه
الوقائع وعينها تلمعان « من يبدأ مبكرا يظل يسير الى وقت متأخر ، »

حينما كان برنارد بروتش Bernard M. Baruch غلاما
صغيرا كان يحب الملاكمة وبعد ذلك بقليل أصبح ملاكما محترفا . ثم
يسير الزمن واذا بأحد المجرمين يقفز من سيارة اجرة في الشارع

(١) الطرف الشرقي او إيست اند اسم اطلق على الجزء الشرقي من مدينة لندن حيث
يقع الميناء واعمال الشحن وتقع المنطقة الصناعية ، وتسكن الطبقة الفقيرة .

(٢) جيش الخلاص منظمة دينية انشأها في لندن ويليام بوث سنة ١٨٧٧ وقد
عم نشاطه معظم العالم وأدى خدمات جليلة للفقراء واليائسين : وساعدت كاترين
بوث زوجها ويليام بوث في عمله حتى اذا توفي سنة ١٩١٢ خلفه ابنه برامول حتى
سنة ١٩٢٩ اذ تولى القيادة القائد هجرز .

الخامس Fifth Avenue الذى تظله الأشجار من جانبيه وحاول
أن يعتدى على رجل متقدم فى السن ولكن هذا الرجل المتقدم فى السن
هو الذى اعتدى على المجرم - نعم فقد كان هو بروتش .

ان من يبدأ مبكرا يظل يسير الى وقت متأخر .

والآن نستطيع أن نستخلص المفزى من هذه القصص ونعرف
كيف يمكن استخدام هذا القانون المهم من قوانين الحياة .

أتذكر ما قلته عن الطفولة الثانية ؟ احفظه جيدا ولقد استعدت
هذا القانون فى ذهنى وأنا أصوغ هذه العبارة فبينما تفكر أنت فيما تقوم
به بعد الستين عد الى طفولتك الاولى وابحث فيها عن الخواص التى
تفتحت للعمل وتناس لحظة الأشياء التى تحبها والأشياء التى تكرهها
وفكر فقط فى السنة التى اظهرت فيها طفولتك لأول مرة تلك الخواص
ثم تأمل فيما طفا على وجه الذكريات من الخواص قبل سن الثانية عشرة
- مثلا - وحاول أن تختار من بينها واحدة تصلح أساسا لحياتك بعد
الستين .

سيستولى عليك العجب .

ان الناس الذين يولدون بخواص وميول مملوءة بالحياة يجب أن
يكتسبوا ثروة أو يرثوا ثروة تقدر بمليون أو اثنين وهم فى مقتبل شبابهم
حتى يستطيعوا أن يشرعوا فى العمل فوراً وأن يحتفظوا بخطوهم الى سن
متأخرة فهذه هى الحياة المثالية وهذه هى حجتى الوحيدة التى ادافع
بها عن أصحاب الملايين .

ان المفخرة الرئيسية للثروة هى قوتها على تحريرك من صنع
ما يحتاج اليه الآخرون فتستطيع أن تصنع ماتشاء . وما أبدع كتابا يكتب
من الأثرياء الاتيين الذين يبكرون بالخروج من المأزق ويعيشون الحياة
التي يهوونها . ولو وضعته أنا لتألق معناه ولو ساءت صياغته .

ان هذا الكتاب سيتحدث عن ادوارد بيج Edward Page وقد كان
فى وقت من الأوقات تاجر أصواف غنيا أخذ يتحرك وهو فى سنواته
الخمسين فشىد داراً فخمة للكتب مع مسكن ملحق بها واستخدم عدة
مساعدین لأعمال الأبحاث ثم استقر ليقسم وقته بين ستة وجوه للنشاط
وأصبح من أكبر الناس نفوذاً فى وضع نظام لتشغيل ضعاف العقول من
الناس وفى انشاء مستشفيات للمجاذيب تشبه النوادى الريفية خالية

من القضيان والحراس وأدار مزرعة للالبان وساهم في وضع قواعد الاخلاق والواجبات التجارية لجمعية تجار نيويورك وضرب في أطراف الارض الا أن دار الكتب كانت محور اهتمامه حيث واصل دراسة المشاكل الاقتصادية وقام بين ما قام به بمساعدة أحد أبنائه ليتولى عملا اقتصاديا يتعيش منه .

ويتحدث كتابي سكريبس E.w.scripps أحد كبار قادة الصحافة الذي اتبع بدقة - منذ أن اقتنى ثروة محترمة ر القاعدة التي أوردتها هنا من وجوب الحصول على مائة ألف غطلة في الحياة . وقد كن يخرج في زورق صغير وينسى أن يبلغ مكتبه نبأ خروجه ويتغيب عنه يوما أو يومين بل ثلاثة أيام ولما احتج شركاؤه كان يقول : انه يؤدي للصحف - بالتفكير في الأمور على انفراد - عملا أفضل مما يؤديه وهو جالس في مكتب ينصت الى تخريف المخرفين وكان يسىء الظن بمن لا يعملون الا وفقا للساعات الميقاتية وبكر في اعتزال العمل على قدر ما استطاع وأخذ يزيد ما ينفقه من الزمن على الدراسات والرحلات والاجتماع بالناس الذين كان يرى أنهم يستحقون أن ينصت اليهم ، فان لم يؤيد أحد غير سكريبس المبادئ التي بين دفتي هذا الكتاب فسألتهم المساعدة من روحه وسيؤيدني بشهادته .

وسيتحدث كتابي عن قصة ثرى آخرلا يزال يدير مرصده الفلكي الخاص ويعمد بانتظام جمعيتين بتقارير قوية . وعن سيدة كانت تحترف الصحافة ثم ورثت عن زوجها منذ سنوات قليلة ثروة متواضعة فأدارت بها معملا كيمياويا صغيرا استخدمت فيه ثلاثا من النساء اللديات للعمل على حل مشكلة خاصة باللدائن لا يستطيع ان اذكرها بدقة ، ثم يتحدث الكتاب قريبا من ختامه عن ديزى Daisy .

وديزى هي مسز بوردن هاريمان Mrs. J. Borden Harriman وهي تبلغ الآن الخامسة والسبعين وهي يقظة كالقبرة الاولى في فجر يوم صائف وهل تظن أن امرأة غيرها استطاعت أن تفيد من ثروتها كما فعلت هي ؟

حينما اشرفت على السبعين عشت وزيرة لامريكا في الترويج فتعلمت الانزلاق على الجليد ولما وصلت الى الترويج كان هتلر يعمل على شق طريق له من داخلها فأصابته عصابة النازى بضربة من أشد ما أصيبوا به قبل ان تضطر الى الهرب في الغابات حيث أوشكت ان تقع فريسة للذئاب ووجد هتلر قرنا له في هذه التي كانت من قبل

باحثة في شئون الاجرام نعم فلقد كانت كذلك ولا يعلم الا القليلون انها قضت اثنتى عشرة سنة في بداية حياتها وهي تدير سجنا حكوميا للنساء في بدفورد هيلز Bedford Hills بنيويورك ولكن الكثيرين يعلمون انها في الحرب العالمية الاولى اخذت خمسمائة امرأة من نساء الصليب الاحمر الى فرنسا وظلن يقمن بعمل شاق حتى النهاية ..

وهي الآن جدة لام ولا تزال تتأهب لعمل جديد فما هو ؟ انها تعمل على تأليف عصة عالمية حول القنبلة الذرية فاكتب اليها للسؤال عن التفاصيل وهي بحسب التقويمات في سن الخامسة والسبعين ولكن بحسب حياتها هي ، في حوالى السن الحلوة سن السادسة عشرة وهي حلوة على أية حال .

وانى اطلب اليك ان تستخلص العبرة الصحيحة من هذه الامثلة اللامعة فهي تجمع بين المواهب والنشاط مع الثروة ولذا استطاع اصحابها ان يبكروا في العمل ويطلقوا اللبث وسيأتى يوم جميل يبلغ العصر الذى أوج ازدهاره لا يحتاج فيه الانسان الى العمل كثيرا لان كل انسان سيقدر على ان يشتري ما يشاء اذ ان الائمان لن ترتفع كثيرا وحينئذ يكون لنا عصر ذهبى يجعل عصر بركليز (١) عصرا نحاسيا .

(١) pericles انهو سياسى اينا ولد سنة ٤١٩ ق.م وتوفي سنة ٤٢٩ ق.م.

- ۱۲ -
استخدامها او دعی

استخدمها أودعها . اطع هذا القانون الطبيعى ولا سيما بعد
الخمسين . فهو صاحب السيطرة المطلقة على جميع العادات التى
هياتها الظروف وصاحب السيادة المحدودة ، بضيقه على الحواجز الدفينة
التى تولد معك .

وقد يحيى الانسان خاصة مولودة معه وقد ظلت خاملة خامسة
نصف العمر ولكنه بعد أن يبلغ الخمسين لن تكون له الا فرصة ضئيلة
ليبعث الى الحياة احدى العادات المألوفة ونحن الآن نتكلم عن العادة
لا الدافع الخلقى على الكلام أو الكتابة ولكن عن المهارة التامة للتكلم أمام
الحشود الكثيرة أو كتابة القصص ولا عن السرعة الطبيعية فى حفظ
التوازن والتحرر من الصداغ الذى ينتاب الواحد فى المرتفعات العالية
ولكن عن الرشاقة الفنية التى يكتسبها المهرج وهو يسير على السلك
المرخى .

وكلما طال استعمالك للأجزاء المترابطة التى تتألف منها احدى
عادات العمل اليومية الحث كالمادة على البقاء بعد أن تهملها وقد
لا تكون كاملة ولكنها تظل صالحة للاستعمال عدة سنوات وكانت هذه هى
الحال مع الرجل المريض الذى بلغ سن الثمانين والذى كان يعالجه
دكتور كارل كامب Dr. Carl D. Camp الذى كان يتخصص فى علاج
الشيخوخة وكان المريض يعيد من الذاكرة بذلاقة صفوفًا يتألف كل منها
من اثني عشر رقما حتى بعد أن يكون قد تعرض لمسائل أخرى عدة
دقائق . وقد لاحظ دكتور كامب علامات كثيرة للشيخوخة فى عيني الرجل
وجلده وعظامه . فكيف استطاع أن يحتفظ بذاكرة أعلى كثيرا من ذاكرة
الرجل الاعتيادى ؟ .

كان هذا الرجل منذ عشر سنوات يشغل وظيفة كاتب فى مخزن
لامتعة المسافرين فكان يستذكر أرقام الامتعة المتروكة كل يوم وظل
على هذه الحال أكثر من ثلاثين سنة . وتوقف عن هذا العمل فى سن
السبعين حينما تقاعد ولكن الفادة ظلت تعمل فى سر حينما بلغ
الثمانين .

راقبت شيخا فى السبعين من عمره يقوم بصنع الاثاث المزخرف

بعد ان بعد خمس سنوات عن الآلات والحايت . فبعد يوم او اثنين عاد اليه كل ما كان لديه من مهارة ودقة . ويذكر كثير من القراء خلال الحرب امثلة مذهشة لعادات ومواهب انبعثت في الشيوخ والمجانز حتى استرعت اليها انظار العمال الاحداث وفي ميناء هيونيم Hueneme تلقت عجوز تبلغ سنها قرابة الثمانين امرا سريا عاجلا لصنع مانعات سقوط (براشوت) فكان عليها ان تدبر عشرين من الفتيات الماهرات وان تعمل بنفسها ايضا . وقد كانت تعمل في سنوات نشاطها في مصنع للنسيج حيث اكتسبت حدة في النظر وخفة في الانامل وبعد ان قضت خمس عشرة سنة في خمول عادت فجأة في غضون اسبوع او اثنين الى ما كان لها من نشاط . واستطاع احد مهندسي القطارات بعد ان بلغ السادسة والسبعين ، وكان قد اعتزل العمل منذ اثنتي عشرة سنة ، استطاع ان يدير حركة تحويل القطارات وتمكن من شحن وتفريغ كميات من البضاعة اكثر مما قام به طوال حياته المديدة وكان يتم اكثر هذا العمل ايضا وسط ظلام جالك . وكانت هذه حالات مألوفة تقع كل يوم بين سنتي ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، وقد عاد مئات من الرجال والنساء الذين تجاوزوا الستين الى اعمال كان بعضها اشق كثيرا مما قاموا به من قبل . ولكنني في كل حالة استطعت تحقيقها وجدت ان العمال الناجحين كانوا يستخدمون عادات قديمة لهم في العمل .

تقول الكتب المدرسية : « ان المران يجلب الكمال » وهذا امر لا ريب فيه غير ان المران ايضا يحفظ عليك حيويته واستعدادك للعمل وعلى هذا يتفق كل من يدرسون الطبيعة البشرية وكل الاطباء والحكماء منذ جالينوس على الحكمة التي تقضي بالمران المتواصل .

لقد قال جالينوس في سنة ١٧٢ ق.م . ان العمل هو خير اطباء الطبيعة وانه لا غنى عنه للسعادة البشرية .

ويحدثني الصديق القديم راسل سميت J. Russell Smith الذي يكتب مايسميه «رقعة من تقاويم البلدان» وهو في السنة الثانية والسبعين من عمره عزرجل احترف «حرفة المرض» ماكاد يعتزل العمل اسبوعا حتى اخذ يتفحص نفسه يوميا من قمة رأسه الى اخمص قدميه : اذ كان يرى انه يتقدم في السن وان من الخير ان يفحص آلة بدنه العتيقة فقد يكون انحلال منها احد المسامير في موضع ما ، او صدئت «وردة» داخل جوفه . فكان يراقب كل طبق في كل وجبة ويتساءل امن الصواب ان ياكل هذا ؟ وهل هو في ملء لو تناول قدحا ثانيا من القهوة ؟ وكان يقيس كل خطوة

يخطوها ويتساءل اينبغي له ان يسير ميلين في مثل هذا اليوم القانظ ؟ وهل يجوز له ان يسير في العاصفة الرملية ؟ وكان يفحص لسانه ويتأمل لون وجهه ويزن جسمه يوميا ويعوده طبيبه مرتين في الشهر ويفحصه طبيب الاسنان كثيرا فساهم بماله في مخزن محل لبيع الحبوب والاقراص والمساحيق واللزقات وقطرات العيون والملاقيط والقطن الماص والفازلين والادھنة المضادة للصلع والفراجين والرشاشات .

وفي هذا الوقت كان حطاما كاملا يتفتت على رمال الزمن . ثم خف لنجدته رفاقه القدامى واخترعوا وجود ازمة في عمله القديم وتوسلوا اليه ان يذهب ويساعدهم على الخلاص منها فتوجه بطلنا معهم على الرغم منه كانه يدب نحو القبر فقد كان لا يستطيع ان يحمل نفسه واستأنف عمله القديم وهو يتوقع كل يوم ان يكون ذلك اليوم آخر ايامه على الارض .

وبعد ثمانية اشهر نراه مرة ثانية وقد غدا في صحة طيبة والحمد لله .

ويسالك هل لك ان تشرب معي كأسا من ويسكى المارتينى
الصرف ؟

واستمع الى هذا البريطاني البقظ فقد كان قبل تقاعده احد موظفي قسم تسجيل السفن التابع لشركة لويد في لندن وظل زملاؤه يمثلون حياتهم بالعمل حتى سن الخامسة والستين وحينئذ يعتزلون ويتقاضون مكافأتهم واذا بهم يتبخرون في الحال .

ويقول البريطاني : « تمطر السماء في اليوم التالي قليلا فيستيقظون ويتناولون طعام الافطار ويخرجون للسير مسافة طويلة ويظلون على هذه الحال اسبوعا او اسبوعين وفي ذات صباح ينهمر المطر مدرارا فينهضون من فراشهم ويتطلعون من النافذة ولا يخرجون للمشي . وبعد بضعة اشهر يأتي اسبوع كله مطر فيتوقفون عن الخروج ويلزمون البيت فترة ما ثم يرقدون وبعد ذلك يأتي اناس آخرون ليخرجوهم » .

لو ان هذا الكلام صدر عن شخص آخر لجاز ان يكون شعرا ولكنه صدر عن احد رجال شركة لويد وكان عمله فيها حفظ السجلات كما كان هذا عمل اصدقائه ودلت الاحصاءات التاريخية بعد اكثر من

عشر سنوات على ان الرجل العالدى صحيح البنية الذى يعتزل العمل
فى قسم السجلات بشركة لويد يموت فى سن الثالثة والستين .

وبين الفينة والفينة يغادر أحد الموظفين المعدمين العمل بها بعد أن
يتقاضى مرتب التقاعد ويذهب الى العمل فى أحد محال بناء السفن
ويطبيعة الحال تفتح هذه المؤسسات أبوابها دائما لكل رجل كان
يعمل فى قسم سجلات شركة لويد التى هى الانجيل البريطانى
لصناعة السفن وهو يخرق بهذا التصرف جميع التقاليد والمثل
الجديرة بالرجل الانجليزى المحترم ولكنه ينجح بشكل ما حتى
يحاوز الستين بكثير . وهذا يثير مسألة هل من الخير له ان يموت
رجلا محترما او يعيش وينجح رجلا حقيرا ذميا ؟

ولا تحمل كل هذا على محمل ان الناس الذين يلزمون بيوتهم اذا
امطرت السماء يموتون فى سن الثالثة والستين لانهم يلزمون بيوتهم
وقت المطر ، ولا ان الناس الذين يعملون فى محال بناء السفن يعيشون
حتى السبعين لانهم يعملون فى هذه المحال ، بل احملها على محمل ان
اولئك الذين يسمحون للمطر الشديد ان يوقفهم يحملون فى قرارة
نفوسهم بذور التحلل والذبول ، واحملها على محمل ان الذين يقومون
ببعض الاعمال بعد تقاعدهم معلوون بالحياة ومقدر لهم ان يصلوا الى
سن عالية موروقة .

اعذر من انذر . تعلم انك اذا حاولت ان تقتل الوقت قتلك فى
الوقت المناسب ، ثم تصرف وفق هذا . تعلم قانون الحياة الحديدى
الذى يقول : استخدمها او دعها ثم تصرف وفق هذا . تعلم ان الذى يعتزل
الاعمال ويتوقف عنها بتاتا سرعان ما يستقبله القبر ثم تصرف وفق
هذا ومنذ زمن طويل افهم اطباء الامراض العقلية البارزون مرضاهم
كل هذه الحقائق .

كان دكتور برنارد سكس Dr Bernard Sachs الرئيس السابق للمعهد
العالى للعلوم الطبية فى نيويورك والذى ظل يعد من أقدر علماء الامراض
العصبية فى البلاد ردحا طويلا كان يقول : « أقدم وأعمل الاشسياء التى
اعتدت أن تفعلها » ثم أضف اليها قليلا من الحيل ، وقبيل بلوغه الثمانين
من عمره كان يقول :

« واطب على العمل وواظب على التفكير وحذار ان تعول على غيرك
مالم تضطرك الظروف الى ذلك اضطرارا واحتفظ بنشاط ذهنك » .

وكان يطبق ماكان ينصح به حتى جاوز السادسة والثمانين .

ان اشد التصرفات خطرا على المرء بعد أن يتخطى الخمسين هو
أن يجلس ويقول : « انا انتهيت الآن » .

ستنتهى فى لحظة وتنتهى تماما .

وعلى ذلك نصل الى نتيجة غريبة قد يراها كثير من القراء فى بداية
الامر صعبة لأنه يوجد صنفان من المحظوظين : الصنف الأول له دافع
داخلى يحمله على أن يفعل شيئا ، والصنف الآخر عليه اكراه خارجى .
وأسوأ الجميع حظا هم أولئك الذين ليس لهم دافع داخلى ولا عليهم اكراه
خارجى وهم الذين يلزمون دورهم حينما تمطر السماء .

ان العبقريّة والفقر هما التوأمان السماويان منذ قديم الزمن
فمنذ أن خلق الإنسان والعبقريّة تمده بالحافز الداخلى على حين أن
الفقر كان هو الاكراه الخارجى الذى جعل الناس فى شغل وفى صحة .
ومن السهل الآن ان لم يكن من دواعى العصر الحديث التخيرية من
كل من يمتدح بالفقر بآية حال من الاحوال . ولكن ليس من السهل ان
نجد بديلا من الفقر لبقاء الناس احياء اصحاء الى سن متأخرة فى الحياة .

ان الفقر شر فمن ذا الذى يجروا على مدحه ؟ ولكنه قد يكون احد
الحافزين القويين وهو ينتهى بخير النتائج فى الوف من الحالات . ولست
بطبيعة الحال اتكلم عن يئسات الاستجداء التى يقضم فيها الناس
لقيمات الخبز الجاف ويدبلون الى أن يصبحوا هياكل متحركة بل اتكلم
عن الحالة المعروفة بحالة الكفاف التى لايجد فيها الناس أكثر مما يكفى
ل طعامهم وشرابهم ولباسهم ولا يفيض عن ذلك ذرة . فالكفاف لا يضعف
ضحاياهم انه يفضيهم انه يحركهم ليرتفعوا فوق الوحل ، فهو فى الصف
الثانى الذى يلى الحرب كحافز على مجيد الفعال بل انه عديل الحرب
السيئ . وقد حاول ولیم جيمس أن يجد عديلا حسنا فلم يجد لانه
مع الاسف لم يوجد .

ولقد ظن جيمس وكثير من اتباعه فى الايام الاخيرة اننا قد نجد
العديل فى بعض الحوافز الداخلية . غير ان جميع أولئك الذين شقوا
فى سبيل الاطفال والعمال والمسنين من الناس يوافقون على أن أكثر
الخلق بغض النظر عن السن أو التعلم ليس لديهم من الحافز الداخلى
على عمل شيء أكثر مما لطوب الارض . ولتيسير المسألة استرشدت

بعدد من الشركات التي وجدتها تبذل مجهودا جديا لتابعة نشاط موظفيها المتقاعدين واللىسمى وراء تحسين حالتهم فلم اسمع منها الا القصة القديمة نفسها وهي ان نحو خمسة وتسعين من كل مائة يعقدون حلقات يجلسون فيها او يلعبون لعب الصبر (وهي انواع متعددة من لعب الورق يعارسها لاعب واحد بمفرده ليقتل بها الوقت) او لعب الدام او يجلسون في الحدائق ويرقبون العالم وهو يمر بهم او يذهبون الى دور السينما او يشاهدون ألعاب كرة القدم او يقضون اوقاتهم في سفاسف مختلف الهوايات لان الآلة القديمة قد وضعت في مخزن المهملات فلا عجب اذا التحمت الاسطوانات بعضها ببعض وجفت «البطارية».

زرت احد الاخصائيين اللامعين في طب الامراض العقلية لارقبه وهو يشغل احدث نموذج للرسم الكهربى للمخ electroencephalograph وبينما انا اراقب في الحجرة الخارجية الكبرى دخل احد المرضى وجلس بجانبى وتجادبنا الحديث عن اعمال العلاج الحديثة في عيادة الطبيب .

فتوقف الرجل عن الكلام بشكل مريب بعد ان قال : « لا نريد اعمالا للعلاج بل نريد اعمالا فقط » .

وعلى كل حال فان هذا الرجل ادرك الفرق بين الاعمال الحقيقية والاعمال المفتعلة . والاعمال الأخيرة لم تقنعه تماما . ولا بد انه كان يحس احساسا آخر حينما كان تحت ضغط خارجى صحيح ، ولا بد انه تعلم كيف يحبه ولم لا ؟ انه قد يكون قد استنفد من قواه أكثر من اى شيء آخر . ان اى فاشستى من الطراز الثانى يستطيع ان يضغط كل هذا ليفسره بأنه يجب على الطبقات العليا ان تضغط وجوه الفقراء على حجر الشحذ لمصلحة المعدمين . اما اى واقعى من الطبقة الرابعة ممن يفهمون الميول الديمقراطية فيستطيع ان يجدها في معناها الحقيقى وهو انه يجب علينا ان ندرّب كل شخص ابتداء من السنة الثالثة من عمره لكى ينهض ويعمل فمثل هذا الشخص قبل ان يبلغ الستين بكثير سيكتسب محركا آليا داخليا يخرجته في اوقات المطر ان لم يرسله الى اى مصنع لبناء السفن لاوهى الاسباب .

- ١٣ -
متاعب الراحة

كثيرا ما يكون للراحة متاعب . فكل اخصائي في الامراض العقلية
الا حفنة من المتقدمين في السن يعرف حقيقة هذا البلاء الغريب فان
الراحة تنزع منا جزءا من الخشونة في بداية الامر . ونحن نستسلم
لها عند ترحيبنا بها فاذا ما طالت الراحة زاد ما تنزعه منا من خشونة
ومع الزمن تجعلنا ضعافا امام الصعاب .

ان اول خطوة نحو متاعب الراحة هي المفالة في الاستهانة
بالاشياء لا استسهال الواجبات الصعبة لان هذا فن يجب التحكم فيه
كلا بل ان الخطر ليحل حينما يترك الناس الايام والشهور تنساب في
الوحل الأسود كما فعلت « آدا » Ada .

وآدا هذه زوج مهندس سيارات شيخ يغيب عن داره ثلاثة أيام
كل أسبوع ولما كانت سنها حوالي الخامسة والخمسين كانت تجد نفسها
وحيدة معظم الوقت ولها ثلاثة اطفال شبوا عن الطوق ، ومنهم من
ذهب الى العمل ومنهم من ذهب الى المدرسة فكيف تملأ ساعات الفراغ
هذه ؟

انها تقول : « ان الوقت هو متعتى الغالية » .

وهذه عبارة طلية لان آدا ماهرة في صوغ الكلام .

وهي تقول : « بعد أن يرحل « جو » لقضاء ثلاثة أيام خارج الدار
أقضى أكثر ما أستطيع من الزمن في كل واجب ، فأجد لذة في تمديد
الاعمال حتى أبسطها . وحينما كنت فتاة صغيرة طائشة اعتدت أن أفرغ
من كنس حجرة الجلوس اليومي في ظرف عشرين دقيقة والآن مع
التمرين الطويل أمد هذا العمل الى ساعة واني أستطيع عند
الاضطرار ان أعد غذائي في نصف ساعة ولكنني أستغرق دائما في
اعداده الآن ثلاثة أضعاف هذا الوقت وعلى ذلك استطعت بالتساهل
في معالجة الأشياء أن يكون بين يدي عمل ضخم غير تام حينما يعود
جو . ومن هذا ترون اني لم أجلس ابدا بغير عمل وهذا شيء عجيب » .

واني لأعجب كيف أن « آدا » لم تدرك أنها تكشف عن جزء كبير
من روحها أسعد بها من امرأة : انها تتألم اذا عرفت أن اتفاق أكثر ما

يمكن من الوقت على كل واجب لا يقع الا من خاوى الرعوس خلى
القلوب ولما كان يفزعها ان تسائل نفسها « ما الذى أستطيع عمله
الآن ؟ » كانت تشغل يومها بساعات من العمل الصادق .

وهذه حيلة بارعة لامرأة محدودة الأفق بشكل مؤلم ولا بد ان
يدرس علماء النفس هذه الحالة عن كتب لاتبى اخشى ان يتضح انها
أوسع انتشارا مما كان يدور بخلد أى انسان . انها عنصر من عناصر
الكسل وهو شبيه برغبة المساومة التى تملك كثيرا من الباعة المتجولين
وأصحاب الحوانيت الصغيرة فى جميع أنحاء العالم فهؤلاء المساكين
يتألمون اذا دفع العميل الثمن المطلوب دون تلمر وانصرف بمشترياته
فالحوانيت اليوم خالية ساكنة والبائع الصغير عليه ان يجلس وحيدا
ساكنا ، ولكنهم لا يحبون الوقت الفارغ ، ويفضلون ان يملئوه بتوافه
صغيرة او بتوافه اقل من الصغيرة ، ولذلك يحبون ان يساوموا ويساوموا
ويساوموا ، وبذا يمر اليوم ، وبذا تنقضى الحياة .

ولو اننا استطعنا ان نخترق الأقنعة التى تخفى العمال فى جميع
اطراف الارض لوجدنا بكل تأكيد ملايين يضيعون الوقت سدى فى أعمالهم
لا ابتغاء خديعة رؤسائهم ، ولا لان أعمالهم شاقة ، ولا لانهم متعبون ، ولكن
لرغبتهم فى شغل وقتهم فهم لا يجرون على التكاسل ولا يجرون على ان
يتطلعوا من مناضد العمل ليروا انفسهم فقط وان ما سماه ثورو
Thoreau (١) باليأس الهادى حمل الناس على التريق من أعمالهم
فالوقت بالنسبة لهم ليس متاعا ولكنه ضرورة مرة ، يتخذون منه
سترا يحجبهم عن انفسهم وهذه هى حالة «آدا» ولكنها لن تسلم
بهذه الحقيقة .

وقد وضعنا الخطط للتخفيف من الاعمال الشاقة فابتكرنا
الأجهزة التى تقتصد فى مقدار العمل المبذول وحسنا من العمل الجماعى
وأصاليب الحوانيت الى الدرجة التى أصبحنا ننتج فيها الآن من
المصنوعات فى الساعة مايزيد على ماينتجه اية أمة أخرى فى العالم من
ثلاثة أضعاف الى عشرين ضعفا ثم ماذا بعد ذلك ؟ انا نشعر بالسأم
وهذه هى متاعب الراحة وبعضنا يكتفى بالجلوس وتسريح الطرف
والبعض يصنعون لعبا من الورق والبعض يؤثرون الرقود حتى يأخذهم

(١) ولد سنة ١٨١٧ وتوفي سنة ١٨٦٢ وكان أحد العلماء الطبيعيين الأمريكين وعاش
بعزل عن الناس .

الموت والبعض يترسم خطأ «آدا» فيستنفد ساعة لأداء عمل يستغرق دقيقة واحدة فالوقت متاعهم الاول وسرعان ما يصبح سماً لهم .

وقد سألت إحدى المجلات منذ عهد قريب الوفا من قرائها كيف يقضون وقت فراغهم .

فأجاب البعض في المطالعة وقال آخرون : في أعمال الزخرفة وصنع الملابس ، وقال البعض الآخر أنه يقضيه في دور السينما ويتفرج على الألعاب الرياضية ويستمتع الى الراديو ، ولم يذكر المحررون ان الغالبية العظمى من هؤلاء القراء في سن مابين العشرين والاربعين أى انهم في شبابهم الغض ولكنهم مع ذلك يستخدمون أوقاتهم الحرة وهم يقعون على أذنانهم الصغيرة الجميلة والنشاط الوحيد بغض النظر عن نشاط العين والاذن هو اشتغال أصابع الإنسان بالآلة وهي تشكل دمية أو تصلح جلباباً للحفلات .

ان الألعاب الرياضية والمسرات السلبية قد أحاطت بالعقول وأوهنت الاجسام فى كل مكان ولم تحدث الكوليرا والطاعون الدمل من التخريب أسوأ من متاعب الراحة . ان أحد علماء الأحياء الذى يابى على ذكر اسمه قد أخبرنى أن هذه الملايين من القاعدين لا بد أن تكون من معدن أخط وهم كما يقول ، من بيثة مهجنة فليس لانسان سليم القوى ولا سيما اذا كان بين العشرين والاربعين ان يقنع بالجلوس ويعمل مرتاح البال . والمخلوقات التى تؤثر هذا فى حداتها انها تكون بلا شك اجساماً منخطة .

ويقول أيضا ان الشخص السليم البنية الطيب الارومة يسلك مسلماً أقرب مايكون الى الرجل الذى أعجب به ذلك الذى اعتزل فى باكورة الحياة من فوضى الحرب ، فذهب ليعيش فى ضسيسة بفرجينيا وبعد بضع سنوات قضاها هناك بدأ يحزر الى أصدقائه خطابات حزينة لأنه اعتقد أن حياته قد انتهت .

وهو لايفتا يذكر انهياره القريب .

عندئذ بدت علامات الحرب ونذرهما فى أوربا وطلب الجيش اليه أن يعود فقبل وادى واجبه على الوجه الحسن وحاز ثقة بعض الذين بيدهم الامر حتى كسبوا الحرب واعتزل الخدمة محرزا شرفا رفيعا وهو فى الثامنة والخمسين من عمره .

وسرعان ما بدأ يثن من جديد من حالته المحزنة وقد قال في أحد خطاباته : انى انحدر من فوق الجبل وانتوقع قريبا أن أدفن حيا في مساكن آبائى واستولت عليه نوبة غامرة ويئس أهله وأطبائوه من أمره ولكن بعد سنوات أخرى شبت الحرب الثانية وكانت أشد فظاعة من الأولى وأخيرا تقدم اليه الجيش فقبل أن يستأنف القيادة وبوحى من الغريزة الحيوانية السليمة وعلى رغم « قرب انهياره » الذى بدأ من سنوات عدة فقد أجاد وأحسن عملا .

ولمت عين محدثى .

فقلت له : « يجب على ان القاه لأحصل منه على ما يصلح لهذا الكتاب فأين أجده ؟ » .

وقال عالم الاحياء انه لا يرغب فى الكلام انه جورج واشنطنجتون كما تعلم وهو رئيس الولايات المتحدة .

وارى لزاما على ان اذكر قصته فى كتابى هذا على أية حال .

أجل ان هنا مكانه لانه حاول ان يوقف استخدام خير ما فيه مرة ومثنى وثلاث فخلدته متاعب الراحة .

ان حياة الراحة التى عاشها فى ضيعته الجميلة أشاعت السم فى عقله وبدنه جميعا أو كأنه فى العمل وحده يخلص جسمه من ادران السم .

ففى السن التى اعتزل فيها معظم اترابه العمل تولى هو اعظم أمجاده .

(فليس فى وسعنا أن نكون مثله لانه كان عبقرى) : هكذا قال اترابه القاعدون وانى أجيبهم بأن عبقريته لا تزيد على عبقريتكم . ففى الواقع أنه رجل أعمال مكافح ولكنه كان حيوانا ممتلئا صحة ، وتمرد على الراحة ، .

والرجل ذو الصحة الطيبة يعمل ليعيش وقد سميته رجلا سعيدا من آحاد الناس ، وقد كان واشنطنجتون محاربا فى زمن الحرب وقد أخبركم أن الحرب ليس لها من عدل الا الفقر فيما أعلم والناس يحسنون غاية الاحسان فى عملهم فى وقت الخطر . واذن فليكن السؤال هكذا . كيف نجد الخطر الواجب الذى يوصل الى أحسن النتائج ؟

هل لنا أن نقبل أقدم الاخطار وهو خطر الموت جوعا ؟ هل نواجه خطر
العبودية والموت في ميدان القتال ؟

انه لا داعي لذلك اذا وجدنا بديلا اقل مشقة .

وحتى الآن لم أجد بديلا صالحا ، ويلوح لى ان خير بديل لا يتفق
إلا مع أنواع معينة من العمل وهى :

① مزاولة عمل لمجرد الرياضة البدنية .

② مزاولة عمل للنهوض بالتبعات .

③ مزاولة عمل لشفاء الاوجاع أو تخفيفها أو الوقاية منها .

④ مزاولة عمل تحت نظام عسكري .

⑤ مزاولة عمل بدافع يثير حماسة العامل .

ولنلق نظرة على كل منها .

ان للرياضة البدنية أثرا مدهشا في حياة الوف الناس فلا تقلل
من شأنها ولكن حاذر من سوء استخدامها فبعد الستين تناول منها
جرعات قليلة وادخل في حسابك الاستجابة البطيئة بعد الشيخوخة
ولا تغفل أثر الارهاق ، وبعد ذلك سر فيها بما يشبع رغبتك .

قد تملأ التبعات خير سنى الحياة لآلوف آخرين بما يدعو للاعجاب
ولكن بشرط واحد هو أن المتقدمين في السن الذين يتحملونها يجب أن
يكونوا تعلموا كيف يحافظون على هدوئهم وثباتهم فان الرجل الوسط
يجد الموت المحقق فى كثير من الالتزامات التى لا يستطيع أن ينهض بها
أما التى يستطيعها فيقل عددها كلما علت به السن فيجب أن يتحرر
من جميع هذه الواجبات المتلاحقة .

والقيام بالتبعات قياما حسنا يجب أن يكون المرء كفاً لها من كل
ناحية كما ينبغي له أيضا أن يحبها ولو قليلا على الأقل وفي قياس كفايتك
لتحمل احدى التبعات استعن بالقواعد القديمة نفسها التى أسلفنا
تكرارها والتى سنكررها مرة أخرى، يجب أن تدخل فى حسابك الحركات
المفاجئة ، والارهاق فحذار من أن تضطلع بعمل قد تجد نفسك فيه
وحيدا ، أو تجد انه واجب مخصص لرجلين أو أن تجد نفسك وقعت
فى شرك لا تستطيع الفكك منه .

واسعد الناس رجل عليه تبعات يحبها ويستطيع أن ينهض بها على وجه حسن .

واسعد الناس رجل عليه تبعات يحبها ويستطيع أن يعالجها علاجاً مقبولا ولو يبذل بعض الجهد العنيف واقل منه سعادة هو ذلك الرجل الذي عليه تبعات يكرهها ولو انه ينهض بها بمهارة .

والتعس هو الذي يكره تبعاته ويخفق في النهوض بها و^{اتعسر} الجميع هو الخالي من التبعات والمجرد عن الرغبات المرتبطة بالتبعات التي قد يضطلع بها .

ان الارتجال في توزيع الاعمال على جميع صفوف الناس الذين ينسحبون من ميادين العمل بعد الخمسين أمر غير ميسور لان كل توزيع يجب أن يراعى فيه الذكاء والخبرة والمزاج والعادات الخلقية لكل فرد ولذلك تقع هذه المسألة بتمامها خارج المحيط العام ولن تنجح حكومة تضع برنامجا يفرض على الجمهور واجبات ولو خفيفة .

اذا لم يجد شخص تبعاته الخاصة فمن نحن حتى نرشده اليها؟
اننا لانستطيع أن نرشده الا الى تبعاتنا لا الى تبعاته هو .

وابسط تبعات الانسان هي ما كان منصبا على ذاته اذ ان عليه أن يرعى صحة جسمه وعقله رعاية دائمة وأن يخصص لهما ما يحتاجان اليه من وقت ونشاط فاذا احتاج الى قدر منهما يزيد على المألوف تدخلنا في واجبات اخرى ، وربما اصبحتا لعنة واذا لم يحتاجا الى رعاية نفضا المسؤولية عن صاحبها الى هذا الحد الذي قد تنشأ عنه مسئوليات اعظم لان لهذا الموضوع متوسطا ذهبيا وسأدع صديقا لي يشرحه لك .

لقد اعترضت طريقه وهو في سبيله الى لعب الجولف .

فسأله : « كيف تستطيع أن تلعب هذه اللعبة ؟ » .

فأجاب « بقروح المعدة والربو » وقد قرن هذا القول وهو يطوح بيده في الهواء كانه يمارس اللعبة فعلا .

فأجبتة : « انى لم اجربها في لعب الجولف ولكنى جربتة مرة بقلب من الدرجة الدنيا فلم اشعر بلذة فهل تظن انى استطيع أن استبدل به قروح معدة وربو ؟ »

فاجب هذا جائز .

قبل ان تواصل سيرك لابد ان تخبرنى ان هذين المرضين
يساعدانك على مزاوله الجولف .

انهما يشبهان اشارات المرور الضوئية فهما الاضواء الحمراء فى
مرور الحياة فقد اصبحت بقروح المدة منذ اربعين سنة وبالربو منذ
ثمانى عشرة ، وكلاهما امر كثير المضايقة وكان واجبا على ان اعنى
بصحتى على الدوام وماكان لى ان اهتم شيئا وانى لاعزو الفضل فيما
اتمتع به الآن من صحة جيدة اليهما .

ان الناس ذوى الصحة التامة غير محظوظين الا فى السنوات الاولى
من حياتهم لانهم لم يجدوا من قبل فرصة مواتية يكتسبون فيها عادات
وحلرا وعناية ذاتية وعلى ذلك يجدون انفسهم فى اخريات حياتهم غير
مستعدين لمواجهة التغيرات والمصاعب اما الالوف الذين يعدون انفسهم
اقل حظا فهم فى حقيقة الامر اسعد حظا لانهم اطلالوا حياتهم وتمتعوا
بخير سنيها نتيجة لعادات كثيرة صارمة فى المحافظة على ابصارهم
ورئائهم وحلوقهم وجيوبهم الانفية او قلوبهم او امعائهم او اقدامهم
وهذا المرض لم يفت نظر الطبيب .

ما عدد من ماتوا فى مقتبل الحياة او عاشوا ارذل العمر لكونهم
كانوا يشكون من حالة صحية مستعصية الشفاء ؟ انى اطلقت عليه
اسما طبيا حسنا ، فاسلم الناس صحة هو من عرفته فى شاب تتمثل
فيه الصحة التامة فيبدو كأنه صورة مما نراها فى معاهد الطب وكان
يحصل بانتظام على اجر صغير لقاء عرض اسنانه على طلبة عيادات
الاسنان ، فتأخذهم الدهشة لان اسنانه كانت هى مجموعة الاسنان
التى لا عيب فيها وفى سن الاربعين بدأ يذوى ، وفى الخمسين كان تعسا
متهدما ، ولا يقوى حتى على تحمل وعكة برد فكانت تنقصه جميع العادات
اللازمة للعناية بنفسه ، ان من الرشاقة أن تكون كاملا .

فمزاوله عمل تحت نظام عسكري اليوم هو عمل غير عادى ولكنه
كثيرا ماكان يكره عليه الناس فيما مضى فالفاشيون والنازيون احيوه فى
مظهر عظيم ويمكنك ان تتخيله فى بعض مظاهره القاسية حيث يكتسب
الرجال صحة يفتصبون بها سلطة يأمرؤن بها المسنين من الناس ليقضوا
فى العمل ماين ساعة وأربع ساعات يوميا فى مصانع شعبية والا أعدموا

رميا بالرصاص في شروق الشمس فهل نحن في حاجة لنضيق بعض وقتنا في مثل هذه الاشياء ؟ انى لا اظن ذلك ولكن دعنا نسجلها كأمر محتمل الوقوع .

ومزاولة عمل بدافع يثير حماسة العامل هو على الأرجح لا يستسيغه الا القليلون ، وربما لم يزد على اثنين او ثلاثة في كل مائة شخص ممن جاوزوا الخمسين فكلما زادت أعمار الناس - كما تعلم - فهم يكبرون ويزدادون كبرا . انهم يفقدون اللذة في معظم القضايا ويفعلون ما طاب لهم وهو قليل - عادة على أن بعض القضايا أيضا تنهك قواهم فان التطواف والتحدث الى الناس والقاء الخطب وإدارة أعمال المكافحة وقيادة صفوف العرض لهن واجبات الفتيان الحشنتين .

ومع ذلك فاني أعتقد انه سيزداد زيادة بطيئة عدد الناس الذين يخصصون خير سنى حياتهم الى هذه القضايا فيستطيعون ان ينهضوا بها دون أن يبذلوا جهدا كبيرا بغير داع .

وسيجد شيوخنا في مشاكل مجتمع شبابنا واجبات كثيرة لا يحسن القيام بها الا بأنفسهم ، فقد يستولى على شيوخنا الفضب عندما يفشل الشبان في تحسين المدارس ، ومكافحة جرائم الأحداث واغلاق الاصلاحيات والسجون التي لا فائدة منها وتبصير الشبيبة بالآثار العامة للبلوغ وسيرشعون في دائرة أعمالهم الطبيعية ويضطلعون بها .

وستتكم عن هذا بشيء من الاطناب فيما بعد .

على الانسان أن يسير العالم وهو في عنفوان حياته لانه اذا ما بدا
أن ينسحب من ميدان العمل بعد بلوغه سن الخمسين صار مهددا بخطر
التخلف عنه فقد يأتي عليه حين من الدهر يجلس بلا حراك ويرقب
العالم وهو يسير بسرعة مضطربة وبحلول عهد الذرة قد يسبق أكثرنا
سرعة وان كان قد سبق البعض فعلا الا ان بيننا من يستطيعون
اللاحاق به .

والخطر الذي يواجهه الرجل المتقاعد الطواف على فرس هو
الاصطدام على الطريق العام خلال ساعات اشتداد الحركة بسيارة قوية
انه الخطر الذي يواجهه رجل يرمى العدو بالقوس والرمح ويرد عليه
العدو بالمدفع الرشاش وانه الخطر الذي يواجهه رجل ينادى على اناس
يعدون عنه ميلين على حين يستخدم الآخرون التليفون اللاسلكي
«السائر الحاكي» والمخربات القديمة (الدانتله) - ذات سحر اذا
ما وضعت في موضعها الصحيح وهو وقت الاصيل في دور فضليات
العجائز ولكنها تفسد هندام السيدة العصرية التي ترتدى السراويل
القصيرة وتحاول أن تسابق جيرانها . والخروج على المألوف في الزى
لا ضرر منه اذا ما اقتصر على المظاهر ولكن الخروج على المألوف بالتزام
العتيق من الافكار والعادات والنتديات واللغات والمسالك والاعمال
يجعل الانسان عاجزا عن المنافسة .

وهذا هو خطر التقاعد الدائم التهديد وكلما عجل المتقاعد بمواجهته
والاستعداد له عاد ذلك عليه بالخير ، وقد يعتزل احد الاطباء العمل
وهو شديد التصميم على أن يقضى يوما على الاقل كل أسبوع في بعض
الابحاث أو مزاولة الطب في عيادة خاصة باحدى المدن الكبيرة القريبة
فماذا تكون الحال اذا لم يكن قد استعمل البنسلين في حياته ؟ والآن
وهو يقضى في العمل جزءا من الزمن فهل يحسن صنعا لو استمر
بطريقته القديمة المتينة؟ وهل يرفض أن يستخدم البنسلين؟ واذا استدعى
لحالة طارئة الى مكان لا يمكن الوصول اليه الا بالطائرة وكانت توجد
وسيلة الطائرات ويستطيع بها أن يصل في ظرف نصف ساعة فهل
يصر على استخدام عربته القديمة ويعرج بها ساعات حول الطرق الجبلية
ويكون المريض قد قضى نحبه ؟ ان كثيرا من الاطباء الناشئين يحملون في

عرباتهم التليفون السائر الحاكي (وتركب الآن بناء على أمر الطب في جسم السيارات تليفونات بالراديو) فيتحدثون مع المرضى ومع غيرهم من الأطباء ومع ممرضى (المستشفيات) ومع الصيادلة على حسب ماتدعوا اليه الحاجة فهل يسخر طبيبنا المتقاعد من هذه المستحدثات الطريفة ؟ وهل يظل بعيدا عن الاتصال بالعالم وهو يطوف بسيارته أربع ساعات في الطرق الجبلية المتتوية ؟. اذا رأى ذلك فسرعان ما يضعه على الرفق - وبغير رفق - الاناس المتعجرفون الذين لا يستطيعون أن يتحملوا وسائل ما قبل العصر الذرى .

والحق الصراح ان المتقاعدين اولى الناس بالجد والعمل الحثيث لتساير معلوماتهم الزمن وانهم يستطيعون أن يزيدوا قواهم الانتاجية زيادة كبيرة بأن يحافظوا على سبق الشبان خطوة أو خطوتين وان يتموا في الوقت ذاته في الساعة الواحدة ضعف ما يتمه الشبان في ساعتين أو ثلاثة اضعاف ذلك ، فالاعمال الفنية هي اعظم ماينعم به الرجل المتقاعد لانها تقلل الزمن والجهد في جميع الاعمال كما انها تقوم بعمل اشياء جديدة عدة لا يستطيع احد القيام بها بغير أجهزة خاصة والناس الذين يتمتعون بالقوة البدنية يستطيعون أيضا أن يقاوموا ، ويقطعون الطريق في بضع غير أن الرجال والنساء الذين يرغبون أن يستخدموا كل ما اوتوا من قوة الى أكبر حد ممكن عليهم أن يسخروا الابتكارات والاساليب الحديثة .

يجب عليك بعد الخمسين أن تسبق زمانك بأكثر ما يمكن من المهارة والدقة وتمعن كثيرا في الملحوظة المدهشة التي ابداهها تشارلز كترنج الذى اذهل - وهو فى السبعين من عمره - بعض أصدقائه بما أبدى من تعمق شديد فى مشكلات علمية لم يستطع مائة رجل ان يحلوها فى مدى حياة كل منهم .

« لم لا اهتم بالمستقبل مع انى سأعيش فيه ؟ » .

نعم كلنا نعيش فى المستقبل حتى أولئك الذين يحبون أن يعيشوا فى الماضى لانهم عليهم ان يواجهوا الدقيقة التالية وعليهم ان يعملوا اذهانهم هل عليهم ان يحملوا المظلة أو لا ؟ وعليهم ان يدفعوا الديون المستحقة فى اول الشهر التالى وعليهم فوق كل شيء ان يجدوا الوسائل لاداء الاعمال وكثيرا ما يكون ذلك على حساب قوى بدنية آخذة فى التدهور .

« ان المستقبل للشبان » ما ايسر أن تتقبل هذا القول المأثور وما أصعب أن نتجنب المغالطة في الاستنتاج بان المسنين لامل لهم في المستقبل . ومن الحقيقة الواضحة ان المسنين يحولون دفة الأمور الى الشبان ولكن ليس معنى هذا انهم قد تجاهلوا أو أغفلوا القدر ، ان كل امرئ يملك الغد كما يملك الغد كل امرئ .

وعلى مر الزمان سيدخل العلماء تحسينات على النصف الثاني من عمر الانسان تفوق كثيرا ما أصاب النصف الاول منها ، فمن قبل قد فعلوا الكثير للأطفال ولكن الابحاث التي اختصت امراض الانهيار والشيخوخة والاحتفاظ بالحياة الى امد طويل كانت مطردة الازدياد وقد ظهرت نتائجها فعلا وقد اثار دهشة البعض واعلن قليل من العلماء الشجعان في السنوات العشر الأخيرة انه لا يمضي وقت طويل حتى يتمتع الوف الناس في حياتهم بصحة جيدة قبل نهاية هذا القرن بوقت طويل .

وسيحافظ الرجل الذكي بعد الخمسين على صلاته بجميع هذه التحسينات - وسيستخدمها ايضا وبذلك سيكون قادرا على ان ينجز اعماله بنشاط ولهفة ولكن على ان يضيف الى ما يفعله شيئا واحدا اذا شاء ان يأتي في سنيه بأعظم عمل فليزرع من عقله عهد الطفولة وايام الدراسة ومباهج الحلقة الثالثة وضجيج الحلقة الرابعة وان ينزع كل شيء ماعدا المستقبل ويجب عليه ان يوجه انتباهه واهتمامه الى المستقبل الذي سيعيش فيه والذي يرجو ان ينجح .

لماذا ؟

كان بودي ان يستطيع ان ادلى بجواب واف معتدل ولكن ذلك ليس في قدرة احد وان كانت الحقيقة مؤكدة وصلدة وعميقة فأكسير الشباب يحوم دائما حول الركن الثاني وهو في قنينة نمد يدنا اليها دائما ولكننا لا نستطيع ان نقبض عليها . انها قنينة مكتوب على بطاقتها ماذا بعد ذلك ؟

وفي اللحظة التي يواجه فيها الرجل ساعته التالية ويهاجم مشاكلها فهو يشكل كل جسده وعقله بشكل يستطيع ان أصفه بوجه عام في أضعف عبارة لانها أضعف من أن تعبر عنها لغة فهو يصمم ويستعد ويذهب . ان التحفز للوثوب يطلق في بعض الاحيان نشاطا

ضخما من ناحية ما على قمة الجهاز العصبي فان مجرد التأهب والتوجه ينشط كل غدة وكل عضلة وكل عضو فكيف ذلك ؟

ما اقل ما يعرفه الانسان .

والمحقق الذى نعرفه بطبيعة الحال هو أنك اذا واجهت الماضى فانك لن تستطيع استخدام عضلاتك بحالتها الطبيعية هذا اذا استطعت أن تستخدمها بوجه من الوجوه وافضل ان تستخدمها فيما خلقت له ، وبعبارة أخرى ان تطلعك الى الوراء يكون امرا مشوبا بالنقص لانه فيه تحيز لايشمل الا المخ وحده وقد اعدت المخلوقات لتساير ما حولها فهم يغيرون انفسهم ليتمشوا مع ما حولهم وهذا يتطلب العمل والعمل عبارة عن الحركة والحركة من عمل العضلة .

وتوجد الآن حقيقة غريبة تذكر عن العضلة فعلماء وظائف الاعضاء يعرفونها من قديم ، وان كان لايسمع فيها الا واحد من بين كل الف لم يفهمها الا اقل من ذلك واني سأخاطر بأن أحاول شرحها فكل نسيج عضلي يعمل كأنه محطة ثانوية للقلب وانه بين اشباع أخرى يكون بمثابة مضخة صغيرة وان عمل هذه المضخة يساعد القلب على النهوض بالعبء الضخم المستمر ليدفع الدم الى اصغر اجزاء الجسم . وهذا للنظرة الاولى لايعنى كثيرا اليس الامر كذلك ؟ جل بنظرك بعيدا او اطل التفكير .

فالنسيج العضلي ينكمش ويطرد ما به من دم الى خط السير الذى ينتهى الى اطراف الجسم حيث تعيده الى القلب أنسجة عضلات أخرى هناك وفى غير هذا الوقت يظل نسيج العضل ساكنا اما مسترخيا او متوترا على حسب الاحوال ثم لا يدفع الدم وبذا ينتقل عبء دفع الدم الى مكان آخر وقد تقع على أنسجة أخرى ولكن اذا كان عدد كبير منها فى فترة الراحة أيضا او فى فترة التوتر فان العبء يقع على القلب وليس هذا كل شيء فالدم يظل ينفث سموما . وقد أثبت مناقشات كثيرة عما تكون هذه السموم وكيف تؤثر فى الجسم ولسنا فى حاجة الى التدخل فى هذا القرار المزعج لان حقيقة التسمم ليست مثار نزاع ومهما كان فعل السموم فهو على الاقل يبطىء كثيرا فى مد وظائف الحياة او يحول دونها .

من أهم اكتشافات ربع القرن الماضى هو «الراحة مرض» ، واني لأتمثل العبارة البارة التى قالها «بادمان» ان جميع طرق علاج المرضى قد أعيد النظر فيها نتيجة لهذا الاكتشاف وقد أصبح الآن خير ما يتبعه

الوف الاطباء ان يرغبوا المرضى على التحرك مبكرين ما استطاعوا دون ان يصيبهم ضرر وجروح المرضى الذين يجلسون أو يقفون على اقدامهم أو الذين يسرون قليلا بعد انقضاء ساعات أو على الاكثر يوم أو يومين تلتئم جراحهم بأسرع ما يكون ويتوقف الالتئام على وصول الدم الى الجرح أو الجزء المريض وكلما زل ذلك دفع أنسجة العضل للدم زاد سرعة جريانه في الاجزاء المصابة ومن هنا يسرع الشفاء الى الشخص ومن هنا تبدو الظاهرة الغريبة وهي أن الذى تطول مدة ملازمتهم الفراش تطول مدة شفائهم ولا أستطيع ان ألومك اذا تعذر عليك تصديق هذا . ولكنه قد دلل على هذا عشرات من العلماء الذين أجروا تجاربهم على عشرات الالوف من المرضى بجميع أنواع الامراض ، وتوجد امراض قليلة مثل التدرن الرئوى الذى لا يستجيب عادة لهذه الطريقة الجديدة ولاسباب معروفة جداً للطباء . وعلى العموم فان القاعدة الحديثة « انهض تحسن » أصبحت علامة تدل بداية التحول العظيم فى المرتقى الطويل الموصل الى الحياة الطويلة القوية .

دع الرجل المريض فى فراشه ليستمتع بلذة الراحة مع التمريض الجيد فى المستشفى . وماذا بعد ؟ يحصل عادة أحد أمرين (وليس هذا دائما) ان القلب قد يضعف من الارهاق ضعفا دائما . وقد يكون كل محطاته الثانوية أصبحت غير صالحة للعمل والقلب لم يخلق ليعمل وحده اذا لم يكن مرهقا الى درجة الانفجار فسيحصل شيء آخر ، سيدفع الدم ببطء شديد فيبطى سير الدم ويأش فى الاطراف وبخاصة فى الكعب والقدم ، وان كان يحصل هذا ايضا فى الأيدى وعندما يكاد يتوقف عن الجريان يكون الدم جلطات ذات أحجام صغيرة لا ترى الا بالمجهر فتلتصق بجدران الشرايين والاعوية لانعدام القوة الدافعة فى مجرى الدم ، واذا ما انطلقت الجلطات من أماكنها نقلها الدم بعد وقت قد يطول وقد يقصر الى أماكن أخرى من الجسم وحينئذ ربما التصقت بالمجارى الدقيقة للمخ أو القلب أو أى عضو آخر وتحدث الموت السريع . وهذا احدى نتائج متعددة لانهاى جهاز دفع الدم غير انه أكثرها استرخاء للنظر وأشدّها ذيوعا .

والآن فلنوجد الصلة بين كل ما تقدم وبين وجوب أن تسبق الزمن ان كل راحة طويلة شر لانها تقصر العمر وتطيل المرض الا فى حالات خفيفة نادرة وبدأت كبريات مصائب العالم حينما أخذ المدعو دكتور

ويرمى Dr. Weir Mitchell من سكان فيلادلفيا يصف الراحة الكاملة لكل شيء تقريباً ابتداء من عين السمكة والتهاب الاخمص الى الخبل .

ويسقط المرضى صرعى العلاج بالراحة كما يسقط غصن النبات ولا يزالون يسقطون بسببه ، وبهذا يفرقون انفسهم في عشرات الامراض الموهنة والى التحلل الذهني بنسبة اكبر من اى اناس آخرين . وينتهى الامر اخيراً بعرض الراحة الى قتلهم ، غير ان الاطباء الشرعيين يطلقون عليه اسماً آخر .

ان الراحة التامة في الفراش وبخاصة على الظهر هي أسوأ جميع أنواع الراحة غير ان كل ألوان الراحة التي لا تؤدي الى الشقاء من مجهود سابق مباشرة شر ، فالراحة التي بعد ساعة من عمل شاق ضرورية لمدة عشر دقائق تقريباً ويمكن دون ضرر مدتها الى عشرين دقيقة ولكن حاذر بعد العشرين دقيقة حتى في النوم لا يرتاح الرجل الاعتيادي أكثر من عشر دقائق في موضع واحد ونوم الضحى عديم الراحة فالرجل الذي ينام ككتلة الخشب يتعب كل طبيب عصرى فنحن نعلم الآن أن جميع النوام الممتلئين صحة يتحركون بعنف ويغيرون مواضعهم عشرين مرة على الأقل في الليلة وبعض الناس يغيرونها خمسين مرة ويستيقظون وهم يقولون انهم ناموا نوما عميقاً ولقد ناموا نوما عميقاً فعلاً .

بعد الخمسين يميل الناس ذوو النشاط الأخذ في الضعف الى اضاءة الوقت في الفراش أو في الاسرة المعلقة بين الاشجار أو في التآرجح على «الكراسي الهزازة» أو يسبحون في الخيال ويستعيدون ذكرى الايام الطيبة التي خلت أو يقرءون الكتب ولا ينتهون من القراءة وكثيراً ما تنقلص اجسامهم على بعضها في اثناء ذلك فمثل هذه الراحة الجزئية تؤدي الى اضطراب جزئي في جهاز الدورة الدموية فاذا ما قيدت هذه الراحة بالتعقل لقل الضرر الدائم الذي ينشأ عنها غير أن عادة الراحة اذا تملكك المرء أصبحت داء وبعد وقت ما متضطرك الى استدعاء الطبيب لعلاجك .

كل ميل نحو الاقلال من العمل وازدياد الراحة أمر ضار ولكن ليس من الضار أن تكيف الاعمال وفق النشاط الموجود وان تمد الراحة وفق التعب الحقيقي فانما تبدأ المتاعب في اللحظة التي تستريح فيها لانه ليس لديك ما تفعله .

وهأنا أقدم لك نموذجا بسيطا «الونزو» يبلغ اليوم الحادية والستين واعتاد في ماضيه أن يبذل جهودا مضيئة وأن يحصل أموالا طائلة أضاع منها الكثير ولم ينقذ الا ما يكفيه ليعيش عيشة العزب المتواضعة وليس به أمراض خطيرة ولكنه شديد الحساسية لأيام الشتاء الباردة الرطبة ولذلك يعيش في الجنوب يوما هنا ويوما هناك ولكنه يذهب لاصطياد السمك نهارا وهو لا يجيد وضع برنامج .

ففي حوالي الساعة التاسعة يصل الى مكان الصيد في قرية قديمة ويخرج منها كرمسيا مطبقا ومعطفا للمطر وأدوات الصيد ويتوجه الى البقعة المفضلة لديه حيث يقضي سحابة اليوم وبعد أن يقضي ساعة أو ساعتين دون أن يوفق الى صيد أى شيء من السمك يثبت قدميه على سياج الرصيف وتأخذه سنة من النوم بعد أن يكون قد ثبت خيط الصيد حتى اذا اتفق أن التهمة وحش البحر لا يذهب به وحوالي الظهر يقضم غدائه وفي بعض الأحيان يتنقل الى مكان آخر وحوالي الساعة الخامسة يعود ادراجه ومعه أحيانا أربع سمكات أو خمس وبعد أن يكون قد اخذ منه التعب تعب اليوم كل ماخذ يأوى الى فراشه مبكرا أو يغط في نومه عشر ساعات او احدى عشرة ساعة .

يرى «الونزو» طبيبه المحطم ثلاث مرات اسبوعيا لانه لا يتمتع بصحة في «ايزنت ول» وقد يكون لانه يجهد نفسه في العمل فيضيف له هذا الدواء أو ذاك ويجرع «الونزو» المخدر ثم يتوجه الى رصيفه الصيد ولذا أقدر له بضع سنوات قليلة .

واليك نموذجا ثانيا :

ان «ماي تورث» وسنها ستون عاما كانت تقضي أغلب وقتها راقدة على أريكة جميلة تطالع القصص الخيالية وهي غنية في كل شيء الا في حسن الذوق وفي مخها وهي مفرطة السمن يزيد وزنها على المعدل اللازم ينحو أربعة وعشرين رطلا وهي تنام على ظهرها عشر ساعات على حسب ماتقول اختها (جين) النشطة الممتلئة حياة وهي منهكة الآن في عدد نفقات الجنازة ، وهي تشكو من ورم في كعبيها وهذا من أوكد العلامات لقيام الاضراب العام في المحطات الفرعية لجهاز الدورة الدموية واذا سمعت اليها ، وهي تتحدث حسبت انها تجاوزت التسعين من عمرها واخفقت كل محاولة لحملها على النهوض والسير ومع ذلك فليس بها من مرض أكثر قسا بمضخة الحريق .

وربما يكون قد فات وقت انقضاءها الا أنه لم يكن قد فات منه
أربع سنوات حينما أخفت اختها في أن تصور تفليسة أو أى شيء آخر
مما يحمل المخرفة العجوز السمينه على الظن بأنها مضطرة الى العمل ولو
نها تقضى سنة في محمل لفصل الملابس باليد لتخلق منها امرأة
جديدة .

والآن فان الطريقة السهلة للنهوض والعمل هي مواجهة العمل
بشراة وليكن لديك حافظ على حل مشكلات الساعة لانك بدون حافظ
حقيقى لا تستطيع أن تعمل كثيرا وأؤكد الحوافز هو الجوع فان المعدة
التي تعض صاحبها من الفراغ تستطيع أن تلهب أكثرنا كسلا الى العمل
النشيط ويلى هذا الحافز فى القوة الفقر الذى يابى عليك الطيبات التي
اعتدتها ولكنه لا يقضى عليك قضاء كاملا بالموت مسغبة . والمقياس
الصحيح للفقر هو ما يجعلك حقيقة سابقا للزمن ببضع ساعات على الأقل
وهذا فيه الكفاية لتخليصك من مرض الراحة فتشغل نفسك ثم يكون
عليك أن تشغل نفسك مرة أخرى لكى تزيد ما تحصل عليه من الاشياء
التي تود الحصول عليها لتعيش عيشة محترمة .

ان الناس الذين لا يملكون شيئا يستحقون الرثاء والذين لديهم
القليل غير الكافى جديرون بالغبطة والذين لديهم كل شيء قد يكونون
أما أشد الناس بؤسا أو أكثرهم نعيما لانه اذا لم تكن لديهم موارد
داخلية ولا أى دافع لمسابقة الزمن فانهم يذوون مبكرين ولكن اذا كان
لديهم موارد داخلية ويكافحون مثل «تشارلز كترنج» بتحمس شديد
لكل ما يحبون فان ثروتهم تساعدهم وتسرع بهم فى الطريق الذى
يسلكون ، فالمال كعادته ضار بالتافهين من الناس وصالح للممتازين .

والقليل من الناس هم الذين لديهم موارد داخلية قوية من النوع
المطلوب لمسابقة الزمن ، فالكثيرون يميلون الى أن يسبحوا فى الخيال
أو الملذات الوضيعة بأسرع ما يمكن وانك لتجد لكل شخص يشبه
«كترنج» عشرة آلاف من أقزام لاعبي الجولف أو مدمنى لعبة البريدج
أو الخمور أو المغفلين .

وليس هذا ناموس الطبيعة ، انه يرجع غالبا الى التربية فالمعلمون
الاغبياء وقد أحدثوا كثيرا من هذا النقص الشائع وسوف يأتى وقت
تحسن فيه خطط التعليم فى المدارس وسيبدأ حوالى السنة السادسة ،
ولا ينتهى أبد الدهر ويظل فى شدته حتى مع تلاميذ سن التسعين

وسيمتزج العلم والحياة فلا يسبق احدهما الآخر لان الحياة كلها يجب ان تكون تعلمًا وان يكون التعلم كله هو الحياة .

وهذا التعليم سيدرب باصرار الناس من جميع الاسنان ليسبقوا الزمن وقد يسبقونه بساعة واحدة او بسنة ولكنهم يسبقونه على كل حال فلا يتخلفون عنه وقد يصل الى حد ان يحرم الذكريات الاجتماعية على النحو الذى نشجعه فى شكل ولائم للطلبة والتي يغنى فيها قدامى الخريجين اغاني الكلية فى سالف الايام ويسردون على الاسماع كيف انهم ربطوا بغلا فى غرفة الاناشيد بالكنيسة فان بعث ذكريات الايام القديمة يجب ان يعاقب عليها بالاعدام لانها نوع من الانتحار يجب عدم تشجيعه وكل ذكريات غير مفيدة نوع من الالتواء والالتواء هو مصيبة تقدم السن .

طبق هذه الملاحظات على نفسك اما انا فلا استطيع ، واذكر فى نفسك حقيقة بسيطة هى : انما يتجه الناس الى الوراء لانهم عادة تعوزهم الدوافع للاتجاه الى الامام وهم يبدوون يموتون بمجرد ان يفقدوا الدافع على الحياة واول علامات فقدان هذا الدافع هو التحسر على الماضي وتسريع الخيال فى تلك الايام الجميلة الحالية ، ولو ان هذا كان يحصل مرة واحدة فى السنة ولا يستمر الا دقيقة واحدة فلن يكون هذا دلالة خطيرة ولكن دلالة تنذر بالخطر اذا طال وتعدت .

غادر جيم القطار ومشى متجها الى الشارع الرئيسى فى البلدة التى كان يأمل أن يقيم فيها بعد اعتزاله العمل فشوارعها النظيفة الفسيحة المعدة للتنزه تبتسم بما لاعهد لشوارعها من قبل . وقد زاول عمله فيها منذ أربع وثلاثين سنة ، أجل فهنا يجب أن يقيم اذا استطاع ، ولكن هل ذلك فى قدرته ؟ .

وفى غرفته الصغيرة بالفندق نشر أوراقه وكتاب المصرف للمرة المائة وراح يحسب بالارقام ، وقد يقضى هنا ستة أشهر دون أن يجد عملا يستغرق جزءا ما من وقته . وكان لزاما عليه أن يسعى ، فان معاشه لم يكفه ليعيش حياة تناسبه ، وكان فى حاجة الى ان يعمل على أية حال ولو يوما أو يومين كل أسبوع اذ لم يكن يعتزم أن يترك نفسه للفناء . ووجد غرفة مريحة عند سيدة عجوز وبعد بضع ساعات بدأ كفاحه للبقاء فى معترك الحياة ولم يكن الامر يعدو ذلك وأسر الى صاحبة الدار بما يعتزمه فانصتت اليه ووعت ما قاله لها .

ذهب جيم الى الغرفة التجارية وحصل على قائمة بأسماء جمعيات تحسين الحياة المدنية والجمعيات الخيرية وزار كلا منها وتطوع ليعمل بها بالمجان يومين فى كل أسبوع . نعم مجانا فانه فى حاجة لأداء عمل يذكر .

وجاء اليه رجل مريض عجوز شاحب اللون وكاد يحتضنه لأن هذه الجمعيات كانت تمنى نفسها بالحصول على مثل هذا الرجل الخير وطلب منه أن يبدأ عمله من الغد .

وبدأ جيم يعمل وكان بعض عمله أن يزور رجال الاعمال ويطلب اليهم أن يتبرعوا بمبالغ صغيرة للمساعدة على اتمام تحسينات للمدينة زادت نفقاتها عما قدر لها زيادة تافهة فطلب من كل شخص مبلغا ضئيلا ولم يجد لتفاهته صعوبة تذكر فى الحصول على المال المطلوب وكلما وجد رجلا لديه فسحة من الوقت بلا عمل يتحدث اليه ويزيد معلوماته شيئا عن المدينة وأهلها . فاذا عاد الى مكتبه دون كل شيء عرفه فلم يلبث حتى أصبح لديه كتاب ضخم من المعلومات الصحيحة .

وفما بعد نظم عرضا فاخرا ثم طابورا ثم رواية تمثيلية يمثلها

الهواة ثم اجتماعا كبيرا لينظر في اقتراح توسيع ميناء جوى ، ولم يكن خطيبا لبقا ولم يشرف من قبل على أكثر من عمال حانوت صغير ولكنه كان يحقق النجاح بشكل ما . وكثيرا ما كانت طبيعته السمحة سببا في الغض عن بعض عيوبه - وأخطائه .

ثم أتى دور التوسع فتعرف بالمهتمين بتخطيط المدينة والمقاطعة فلم يضع الا وقتا قليلا حتى عكف على دراسة العمل كله فقرا كل شيء عنه في مكتبة عامة وحمل موظف المكتبة على أن يزوده بكتب أكثر عن هذا الموضوع وعالجه برفق مع رجلين وامرأة تجمعت لديهم الخبرة الطويلة في هذا الميدان فبحثوه من كل نواحيه بحيث نسج من خيوط البحث نموذجا يتضمن تحسينا .

وجاءت الحرب وفقدت مكاتب المقاطعة نصف موظفيها واحتيج الى رجل يسد احدى الثغرات وظهر جيم في الوقت المناسب وحصل على الوظيفة وفي غضون عام اقنع الموظفين انه يكون أوفر انتاجا لو عمل في ادارة تخطيط المقاطعة وأجيب الى طلبه وحصل على العمل الذي كان يحلم به وهو الآن في عامه الثالث موفق وسعيد فماذا كانت جيلته ؟ انك على بينة بها .

لقد استطاع أن يبقى في معترك الحياة حتى قبله الناس كما يقبلون عملة الدولة ، انه أبى أن يعتزل العمل وان يتخذ له مقعدا في المنتزه . انه وجد أن الطريق السهل لاكتساب الاصدقاء الجدد هو العمل الذي يجرى وسط أعمال البر .

ان أحلك خطر يهدد خير مني العمر وهو الشيء الذي يحولها من خير المسنين الى أسوأها انما هو فقدان جميع الاصدقاء والمعارف . يموت الناس كما تعلم ويرحل آخرون ويهملك البعض فاذا ما اختفوا تضاءلت فرصك لان أكثر الرجال يكونون على صلة بالأعمال والميول بوساطة الاصدقاء - فاذا ماتركوا وحدهم فماذا تستطيع أن تفعل ؟ انك تستطيع شيئا واحدا فقط هو أن تزيد من أصدقائك وتنشئ حلقات جديدة للتعارف برجال الأعمال ثم تستأنف دورك القديم معهم وتقبل وحدتك (عزلتك) ولو أنها تلذ لك كما حدث لي . فانك لن تجدها صفقة رابحة ويؤسفني أن أقول: انك ستجدها صفقة خاسرة ولا تنجح في الوحدة هذه الايام الا بعض التخيلات النادرة فاحذر أن تتخذها مثلا تحذيرها . ليس من مجرد الذوق والسليم أن تحتاط من فقدان معاصريك بأن تنسى حلقة من المعارف الذين هم أصغر منك سنا ؟ واؤكد لك اني لا أنصح أحدا بأن يفعل ذلك ، غير أن الوفا من الرجال والنساء يبلغسون الستين في يأس الوحدة الصامت

ولا يبذلون جهدا للقضاء عليه فكلهم ما عدا صحابا قليلين لسوء الحظ
المريير ليس لهم ما يلومونه الا انفسهم فهم لكى يتمتموا لم يبذلوا الا ما يجب
وبعد فوات الوقت .

لا تتخذ أصدقاء من اناس يصغرونك بضع سنوات وتبتعد بهم عن
كل من عداهم ولكن اتخذ الاصدقاء فى كل مراحل الحياة الاولى الى ان
تنتهى الى عهد الطفولة ثم اسبح فى تيار الحياة الجارى .

وباتصالك بمن هم أصغر منك ولا سيما الذين فى العقد الثانى
سواء كانوا فتيانا أو فتيات يجب ألا يثيب عن ذهنك الفارق الخطير بين
الجيل الناهض وجيلك أنت ، وهذا الفارق ينشأ من أمرين بازدياد
التعليم ومראה الخبرة .

ويزيد التعليم الفوارق بين المتعلم اللامع والذي أقل منه لمعانا ، وعلى
ذلك فكلما تحسنت المدارس وزادت صلاتها بالتلاميذ فان أقدرهم هو الذى
يشق طريقه أسرع من غيره على حين يتخلف فى الوراء أقلهم مقدرة . فما
أشق هذا على أترابك الذين تخيلوا أننا لو علمنا كل انسان لتشابه الناس
غير ان ما يحصل هو العكس فالاحسن لا يشبه الأسوأ كما لا يرقى السيء
الى مرتبة الحسن وكل متعلم يتقدم تبعا لكفايته الكامنة فى نفسه وعلى هذا
نجد فى النهاية تنوعا مذهسا بين العقول والمهارات .

واليوم فان أقدر الشبان هم من كانوا أوسعهم قدرة فى أيام
الدراسة . ولقد حاولنا ان يمر هذا اليس كذلك وهل لم ننجح ؟ واليوم
بهذه الطريقة نفسها ، فان أقل القسادرين هم طبق الاصل من آباءهم
وأجدادهم وأجداد أجدادهم . ولدينا اليوم على الاقل مجتمعان مهما حاولنا
تجاهلهم أو انكارهما، وربما كان لدينا اليوم ثلاثة أو أربعة لاننا لانستطيع
الجزم بذلك ولكن الثابت أننا لا نجد أناسا من طراز واحد .

والتجارب المريرة قد أفادت الاقدر وأضررت بالرجل الاعتيادى . ان
البعض عاش خلال حربين عالميتين وتعلموا الموت والعذاب والفقر والتزوير
والخدعة مما لم يحدث فى زمن سابق قط وعاش البعض الآخر خلال حرب
عالمية واحدة وقد أطبقت عليهم ، والآن يعانون حمى التضحية وارتفاع
الاسعار وكل ما يعادل فى العصر الحديث ضجة الرقص الهمجى . والشبان
القادرون يبذلون أكبر فائدة مما تحتاج لهم من علم وفرص لأنهم
سيسيطرون على عهد القنبلة الذرية بطبيعة الحال والذين هم أقل قدرة
فسيعيشون للخمر والنساء كالمعتاد .

وقد تجد مشقة لتعيش في المجتمع بين هؤلاء الشباب لان النبيه
الذكي منهم يتبرم بك في حين يسخر منك الاقل كفاية (الاعتياديون) اذا
رفضت خمرهم وعاداتهم . وقد سببا ارتباكا لك في بعض الاوقات ولكن
اشد الاخطار تنشأ عن أن تطبق على هؤلاء الناس وسائل يوم مضى فان
لك عاداتك الخاصة في معاملة الناس ولهم عاداتهم وأحيانا يكون الفارق
عظيما كالفرق الكبير بين آداب لياقة البدوي وآداب الدائركي ولم لا يكون
الامر كذلك ؟ وبعد كل هذا فان العصر الذي نشأت فيه لا يكاد يمت بشبه
للعصر الذري وانك مثل جميع المسنين : تتخيل أن طريقك واحد وانه
الطريق الوحيد الصحيح وانه الطريق الطبيعي فالتناس يكتسبون عاداتهم
بهذه الطريقة دائما وعلى ذلك . ولهذا فانت تبذل جهدك دون أن يتطرق
إليك شك في انه يكون أسوأ ما يتلقاه الآخرون .

يوصي الناصحون بالحد من اتيان أعمال بحسن نية وان كانت
بسيطة فقد تصبح بعد قليل مألوفة عند أترابك ولكنها تعود عليك بالتعب
اذا استعملتها مع آخرين .

لا تكتب خطابا الى صديق أصغر منك تذكره بسرورك وانك لاتستطيع
أن تنسى ما قدمه لك يوما ما . فمثل هذا الكتاب مما يشير الريب دون شك
في عقل هذا الشاب وهو ريب يرميك به الشاب ليس له مناسبة على
الاطلاق . وعلى ذلك يمكن أن يكون مقدمة الى طلب الرجل المسن قرضا من
المال .

لا ترسل خطابات تتضمن قصاصات الى شخص أصغر منك تعلم
انه أكثر أهمية منك . ومن البدهي ان المرسل اليه اذا كان نبيها يشم
انها مجرد حيلة فلا تكن صاحب حيل ، ولا تشتري حيلة او ازهارا لترسلها
الى شخص يصغرك الا اذا كانت الفرصة جلية تدعو الى ذلك . فالشبان
في هذه الايام لهم عقول منطقية والافعال التي لا يقبلها المنطق تثير شبهاتهم
ولم لا ؟ وكنت أيام شبابي أرتاب في كل شخص أجده يسلك المسالك
البالية لاكتساب الاصدقاء .

لا تكتب قائمة بجميع تواريخ من هم دونك منا ولا ذكرياتهم
السنوية ولا ترسل اليهم هدايا او خطابات او برقيات فقد يكون لهذا رنة
بعض الوقت ولكن سوف تعرف في الوقت المناسب أن الشباب الذين هم
أصغر منا يسخرون منك اذا خلوا الى أنفسهم .

يجب ألا يبرح عن بالك ما يتمتع به الشبان القديرون في العصر

الندري من تقديرهم للواقع ومن عقول جبارة . حينما كنت صغيرا لم يسبر غور الناس فتى أو فتاة فى كل ألف كما سبرهم هؤلاء الصغار ان جيلا كاملا من الناس مدربا على العلوم النفسية طبقا لعلم وظائف الاعضاء نشأ ونما معك وفى الخمسين سنة الماضية كانت مئات من الكتاب بعضهم قادر والبعض الآخر من المهرجين يلقنون الشبان دروسا فى الدوافع البشرية والمسلك الاجتماعى ونظريات « فرويد » ومن هم أقل منه شهرة من علماء التحليل النفسى ونظرات « ادلر » وعشرات من علماء الامراض العقلية العصريين وفى الحيل الشائعة للحصول على نتائج احتراف البيع وادارة الاعمال أو قيادة العمال أو قيادة الجيوش أو معالجة السياسة . وشباب اليوم اما انه نابه فيعرف عن طريقه عمل العقل البشرى أكثر مما عرفه وليم جيمس . كيف ذلك ؟ حسنا انه أفاد من كل ماتعلمه جيمس وانتقل الى صالونات الجيل التالى كما انه تمتع بنتائج مئات من الرجال الاكفاء لا يقلون قدرة فى ميادين تخصصهم عن جيمس فى ميدانه . وهذا مايجب ان يكون اذا كان التعليم صحيحا وكل جيل قادم يجب أن يفيد مما قد تعلمه ممن سبقوه – وأقدر أعضائه لا يفعلون الا هذا .

ومن المؤكد ان الشباب الاعتيادى غير حكيم لانه مجرد فرد كباقى الافراد وهو لا يعرف شيئا عن الطبيعة البشرية مثله مثل أسلافه الذين سبقوه بالف عام وعلى ذلك يستطيع أن يجرب جميع الحيل القديمة لاتخاذ الاصدقاء . انهم يعملون وسيظلون يعملون دائما واذا كنت تعرف أمور الشباب معرفة كافية تستبين القادر من بين الكثيرين قد تكون وضعت نظامين لطريق الوصول والا فحذار من طريق الوصول القديم لانك تخاطر بأن تصبح أضحوكة الجميع وماذا يكون أسوأ من ذلك ؟

اذا شئت أن تكون رجلا صالحا يجب عليك كما أسلفنا القول وكرناه أن تدخل معترك الحياة وأن تسابق الزمن ، وهذا سيدفعك عادة ليقدرك الشباب كثيرا .

وهنا يكمن الخطر لانك ستتجد اغراء على أن ترافق الشباب فى الرحلات الحكومية وصلات الرقص وهذا ما يسرع فى القضاء عليك وماذا بعدئذ ؟ فالنوق السليم يجيبك على هذا .

اسلك بما تقتضيه شخصيتك وتصرف بما يقتضيه منك ولا تجر مع القطيع واقعد ، وراقبه ودع الشبان يفهمون أن تعصبك الوحيد مكانه

القلب ، وفي الفضلات الكبيرة ، والرئتين ، وان محصولك من الاوكسجين
يجرى اخذا في التدهور .

لا تعتذر أبدا من هذا الضعف للجسماني والا اعتذر الرجل عن طوله
البالغ خمس أقدام وسبع بوصات .

واذا تجرأ بعض الشبان المزهوين على أن يظهر شجاعته ورشاقته
بطريقة جريئة فوجه نظره الى ان أى عمل يستطيع أن يبرزه في النمل وان
أصغر قرد يستطيع أن يتأرجع الى مسافات بعيدة وبسرعة أكبر .

أكد تفوقك الحقيقي بطريقة غير جارحة أى غير ملحوظة وابحث عما
يتعب الشبان وتحدث اليهم فيها وبث بعض الافكار التي قد يتلهفون عليها
وسرعان ما ينسبون لها لانفسهم .

وقص اخبار الناس والاعمال التي يكون لها صلة بمتاعب الشبان
واترك حكاية تفسر مغزاها ولا تقم بينهم واعظا .

وتجنب تجمعات الشبان اذا لم يكونوا في حاجة اليك ولا تتأذ من
ذلك .

وابحث عما يريد الشبان ان عمله معهم أو لهم ثم افعله فقد لا يعدو
اعداد جرن نظيف في سطح البيت لليوم المطير أو مساحة تنس في أيام
السبت فلا تلق بالا .

لا تتحدث الى الشبان عن أحزانك ومتاعبك واضحك تضحك معك
الدنيا واذا بكيت فابك وحدك كما هي العادة وتحدث عما يهم الشبان
وينفعهم أيضا ما استطعت الى ذلك سبيلا .

وتكلم كثيرا عن الغد وما بعد الغد وارسم الخطط فالخطة التي تفشل
خير من خطة لم ترسم وصل الشبان عما يحدث لهم في دنياهم وما الذي
يبحث على ما يشرهم وما تلك الاشياء ؟ وتابع ما تسمعه منهم واحتط فيما
تتكلن به حتى اذا ما تحققت كهانتك وراقبت عيون الشبان وهي تفتتح
من الدهشة فاذا كنت تعلم ان الرياح الجنوبية الغربية هي التي تسوق
المطر فاطهر هذا العلم بالزمان والمكان المناسبين وابلغ مستمعيك ان الرياح
التي تهب من الشمال لا تحمل مطرا لمدة ثلاثة أيام على الاقل فهذا يخلب

لب الاذكياء من الفتية والفتيات وهو يرفع قدرك في نظرهم (ولكن لا تخبرهم ان القمر سيسقط في المحيط الهادى يوم الخميس القادم) .

وكلما تيسر افخر بسنك فهذا يغير بسرعة رأى الشبان فيك فان الصغار يشبهون من هم اكبر منهم سنا فى انهم يقدرّون الناس لأول وهلة بحسب تقديرهم لانفسهم فاذا أظهرت سوء ظنك بنفسك وأنت فى سن الستين فتيقن أن الفتية والفتيات سيسئئون بك الظن أيضا .

ان من أوكد الطرق لترك الاثر بأنك سبىء الظن بنفسك أن تتخذ مجالسك فى الطرق الجانية وتكون مشاهدا سلبيا لآعمال الشبان والعابهم فان الاولاد والبنات حينما ينظرون اليك بأطراف أعينهم يتمتعون : « مسكين هذا الرجل العجوز فكل ما يستطيعه أن يجلس ويرقب العالم وهو يسير » فانت ما تصنعه يداك لا يتفوه به لسانك .

وعلى ذلك فافعل مع الشبان ما فعل جيم مع سكان المدينة منذ اليوم الاول الذى حل فيه بها واعرض خدماتك وقد يكون ما تستطيعه أن تكون حكما فى العاب كرة القدم أو أن تقيد أرقام الفوز على اللوحة الكبيرة ثم افعل ذلك لان أقل الاعمال أكثر بألوف البلايين من لا شىء وقد يكون ما تستطيعه هو القاء دروس فى فن النجارة فى معهد مسائى أو ناد للشبان وافعل ذلك حتى لو قطعت قطعة من ابهامك بالمعول وليكن أداؤك لهذا العمل كل خميس فى الساعة الثامنة مساء وان قطعة تقطع من ابهامك لهى قطعة من الحياة على أية حال ولعلك تستطيع أن تفعل ما فعله رجل أعرفه : تستطيع أن تنظم فرقة من الاحداث لفلاحة البساتين فيجمعون الاعشاب ويشذبون أشجار الحدائق بعد الساعات المدرسية وطول أيام السبت على أن يتقاضوا أجورا عادلة فان هذا الرجل يكتسب الآن ضعف ما يتقاضاه من معاش وقد تكون خيرا فى تنظيف الألواح الزيتية القديمة والاثاث العتيق وتستطيع أن تعلم بعض الاحداث هذه الطرق ثم تحملهم على أن يباشروها فى أطراف المدينة وقد تكون ولم الاستمرار على هذا النمط ؟ ان مثل هذه الاحتمالات قد تبلغ عدة ملايين ومازال المتوافر من ورق الكتب قليلا .

إذا أردت أن تظل فى معترك الحياة فلا تحاول أبدا أن تدير ناديا للمناقشة بين المعاصرين وانما ناقش مرتين كل شهر موضوعات كالموضوعات الآتية :

هل كان يستطيع نوح أن يعيش كما عاش ميتوشالغ إذا لم يحدث
الطوفان ؟ وأحدى قدميه فى القبر .

لا تجلس على الابواب تتطلع الى الشمس وهى تغرب وتتحدث عن
الايام الحلوة الماضية التى كان فيها الناس ناسا .

حذار أن تعيد أحسن ما تعرف من حكايات على عشاء بالنادى يشهده
رجال ونساء كانوا يقصون هذه القصص نفسها بعد الفزع الذى وقع
سنة ١٨٩٢ .

هل استطعت ان اوضح ما فى نفسى ؟ .

استرجع في ذاكرتك قليلا من الحقائق التي كانت عماد هذا الكتاب
فالسنوات الاولى ينبغي ان تقضى في النمو . . ففيها يسير الشاب وراء
نزعتة العاطفية ، وهذا ما يفعله المراهقون في حلقتهم الاولى من العمر ،
والسنوات الوسطى تنقضى في اتخاذ مرتزق للعيش . أما السنوات
الاخيرة فيجب حينئذ تخصيصها للتمتع بالحياة على حسب ما يهوى
المرء فان كان الانسان مخلوقا ذا أنواع متعددة لا حصر لها فعليه ان
يتمتع بحياته بعدة طرق وكل طريقة منها من محض اختياره ، فهو لم
يعد ذلك التلميذ المكتئب الذي يساق بالسوط الى المدرسة ولم يعد
المرءوس الذليل في شركة ضخمة مملوءة بالساعات الميقاتية ، وهو بعينه
أما خيرا مما كان واما شرا منه ، وكلما ازداد عقلا كلما اتسعت الدائرة
التي يبسط فيها قواه على جميع ما تصبو اليه نفسه فيخصص جزءا
للكتب وجزءا للناس وجزءا للتفكير وجزءا لاي شيء آخر تتوق اليه
نفسه . وهكذا يصل في الوقت المناسب الى خير جزء من الوقت ففيها
جميعا يحتاج الى ذكاء احد وخبرة أوسع ، وهو يجد في أداء الواجب
الذي لا ينتهي ، واجب مساعدة الجيل الشاب لإدارة العالم وتحسينه
وهو ينهض بهذا الواجب بعضه بالعمل وأكثره بالنصيحة وبهذا يحقق
مثله الاعلى القديم .

إذا ارتفعت قدرته المبكرة طال زمن ظهورها . أتذكر قاعدة مايبكر
بالحضور يتأخر في الانصراف ؟ وكلما كان حكيما كلما وجب عليه ان
يبطل استخدام حكمته فليس له خيار وكل ما له هو مجرد حافز وإذا
سد الطريق أمامه تحول ومزقه فالواجب عليه ان يبقى في معترك الحياة
وان يسبق الزمن أيضا .

ويرى كل مراقب قدير من ذوى الستين ، بعين مغمضة ، ان بلادنا
تسير قدما ببطء في طريق صخري ويرجع السبب الأكبر في ذلك الى المبدأ
الفردى الحيوانى الذى يملك كثيرا من الناس دون الستين . نحن نميل
الى السخرية ونحن من علماء الحياة ولا نشير الا الى الحوادث والظروف التى
يسهل التحقق منها .

ولا يوجد طفل تقل سنه عن عشر سنوات فكر في عمل أو قام بعمل
أدى الى تحسين الظروف الاجتماعية (وتستطيع ان تحدد معنى «الظروف
الاجتماعية» على أوسع نطاق تريد) وكل ما يستطيع عمله يتركز حول

انتمو والحصول على الرغبات الحيوانية فى عالم الحيوان فالاطفال ليسوا بشرا كما تظن بعض الامهات المخدوعات فهم فى الطريق الى أن يصبحوا بشرا وهذا من حسن حظهم .

ولا يوجد شاب او شابة دون العشرين ساهم بأبسط قسط فى اية مشكلة اجتماعية عظمت أو صغرت على حسب ما وصل الى علمى بعد البحث الطويل ، ان القليل منهم اشتركوا فى حروب صليبية وحروب اخرى ، غير ان هذا لم يؤد الى الى مساعدة اى انسان الا اتباع المعسكرات، ويقول الشاعر : ان عقل الشبان يتجه حقيقا الى احلام الحب . ويقول عالم الاحياء : ان جسد الشاب يغلى بحرارة بالدافع الجنسى العاجل ولذلك لا يكون له عقل يستحق الذكر .

ان كثيرا من الناس (لا كلهم باية حال من الاحوال) بين الثلاثين والاربعين تستحوذ عليهم رغبة النسل حتى لا يبقى لديهم الا قليل من الآراء ونذر من النشاط الذى يفيد فى مساعدة اخوانهم ، وكثيرا من الناس بين الاربعين والستين تملكهم رغبة جمع المال وتحسين بيوتهم والحصول على الترقيات والتنقل بين ارقى المجتمعات حتى ليبعد أن يستطيع واحد فى المائة منهم أن يخصص جزءا ملموسا من وقته للعمل فى تحسين اى شىء الا اذا كان يعود عليه بربح عاجل . فهل لك أن تلتحق بمؤتمر لدافعى الضرائب وأن تعمل لتخفيضها ؟ حقا بكل سرور : هل لك أن تعمل لمراقبة المجرمين الاحداث لتبعدهم عن بعض الشرور الاجتماعية الاخرى ؟ كلا انه يحتاج الى عمل كثير .

أتشك فى هذا ؟ افعل كما فعلت أنا . استعرض جميع الناس الذين ينفقون ساعتين يوميا سنة بعد سنة فى غرض بعيد عن جمع المال أو ارتقاء درجة فى السلم الاجتماعى فكم تجد منهم ؟ انى لا أستطيع أن أعد منهم حتى واحدا فى المائة . واسأل زعماء احدى المنظمات كم عدد الاعضاء الذين يخصصون وقتا ويؤدون عملا شاقا فى سبيل اهداف المنظمة فألقى الجواب وأعد من بينهم عشرين مئيسونا فى الحلقتين الرابعة والخامسة من اعمارهم وبذا استطعت أن أجد من بينهم ٢٤٠.٠٠٠ عامل نشيط يعمل فى سبيل اغراض ليست شخصية ولكن لم أجد ولو ربع مليون وقد يكون السبب انى لم اعرف اين أبحث عنهم .

وحينئذ اذا كانت المنظمات التى تتطلع الى المستقبل لا تستطيع أن تجد عمالا دون الستين فستضطر الى ان تبحث عنهم فى صفوف الاكبر

سنا والا فلن تجدهم ، وحتى الآن لم يجد كثير من هذه المنظمات احدا من هؤلاء العمال بتاتا واراني مضطرا الى ان اعيد :

• ان القمة آخذة في الارتفاع وقليل من المهندسين دون الستين يستطيعون أن يتخيلوا بعض المشاكل الجديدة التي سنواجهها دون حلها غير أن مكاتبنا تفص بالشبان اللامعين الذين يستطيعون أن يضطلعوا بمهام صغيرة على وجه جميل وسريع ، هذا هو كلام أحد رؤساء معهد أبحاث رفض ذكر اسمه .

ندخل عهد العصر الذرى وايدينا مفلولة تماما ولدينا كثير من الراقصات وكثير من المقنيات ولكن ليس لدينا العدد الكافى من الرجال والنساء الذين يستطيعون القيام بواجبات تؤدى الى أعظم حضارة فى التاريخ .

«لدينا مائة مشروع على الرف ولا نجد احدا لينقذها» هكذا تكلم رئيس شركة من أكبر شركاتنا الكيميائية بعد مضى أسابيع قليلة من تسليم المانيا، وبعد بضعة أشهر سرد على مسامعى هذه الحكاية المحزنة نفسها بعض مشاهير صناعات الانسجة والمطاط ومدير احدى شركات حفظ المأكولات و اضافوا انه بدون تنمية المشروعات القائمة تنمية عاجلة فان ملايين من العمال سيعطلون بكل تأكيد عن العمل خلال سنتين أخريين .

نجد بين كل خمسة اشخاص شخصا واحدا هو الذى يستطيع ان يعالج أى نوع من البحوث وستجد أن سنه فوق الخمسين . ومثل هذا الرجل المسن كان ينبغى الآن ان يضع خطة للقيام بعمل لا يستغرق الا بعض وقته فى خير سننى حياته فاذا أردنا أن نغريه على استمرار فلنكرر حكايتنا القديمة العتيقة فهو بعد الستين يستطيع أن يتعلم كما كان يتعلم من قبل ولو مع شيء من البطء وسيحتفظ بعد وقت تعلمه على وجه أفضل ولن يتعبه عمله تعباً خطيرا اذا احسن وضع الحطة فان تجاربه وأصاله رايه وتبعاته تتحسن كلما تقدمت به السن واقدر عشرة من رجال العلم بيننا هم فى الحلقة الثامنة .

ان كثيرا من البحث يمكن تقسيمه بسهولة الى واجبات دقيقة لا يستدعى كثير منها مجهودا عضليا ولذلك يستطيع المسنون من الرجال والنساء أن يمارسوها على وجه يدعو للاعجاب وهم يستطيعون الاستمرار بنشاط لا يكل فى الاعمال الحسابية والمسائل المماثلة الى ان يبلغوا من العمر عتيا وحتى لو ضعفت هذه المهارة فانهم يستطيعون مع ذلك القيام بواجبات خاصة فى نطاق قواهم . والرجل المنظم تنظيما صحيحا ولا

سيما الطبيب تفتح أمامه البحوث الطبية على أساس شغلها من وقته فرصا تبهر الابصار ولقد زادت هذه الفرص عشرة اضعاف باطلاق النشاط الفري من عقاله .

ان الطبيب ذا التدريب العلمى السليم والذي له بعض الوسائل (ولتكن ملكا له أو هبة خاصة) يستطيع أن يجد مشكلات لا نهاية لها فى الاوجاع التى تصيب من جاوزوا الأربعين وفى عقليتهم . ويكاد يكون جميع البحوث يجرون أبحاثهم على الجنين والمواليد والأطفال وصغار الأمهات واليافعين ويكاد لا يدلى برأى فيما يجب أن يأكله الرجل أو المرأة بعد الأربعين أو بعد الخمسين أو بعد الستين أو بعد السبعين أو بعد الثمانين . فمن ذا الذى بحث وسائل التصحيح للهبوط الذى يكاد يكون عاما والذي يصيب المرء بعد بلوغ الخمسين فى سرعته وفى نشاطه اذا أراد أن يعد نفسه لمواجهة الجو الشديد الحرارة أو الجو الشديد البرودة ؟ وهذا أحد الاسباب العامة للوفاة فى أول خريف العمر ونهايته ومع ذلك فالظاهر أنه لم يعر هذا الموضوع أحد أكثر من نظرة عابرة ومن ذا الذى بحث وسائل مراقبة ما يسمى « Waterlogging » تصلب الانسجة الهرمة وتشبعها بالماء ؟ هم قلة غير أن الرفا من الناس سعوا سعيا حثيثا وراء كشف هذا السر وما الذى يمكن عمله لابطال سريان الهرم فى كل نسيج من الانسجة المختلفة التى يبلغ عددها ألفا . ان عددا قليلا من الناس قاموا بعمل بارع فى هذا المجال ولكنه غاية فى القلة .

لم تكد تبدأ علوم النصف الثانى من الحياة . ان وسائل معالجة الذين جاوزوا الخمسين لا زالت تتطلب المزيد من التحسين ولم تبين بعد المعاهد التى تحفظ على ابن السبعين قوته ومرحه ومطامعه بل لم توضع بعد تصميماتها على الورق ولذا فنحن نقف على طرف ليلة طويلة نتطلع الى الامام ونتساءل متى ينبثق الفجر .

انه سينبثق ونحن نعلم هذا لان هذه المشكلات لم تبلغ فى استعصائها على الحل نصف ما وفق فى حله كثير من الرجال الآخرين ولسنا بسبيل تربية رجال بلغوا ألف سنة ويوما ولكننا بكل تأكيد سنأتى بحياة لهذا الرجل الذى فقد حيويته حزنا على تدهوره المقتررب .

فمن ذا الذى عليه أن يأتى بهذا ؟ هم أنتم ايها الأطباء الذين بدأت تنسحبون من ميدان العمل . ولم لا ؟ فقريبا سيبلغون الستين ثم السبعين ثم الثمانين . وسيكون محصولكم من العلم وافرا قبل أن تضطروا الى استخدام ما تعلمتم فيها الى العمل .

بل ان مائة كاملة من رجال البحوث القادرين يستطيعون أن يغيروا طعم الحياة بأكمله بعد الستين ويحتمل أن يجد نصف هذه المائة كيف تنشأ الامراض التي تنهك القوى في أواخر العمر ، وكيف يمكن التوقي منها أو السيطرة عليها ويحتمل أيضا أن كثيرين منهم يجدون وسائل استخدام النشاط الذرى على الاسس التي خطها طلائع البحوث في مرض السرطان وقد يؤيدون رأى بعض قادة البحوث الطبية من أن استخدام الذرات المحطمة في الطب سيفوق استخدامها في الصناعة .

ويدرب قليل من الاطباء للبحث العلمى فماذا يفعلون ليتمتعوا بخير سننى حياتهم . نحن لازلنا نضرب على الوتر القديم نفسه . انسحب بالتدريج عن العمل ولا تتخل عنه واسرق من العمل كل ما تحتاج اليه من الوقت لذلك الحلوة الخاصة ، ولكن أبقي معترك الحياة فالكمل يعلم أننا نشكو من نقص عدد الاطباء أنفسهم الا فى بعض مدن كبيرة قليلة .

يستطيع الطبيب المتقاعد فى كل مجتمع تقريبا أن يزاوول عمل الطب على حسب ما يهوى كثرة أو قلة ويستطيع أن يساعد فى العيادات ويستطيع أن يتولى أعمال السكرتارية فى الجمعية الطبية المحلية ويستطيع أن يقوم بأعمال المكتبة كان يلخص المقالات المهمة فى الصحف الطبية ويستطيع أن يقوم بعمل بعض موظفى المستشفى الذين يحتاجون الى التفتيب للراحة ويستطيع أن يعالج الاحصاءات المحلية حتى يقف الاطباء على سير الصحة والمرض فى دوائرهم .

ان البلاد تشكو من النقص الحطير فى عدد الاطباء وموظفى المستشفيات الاخصائيين وستظل شكواها قائمة عدة سنين وعلى ذلك فالطبيب الذى على وشك اعتزال العمل يؤدى خدمة جلى الى المجتمع بمساعدته للعيادات والمستشفيات وفى كثير من الاماكن سيرحب المسئولون بالقادم الجديد ويسمحون له أن يخصص لهذه المؤسسات ما شاء من وقته .

وأكثر ما يستدعى العجلة فى الوقت الحاضر هو العناية المنزلية بالجرحي من قدماء المحاربين ولا يحسن القيام بهذا الواجب موظفو الجهات الرئيسية فان من أوكد الطرق لتحسين الحالة النفسية ثم الحالة الجسدية للرجل الجريح اعادته الى بيته ليعيش مع أصدقائه فى بيئته التى اعتادها ويتفق فى هذا الرأى جميع الأطباء فى كل أنحاء الأرض .

والاطباء اليوم مرهقون بالعمل وكثيرون منهم يرحبون بمن يقضى معهم بعض الوقت لمساعدتهم ولا سيما بذوى الماضى الحسنى والسمعة الطبية فنظم العمل بما يتفق مع حاجاتك ورغباتك واصطد السمك ثلاثة

أيام في الأسبوع وساعد المرضى في باقى الوقت أو اصطد ستة أيام في الأسبوع وساعدهم في اليوم السابع فهي حياتك تنظمها كما تشاء لحياتي .

وابق في بلدك اذا راق لك هذا وكن مستشارا طبيا فهذا عمل يكاد يكون جديدا عليك ولكنه عمل يستطيع أن يتولاه بعد خمس دقائق شيخ مجرب يحمل لقب دكتور قبل اسمه وبعد أن تقضى شهرا في هذا العمل ستعجب كيف لم تفكر فيه منذ سنوات ؟

وانك تجد هنا وهناك مستشارين طبيين وهم يعملون عادة في المستشفيات فيعطيهـم الأطباء الموظفون سجلات المرضى ويستفسرون من المستشارين عما يجب أن يفعلوه مع كل مريض فمثلا اذا حضر مريض لعمل جراحة له شرح المستشار ما يجب أن يدركه المريض لكي يقوم من الجراحة معافى ويكاد المستشار يتكلم دائما عن نظام الغذاء والراحة ويبدل ما يستطيع ليقف القلق والاضطراب أيضا فيستقدم اليه الأصدقاء ويجمع الأخبار من أسرة المريض ومن محل عمله ليقنعه بالبقاء في الفراش حتى يستعيد صحته دون الاضرار بمصالحه الخارجية .

وبعد الجراحة يشرح المستشار سير الشفاء وسيكون بلا شك أسرع مما تخيله المريض وتنفيذا للتعليمات يشجعه المستشار على التحرك في الفراش وعلى النهوض منه والسير بضع خطوات خارجية ثم الجلوس فيه لكي ينشط كل جسمه ويعجل بعودته الى الحياة المعتادة وكلما تقدمت النقاهة يشجع المستشار المريض على قراءة الكتب القيمة ومناقشة المسائل التي يعلقها في ذهنه وكل هذا هو علاج صحيح أولى للحالة الذهنية للمريض فيزيح المريض عن صدره متاعبه ويستبين الموقف في مسائل لم يكن يحب التكلم فيها لو أنه كان سليم البنية .

ان الوفا عدة من المرضى يلزمون الفراش في المستشفى كل يوم ويمكثون به في المتوسط أقل من أسبوعين فقد يستطيع المستشار النشط ان يتولى علاج عشرين منهم في اليوم وان كنت أشك في ذلك ولو أنه عمل ثلاثة أيام في الأسبوع لوجد في أخريات عمره عملا مربحا وميأتي يوم على ما أظن توجد فيه أعمال الخمسين ألف مستشار أو أكثر يخصصون لها جزءا من وقتهم .

أفرض أن جميع المستشفيات في مدينتك بها مستشارون ثم ماذا؟ اذن انظر في المقاطعة أو في المقاطعة المجاورة ان الأمل يكاد يكون بنسبة واحد الى ثلاثة في أنك تعيش في مدينة ذات حاجة الى خدماتك وانها

تستطيع أن تنقذك اجرا عليها والاحتمال اقوى فى مايزيد على خمسين فى المائة فى المقاطعات التى لا تبعد عنك بأكثر من مسيرة ساعة تحتاج اليك فوراً .

تفتقر مدن عدة الى خدمات صحية عامة يتفرغ لها من يقومون بها ولكن الكثير منها فى حالة مالية لا تسمح لها بتحمل أعبائها فلم لا تتدبر أمر تعيين بضعة أطباء متقاعدين وبضع ممرضات متقاعدات للقيام بأعمال رجل واحد متفرغ وينقدون رواتب تقل فى جملتها عما يطلبه الرجل المتفرغ .

حقاً ان كثيراً من المدن لا تجد مثل هؤلاء الفنيين المتقاعدين داخل حدودها وان مدناً أخرى لا تستطيع أن تغرى بالعمل مثل هؤلاء الناس غير أن أكثر هذه المدن على الراجح تستطيع أن تضع برنامجاً يجسنب المتقاعدين من الشيوخ مثلاً . لم لا تعمل على أساس مركزى ثابت ؟ ولم لا تجمع عدداً متطوعاً من الأطباء المتقاعدين الذين يعيشون فى دائرة المركز والذين يستطيعون أن ينتقلوا أحياناً ؟ ولم لا ترسلهم إلى المدن التى تكون فى حاجة إلى المساعدة كلما دعت الحاجة إلى انتقالهم ؟ والأمر كله لا يعدو وضع خطة ماهرة لا أكثر من ذلك .

افرض أنك لم تجد من يحتاج اليك لا فى المستشفى ولا فى المدينة ولا فى المركز فهل تتأوه وتحمل حقيبة الجولف وتمضى إلى أول حجر للكرة لتنتظر الضابط الكبير الشيخ « هيج اب » وممرنه ؟ لا أظن ذلك ان مجالك مشحون بالفرص والكثير منها جديد جده لبن الغد فهل سمعت فى حياتك عن علاج العقل الصناعى .

صرح أخيراً علماء الأمراض العقلية الذين كانوا يدرسون موضوع النقص فى عدد الاختصاصيين أننا فى حاجة إلى أكثر من ألف رجل للعمل فوراً فى هذا الميدان الصعب وهم يخبروننا أن عدد المصانع الكبيرة التى تستخدم هؤلاء العلماء فى ازدياد وأنهم يفحصون ويعالجون المرضى والعمال الذين تنتابهم الحيات والذين يحضون على الاضطرابات وغيرهم من قوى الشخصيات الملتوية وقد وجدوا أن كثيراً من المتاعب التى يعانها رجال الصناعة من العمال تبدأ مع هؤلاء الذين لهم عقول مريضة أو ملتوية أو أصابتها إحدى الصدمات .

ألا يوحى هذا بوجود فرصة لاختصاصى الأمراض العقلية وللأطباء ممن يودون الانسحاب تدريجياً من ميدان العمل . فلم لا يبحثون عن عمل

ن بعض الوقت فى بعض المصانع الكبرى أو فى مجموعة من المصانع فى بعض المدن الكبرى وهو أفضل ؟ ان الطلب شديد والعرض ضعيف وهل يستطيع أن يعالج الموضوع خير من رجل حائز لجميع قواه ولكن مستوى نشاطه قد قل ؟

ألم تدرس أيها الطبيب علم أمراض العقل من قبل ؟ ان هذا أمر يؤسف له ! ولكن لا يتطرق اليأس الى نفسك وتنتحب . فكم من السنين قد انفقت ؟ - أه نعم ثمانيا وثلاثين وأنت تبرئ المريض ودع زميلك الاختصاصي المتمكن فى معالجة الامراض العقلية يعلمك بطريقة غير رسمية وخصص بعض وقتك للمطالعة فى هذا الموضوع بضعة أشهر وبعد ذلك ستجد نفسك مساعدا قديرا للاخصائيين لا اختصاصيا بطبيعة الحال ولكن مساعدا يستطيع أن يضطلع بقسط كبير من العمل الفنى وتستطيع أن تنشئ لك عملا جديدا مع مر الأيام .

فالاعمال تقوم على القانون والقانونيين ، وكذلك الحال فى الحكومات فالمحامى الذى يود أن يستمتع بخير سنى حياته يستطيع أن ينتقى ويختار من بين الاعمال التجارية والاعمال الحكومية ما يشاء وان يستعمل فى اختياره هذا من الجراة ما يستعمله ذو الملك والسلطان وسيجد دائما من اصحاب الملايين كل زلقى وتقرب والمحامى ذو الموارد المستقلة هو اقل الناس حاجة الى نصحننا .

ويستطيع أيضا أن يوجه نفسه الى نواح أخرى .

ويستطيع أن يصير محاميا للفقراء .

وسيرى ان كثيرا من الناس يتوقون الى أن يكونوا عملاء فقليل من يستطيع حاليا أن يتحكم الى القانون . واليك ماقاله لى أحد المحامين « ان الافلاس هو متعة رفاهية للأغنياء من المحامين دون متوآهم » (وكان يربح ٢٠٠٠٠ جنيه سنويا فى ميدان الافلاس وهو بهذا جد عليم) ويقول المحامون فى النواحي الاخرى كثيرا مثل هذه الأقوال الطريفة .

وفى مقدوره أن يياشر عملا من أعمال المعاهد الخيرية والاجتماعية وهذا أحد وكلاء الدعاوى الذين لا يقل دخلهم عن ١٠٠٠٠ جنيه سنويا يخصص الآن نحو يوم فى كل أسبوع للاستشارات العادية فى القضايا التى تباشرها الهيئات الخيرية فهو قد قضى وقته فى نزع الملكية والحجز والمتروكات ، ألم يكن واجبا عليه أن يفعل شيئا آخر بجانب هذا فيستطيع أن يقوم ببعض الأعمال الزراعية فى جزء من وقته ؟ أو يستطيع أن يعالج

بعض القضايا بين وقت وآخر مما يكون قد اكتسب فيه من قبل خبرته مع قيامه بعمل استشاري ببعض مكاتب المحامين القريبة منه أو أن يقوم بأبحاث شركات لا تستطيع القيام بها لوفرة ما لديها من أعمال ؟ وعلى قدر ما أعرف فإن الشبان تستهويهم المدن الكبيرة وكانت النتيجة أن زاد عدد المحامين على عدد العملاء ، وزاد عدد المتسكعين في الحدائق العامة على من يستطيعون دفع أجور المحامي وترتب على هذا ازدياد عدد النصابين والمجرمين . وكانت نسبة المحامين قبل الحرب في فرنسا وألمانيا تقدر بمحام واحد لكل ٤٥٤٥ من المواطنين ولكن في الولايات المتحدة كانت النسبة ١ الى ٧٦٣ على حين أن في مدينة نيويورك ٣٧٨ وكان مئات من هؤلاء انشيطين المساكين يغالبون الحياة بالعمل بعض الوقت كمعلمين خصوصيين أو خدم في المشارب والمقاهي أو وكلاء قضائيين .

ومن الناحية الأخرى توجد مئات من الأحياء المجاورة ينقصها محامون للقيام بالأعمال البسيطة الخاصة بمراجعة بوالصي التأمين وبتسوية مسائل الضرائب ووضع صيغ عقود الإيجارات والفصل في منازعات العمل بطرق التحكيم وتحصيل « السفاتج » (الكمبيالات) التي لم تدفع وجميع هذه الأعمال قد تبلغ من القلة في الكم والجزاء درجة لا تجذب إليها الشبان ولكن ما الحال بالنسبة للمحامى المتقاعد الذي يفترض أنه يحتاج الى أن يضيف مائتي جنيه الى دخله السنوي ان هذا يخطر بباله كفكرة مثالية ، وفوق كل ذلك أنه يواجه أولى الضرورات التي لا غنى عنها وانك تستطيع أن تعمل كثيرا أو قليلا بقدر ما تحب .

ولهذا فاني أعدل توصيات نقابة المحامين التي أوصت بها منذ عشر سنوات فبدلاً من حث الشبان على انشاء المكاتب في الأحياء العامرة احث الآن المتقاعدين على ذلك . واني أعدهم بأنهم يمثل هذا العمل سيقضون على الفكرة المحزنة التي تجول في نفس رجل الشارع من أن المحامين لم يوجدوا الا لخدمة الاثرياء .

وحسبنا هذه النصيحة للمحامين ، وماضرب على ذلك أحد الأمثلة اللامعة ولا أسأل عن هذا اجرا : أن الفتاة «دوروثي جونستون» تقيم في هوليوود ولا تظن أنها من نجستوم السيئنا . انه مديح صادق لامرأة استخدمت مهارتها المشروعة لمساعدة المحتاج وبطريقة فذة .

ففي الأربعين الاولى من عمرها اجتازت مسز جونستون امتحان المحاماة وأصبحت محامية بكل معنى الكلمة ولكنها لم تعلق لافتة باسمها قط .

عنيت اشد العناية بسوء حالة الالف النساء ذوات الدخل القليل في منطقة لوس انجيليس اللواتي كان يخدعن المحامون الحاملون والنصابون وكانت كاليفورنيا من زمن طويل كما تعلم مجتمع الارامل واليتامي الذين كانوا يعتقدون انهم يستطيعون ان يعيشوا بدخلهم الضئيل في الاكواخ الصغيرة التي لا يتخللها الهواء الا من خلال الجدران والتي كانوا يبعثون فيها الحرارة بأعواد الثقاب التي يسكون بها بين الابهام والسبابة ، وتهافت على هذا المكان أيضا عجائز يمتلكن بضع مئات من الجنيهات كن ادخرتها لمواجهة الشيخوخة .

ومعظم هؤلاء الناس عسير عليهم ان يميزوا بين الانسان والحيوان أو يفرقوا في حساباتهم المالية بين الدائن والمدين ، وكن يثقن بما يقوله لهن أى رجل ظريف ولا سيما اذا نظر اليهن في اندهاش متسائلا هل اخبرهن أحد من قبل بمشابهتهن لبعض ممثلات السينما المشهورات وبهذا يتسلل اليهن كل محتال معسول اللفظ ويأخذ في ابعاد الناس عنهن .

وكن يبعن الماشية في مزارع الكروم الممتازة التي كان يمكن ان تدر عليهن من الارباح أكثر مما تدره مصانع هنرى فورد . ولكنهن يؤكدن لمصاصي دمائهن انهن في غير حاجة الى المال ويكتفين بتسلم تلك الاوراق المكتوبة ذات الحبر الأخضر المودعة قبر خزائن الودائع ، ثم حلت القضية الكبرى المعروفة بقضية « نصب التين » اذ استثمرت الخادومات العجائز جميع مدخراتهن في حدائق لم تثمر ثمرة واحدة ، من التين ولم يمض طويل وقت حتى علت من اكواخ القسم الفقير من الطرف الشرقى للمدينة صرخات مدوية مولولة ثم استتظالت صفوف طالبي الخبز من الحكومة .

وعندئذ انهمكت نساء المدينة في العمل ونظمت النوادي مئات الاعضاء في فرق للبحث الاجتماعي ومن بينهن نبئت جمعية حماية الارامل . وأضافت مسز جونستون الى برنامج هذه الجمعية طيلة خمس سنوات كاملة جهودا مضيئة استغرقت وقتها في مكافحة المحتالين وجمع أدلة الاتهام ضدهم حتى انهم اما هربوا من المدينة واما سيقوا الى السجن والقليل منهم قبض عليهم ومعهم المسروقات وسلموا غنائمهم، ولكن معظمهم استخدّم المال المسروق ليدفع منه أجر المحامين . وهذا - كما تعرف - احدى المزايا العظيمة لاحتراف الاحتيال فتستخدّم أموال الغير في سبيل تخليص النفس وقد تأمر وكلاء ملاك المدينة وأعضاء المجلس البلدى ورجال الاعمال المقروض فيهم الاحترام على الاحتيال وأسرقوا أيا أسراف من جراء الارباح الطائلة التي جمعوها الى أن قبض عليهم النسوة وقد أصبحت

لوس أنجيليس - فترة من الزمن على الأقل - على درجة من الأمن
بأن يسير في طرقها في وضوح النهار أى رجل شديد الحذر مكتفيا
بمسدس واحد وصفارة بوليسية .

أما اليوم فوا أسفاه ان أنجيليس قد أمنت من خوفها كما أمنت كل
مدينة كبيرة أخرى فضلا على بضعة آلاف من المراكز الصغيرة . وانى
ليؤلمنى ان أقول ذلك ولكن التاريخ يضطرنى اليه . ان مبالغ ضخمة من
المال أصبح يمتلكها قوم لم يكن لهم رصيد كبير قبل الحرب ولم تكن لديهم
أقل فكرة عن طرق المحتالين ويزداد المحتالون جرأة فى كل يوم وبجميع
الطرق وان من الطريف أن القبى وماله سرعان ما يفرقان .

وهذا حق لا مرية فيه فبعد حرب سنوات ١٩١٤ - ١٩١٨ أصبح
كثير من قدامى المحاربين فريسة سهلة يجردون من مكافآتهم بخطط
مدروسة وكلمات معسولة وفى نهاية الحرب العالمية الثانية حذر الرجال
والنساء عند تسريحهم تحذيرا شديدا من الوقوع فى مثل هذه المشروعات فى
استثمار أموالهم ومن الانخداع بأمل الحصول على أرباح من أى نوع الا
بعد بذل كل ما يمكن من التحريات . ومع ذلك فيوجد الآن عمل فى هذا
الميدان للمحامى القدير الذى يتوق بتخصيص جزء من سننى حياته الى
مكافحة الجيش الضخم من الأشرار الذين يعملون على الحصول على هذه
المخدرات والمكافآت ، فاین المتطوعون ؟

وابداء المشورة القانونية يجب أن يجنب اليه أقدر رجال الصناعة
والمال والتجارة والحكومة كما اجتذب برنارد باروش ، فهو يشر بنتائج
أكبر من أى نشاط آخر ويعود على صاحبه بكثير من المجد والشهرة
والشرف والاصدقاء وكل هذا فى وقت أقصر ومجهود أقل وما أقل
مايحتاج اليه الانسان ليصون سمعته من فضائح صحيفة يوم الأحد .

قال ليناردو دافنشى (١) بحق : ان وضع الخطة من شئون السادة
وان تنفيذها من شئون الخدم فهل يستطيع احد أن يعبر تعبيرا خيرا من
هذا التعبير .

ان المهندس المعمارى العظيم لا يتحتم عليه أن يصنع الآجر بنفسه
وكذلك المهندس اللامع لا يستطيع أن يثبت فى جسره الخاص قضبان
الصلب بالمسامير فى القنطرة الخاصة به . وفى أيام بطولة التصوير

(١) (١٤٥٢ - ١٥١٦) من فلورنسا رسام ونحات وبناء ومهندس من أروع رجال
عصره وهو صاحب صورة لاجو كنده الشهيرة .

والنحت لم يدر بخلد جبايرة الفن أن يملثوا كل بوصة مربعة فى القماش الذى يصورون عليه ولا أن ينحتوا بمعاولهم كل المرمر من الكتلة الكبيرة التى تركز فيها حلم الفنان فأترك هذه السخافات الى الأصاغر ذوى الخيال الضيق .

ان الرجل المسن هو وحده الذى يملك تقدير المشروعات الانشائية وتخليها بالأسلوب الفخم (وأرجو ألا يبرح ذاكرتك أن المشروع هو تعهد عظيم الأهمية بالتعامل مع الناس ومعالجة المواد والموقف بحذاقيره على فترة ممتدة من الزمن وأن كتابة قصيدة من الشعر لا تعد مشروعاً كما لا يعد كذلك اظهار احدى النغمات بالصفير) ولما كان السادة ذوى نشاط أقل من نشاط الشباب كان عليهم أن يتركوا الجزء الثقيل من أعمال التنفيذ الى خدمهم وأن من آيات كبار السادة أنهم يستطيعون أن يتخلوا عن مثل هذه الاعمال . أما أصاغر السادة فلا يستطيعون ذلك وهم يفقدون ما فيهم من عظمة صغيرة كلما أنفقوا أوقاتهم على أعمال صغيرة .

كثيراً ما قيل ان أعظم المديرين هو الذى يدير منظمته ادارة يستطيع معها أن يتخلى عنها فى أى وقت مختاراً أو مكرهاً دون أن يؤدى ذلك الى قلق أى شخص أو اضطراب أى عمل ، وليذكر هذا كل متقاعد وهو يفكر فى وضع خطط عمله بعد الستين .

ان الخبرة والحكمة هما أثمن المقتنيات فى أخريات الشباب وان انساناً لا يكتسب خبرة عملية بعد قضاء نصف قرن فى الحياة حقيق بالاً يكتسبها أبداً ، فليس أغبى من الشيخ الغبى ولكن لحسن الحظ لا توجد حكمة تماثل الحكمة التى تأتى بها الأيام وان الغبى اذا اعتزل العمل تركناه لغبائه الحلو ولكن اذا اعتزل العمل الرجل المحنك لوجب على الشباب أن يطلبوا اليه النصيحة وأن يؤجروه عليها أيضاً اذا كان هذا الحكيم فى حاجة الى المال .

ولقد أتى حين من الدهر قام فيه الشباب بهذا العمل فان قول « الربى » يحدثنى عن جدته الكبرى وهى احدى رائدات « الباما » اللواتى اوجدن مونتجمرى ولما كانت قد ولدت بعد حرب ١٨١٢ بقليل فقد عرفت وهى فتاة كثيراً من الرجال والنساء الذين ولدوا قبل الثورة الامريكية بوقت طويل والذين حاربوا فى تلك السنوات المريرة والذين اتجهوا بعد أن حرروا البلاد نحو الغرب ونحو الجنوب الغربى حيث وجدوا ثروات جديدة . أما ماضيها فكان ماضى الآباء المؤسسين (Founding Fathers) وعلى ذلك كانت كلما تقدمت بها السن تعظ أولادها ثم أحفادها ثم أخيراً أولاد أحفادها .

وحوالى الأربعين من عمرها كف بصرها وكانت خلال الأربعين سنة التالية تجلس أمام المدفأة فى غرفة علوية فى منزل حفيدتها وفى ساعة معينة كل يوم تناقش كل فرد من أفراد أسرتها الكبيرة فى جميع مشاكل العاطفة والمال ، وهل يحسن أن يشتري أوعية جديدة خشبية للزبد ؟ وهل يصح أن يشخص « تومى » الى المدينة لبيع لحم الخنزير ؟ وما الذى يصنع للمهرة الرمادية العجوز بعد أن ضعفت عن جر المحراث الصغير . وهل يحسن ايداع القمح المصرف أو حفظه فى القدر النحاسية القديمة على رف المطبخ للمصرف منه ؟ واذا تقسّم السيد ادوارد يطلب يد « سلى » فهل ترفضه لأنه مدمن للشراب .

هكذا كانت تدور هذه المسائل فى عقلها العتيق كما يدور القمح فى الطاحونة ولم تكن الأسرة تتبع دائما نصيحتها لأنها كانت فى بعض الاحيان سيئة التصرف ثم انها كانت تنسى أن السكك الحديدية التى تسير بالبخار قد حلت محل عربات البريد القديمة التى كانت تملأ الطريق ضجة بعجلاتها غير أنه لم يتوقف أى انسان فى أية لحظة عن طلب حكمة الشبيخة: ان عينها فقدتا جلاهما ولكن العقل لم يفقده .

كان هذا ما يحصل فى العالم الذى ذهب والذى يحتمل أن يكون ذهابه بغير رجعة وهل يمكن ،حياء هذا الدور الصغير للأمم المباركة . أظن هذا جائزا وأظن أنكم أيها المتقاعدون من الرجال والنساء تستطيعون بعثه وتحسينه ولو فعلتم لتخلصتم أيضا من الكثير من ساعات وحدة عقيمة .

ان الشبان ينبغي لهم أن يحيوا حياتهم الخاصة بهم وأنا من أشد انصار هذه الفلسفة ولكنى لا أسئ تصورها : قد يعيش المرء حياته كلها ولا يزال يتعلم أين يكون الخير ؟ ومن حقه أن يعيش على النحو الذى يرتضيه مادام قد قرر طريقة الحياة ، ولكنه قبل أن يقررها يكون قد اطلع على بعض الكتب وتحدث مع الغرباء واستمع الى محاضرات الكلية أو جالس من هم أكبر منه سنا ممن عركوا الدهر وعرفوا حلوه ومره . ان شر ما كان يتبعه آباؤنا هو الذى اتبعوه لأنهم كانوا يأمرون ، وكان على الصغار أن يطيعوا غير أنه توجد طريقة أخرى أكثر حكمة وهى أن ينصح الكبار ويتأمل الصغار واذا ما فهم الكبار من الرجال والنساء أنهم ليسوا الا مجرد ناصحين فسيمتنعون عن فرض ارادتهم على الصغار واذا ما فهم الصغار أن كبارهم لا يحاولون أن يفرضوا رياستهم عليهم فسيستمعون اليهم فى وقار وهنا نجد علاقة بين الأجيال أفضل مما كان يمكن أن يوجد منها فى المجتمعات التى يسيطر عليها الآباء والامهات .

ان أشهر مستشاري أمريكا الذين ينصحون بتخصيص جزء من الوقت لكل عمل يشير الى كل ما في القصة التالية من مغزى : ان «برنارد باروش كان من قبل ملاكاً ثم عاملاً في شارع وال ثم من كبار الأثرياء وأخيراً مستشاراً غير رسمي لأولئك الذين يسرون دفة بلاده . والناس غير الناضجين الذين يكتبون قصصاً جديدة عرقوا منذ وقت طويل مقعد الحديقة في واشنطن حيث اعتاد هذا المستشار ان يلقي جميع من يطلبون اليه النصيحة ولا اعلم أي مخبر صحفي فكر في الحصول على نظير لهذا الرجل في التاريخ .

• ان خير كلية في العالم هي قطعة من الحشب يجلس الطالب في احد طرفيها ويجلس مارك هوبكنز في طرفها الآخر ، •
ان سنى التقاعد مقعد في حديقة يجلس أحد الشبان في طرفه وباروش في الطرف الآخر ، واكثر الساعات ثمره في حياة الكثيرين من الشبان الطموحين هي تلك التي قضوها على مقعد باروش في الحديقة لان هذا السياسي الشيخ صاغ في كلمات وخطط تنفيذية الحكمة العملية في الحياة التي اكتسبها خلال نصف قرن وياله من نصف قرن .

بدأ باروش نصائحه بتخصيص جزء من الزمن لكل عمل في سنة ١٩١٦ حينما عينه وودروولسون (١) في مجلس اندفاع القسومي وكان هذا عملاً استشارياً محضاً وكانت سنة حين ذاك ستة وأربعين عاماً فقط فلم تكن لا هي ولا نشاطه تستطيعان ان تكبحا رغبته في العمل . وعلى ذلك ففي سنة ١٩١٨ كان يدير مجلس الصناعات الحربية وفي هذا المنصب نفذ البرنامج الأكبر للاقتصاد الحربي تنفيذاً باهر النجاح وبعد فترة هدوء عاد الى واشنطن لمساعدة الحكومة في معركتها ضد الكساد العظيم الذي بدأ من سنة ١٩٣٠ وكان روزفلت (٢) يطلب اليه المشورة في كل شيء تقريباً وأصبح باروش دون ريب المستشار البارز في عهد روزفلت (اما هاري هوبكنز والقاضي صامويل روزمان فقد كانا بطبيعة الحال أكثر من مستشارين) •

(١) Wilson, Thomas Woodrow (١٨٥٦ - ١٩٢٤) كان من رجال التعليم والسياسة

الأمريكيين وعين حاكماً لنيوجرسي سنة ١٩١٠ وانتخب رئيساً للولايات المتحدة

من ١٩١٣ الى ١٩٢١ وأسس عصبة الأمم .

Roosevelt Theodore (١٨٥٨ - ١٩١٩) تولى رئاسة الولايات المتحدة أول مرة

سنة ١٩٠١ وأعيد انتخابه سنة ١٩٠٤ .

والآن وقد بلغ هذا الشيخ الفذ السادسة والسبعين فما زال يستطيع العمل عدة سنوات بأذلا فيها جهده بمعالجة أكبر نقص في الحياة الأمريكية .
أن عبء دولاب العمل « الروتين » هو الذى يقع على عاتق كل مدير مسئول ويمنعه من التفكير الصحيح فى مشاكله المهمة وقد صور هذه الحال كثير من الناس بالعبارة التى وجهوها أخيرا الى آرثر كروك بقولهم « ان واشنجنجتون ليس لديها الوقت الكافى للتفكير » .

اعتدت أن اسمع مراسلين عقلاء مسنين فى نادى الصحافة بواشنطن يقولون هذه العبارة بالفاظهم الساخرة بعد قضاء عمل شاق طيلة اليوم واعتدت أن اسمع وزراء يرددون صداها وأعرف أن ثلاثة من رؤساء الجمهورية منذ ذلك الوقت تفوهوا بهذا الكلام واليوم يردده آرثر كروك معقبا به على أقوال وتاوهات وصرخات الألم من سياسيين ارتفعت بهم المناصب وسياسيين هبطت بهم ، وربما كان واجبا أن يعاد طبع تقريره بملايين النسخ وتوزيعها على الثمانية عشر مليونا من المواطنين الذين يميلون الى التقاعد لأنه يصلح أن يكون أساسا متينا لبرنامج يتبعه الرجال والنساء الذين جاوزوا الخامسة والخمسين ممن وهبوا الذكاء وقوة التفكير .

يقول مستر كروك فى مجلة نيويورك تيمز (١) الصادرة بتاريخ ٩ من ديسمبر ١٩٤٥ ما يأتى :

إذا اضطرت الظروف الى اتخاذ قرارات فى ظروف شديدة فان نظامنا الحكومى يسمح لمعظم الكبار من رؤساء المصالح بالوقت الكافى للتفكير ويدخل رئيس الجمهورية فى عداد هؤلاء الرؤساء .
والأمل ضعيف فى ادخال تعديل جوهري فى هذا الشأن اذا كانت النتائج خطيرة ولكن لا تدعو الحاجة الى تسويتها على وجه السرعة فان حرية التفكير تتجلى قيمتها لهؤلاء الذين تعلموا كيف يفكرون وهم ليسوا كثيرى العدد .

ان الاتجار بالسياسة يدين للغريزة بالكثير وكذلك سعة الحيلة وسرعة البديهة ، وان قضاء الحياة فى هذه التجارة يمينت الذهن باخضاعه للتفكير المنظم .

ان نظام المؤتمر البرلمانى عامل سىء لان مجلسى النواب والشيوخ لا يعقدان جلسات موحدة ويضطر الموظفون أن يقضوا عدة ساعات فى لجان كل منهما مع تكرار العمل فيها .

(١) The new york times احدى صحف الاخبار بمدينة نيويورك صدرت لأول

ولقد أخبرني أحد الوزراء انه كان يحضر كل صباح ومساء طينة خمسة أيام متتالية الى الكابيتول (١) وكان في هذا الوقت يسأل أمام أربع لجان الأسئلة نفسها وفي الموضوعات نفسها وكان في الوقت نفسه مطالباً - بشدة باتخاذ قرار وزاري في مسألة عظيمة الاهمية وكان لا يستطيع أن يتخذ هذا القرار إلا بعد أن يقرأ ألوقا من صفحات بعض السجلات وكانت النتيجة أنه اتخذ قراره دون أن يكون متمكناً من الموضوع وهو ما كان يتطلبه الواجب ويستدعيه الحزم . وهذا يحدث كل أسبوع في واشنطنجتون .

يقول وزير الحرب روبرت بترسون : « ان متوسط مقابلاتي في اليوم يبلغ عشرين مقابلة وهي تبدأ من الثامنة والنصف صباحاً وتستمر حتى الساعة السابعة والنصف مساءً ومع ذلك فدقتر فواعيدي لا يزال مشغولاً لأنني في ثلاث امسيات تركت المكتب للاشتراك في حفلات عشاء عامة أو للتحدث في الراديو وقلما تتاح لي ساعة أو ساعتان في اليوم للتفكير فيما يعرض من مشكلات وعلى الرغم من هذا فان هذه الفترة من الوقت لا أستطيع التفرغ فيها للتفكير لأنها انما تتألف من فترات من خمس دقائق الى عشر بين مقابلة وأخرى » .

يقترح وزير البحرية جيمز فورستال أن يعين موظفون مدنيون ليربحوا رؤساء المصالح من واجباتهم نحو مراسلي الصحف والراديو ونحو رجال السياسة وهو يعترف أن هذا النظام قد لا يكون خير حل للموقف . ولكنه خير ما طرأ على ذهنه .

ان قليلين من رؤساء الجمهورية هم الذين استطاعوا أن يجنوا وقتاً للتفكير ولذلك فان الشئون القومية كثيراً ما تعالج بطريق الحسـس والتقريب . ويرجع السبب في هذا الى سوء النظام فما الذي يستطيع المسنون من الناس أن يفعلوه في هذا ولو كان في أيديهم الوقت وفي المصارف المال .

قد يفعل الآلاف منهم ما يفعله باروش ولدينا العدد الكافي من مقاعد الحقائق ولكن علينا أن نبحث عن العدد الكافي من الشبان لكي ينصتوا . ان اقتراح فورستال بتعيين موظفين مدنيين يضطلعون بالعمل الدبلوماسي اقترح سليم في حد ذاته غير أن الحاجة أمس لا الى التقليل من

(١) الكابيتول Capitol اسم مبنى المؤتمر الفدرالي للولايات المتحدة في واشنطنجتون وهذا الاسم مأخوذ من اسم معبد جوبيتر بروما القديمة وقد كان مقامة على التل الكابيتولين وكان به مقر الحكم .

«الروتين» ولكن الى الزيادة من النصح في ظروف تمنع مقاطعة الحديث وتغرى بالسكون فلا يوجد الا طريق واحد للتفكير وهو الهرب من المكتب حيث تدق باستمرار التليفونات وحيث يدخل صغار الموظفين ومعهم المذكرات ويدخل كبارهم بغير استئذان ليلقوا على مسامحة آخر نكتة قيلت عن أحد كبار القضاة ، فاهرب الى أحد الامكنة المنعزلة واجلس مع رجل أكبر منك سنا وأوسع خبرة وبثه شكاواك وأنصت اليه وأجب عن أسئلته وألق حبا الى الحمام وتصدق بفلس على أحد المتسولين وفك أزرار صدريتك وامدد ساقيك لأن الجسم المتراخي يتقبل الأشياء اما الجسم المتصلب فهو اسوأ من سلك التليفون المنقطعة عنه الحرارة .

افرض أن كلا من المائة رجل الأكثر شهرة في لندن أو واشنطن له مقعده في الحديقة أو في ساحة بليارده الخاصة أو في قاربه البخاري وافرض أن كلا منهم يستطيع أن يتصل تليفونيا بأي شخص من بين العشرين الذين اعتزموا العمل من رجال الاعمال والعلماء والمهندسين والسياسيين وغيرهم ويطلب اليهم الحضور الى مكان الاجتماع السري في ظرف عشر دقائق وأن يكونوا مستعدين لقضاء نصف يوم معه وافرض أن كلا من هؤلاء المستشارين الذين ينصحون بتخصيص جزء من الوقت مضطر للحصول على أجر يبلغ مائتي جنيه سنويا للاقامة في أشهر مدن العالم ليكون مستعدا لتلبية أي نداء من الحكومة وقد يكون محتاجا الى أجر اضافي لما يؤديه من أعمال من وقت الى آخر واذن تجدني مستعدا لأن أوقع اليوم ضمانا بأن الحكومة ستدخر ألوف الملايين من الدولارات في العام وأن الاضرابات والاعتصام بالدور ستقل كما تقل فترات الكساد التجاري والحروب ، واتعهد برد المال إليك اذا لم تقتنع .

ان الأمة لا تستطيع الحياة اذا كان نصفها مرهقا الى حد الاعياء ونصفها متراخيا في الكسل وعلينا أن نفك الاسرى وان نحمل الكسالى على العمل وليس يقنعني ترقيع العاصمة ولكني انقل اعلان التحرير هذا الى كل مصنع ايضا ، واني أود أن اغمس انف كل رئيس في مداد مطبعتنا لأن متاجرنا ومصانعنا الكبيرة تحتاج الى مستشارين لبعض الوقت كما تحتاج اليهم الحكومة ولدينا الأدلة الكثيرة على ذلك .

أخبرنا أحد أصحاب الاعمال الكبار الغيورين على أعمالهم انه منذ زمن بعيد لم يستطع أن يجد شبانا يوليهم الاعمال الرئيسية ولقد قال هنري فورد « لا يوجد العدد الكافي من العقول التي لم تبلغ الخمسين سنة للقيام بأعمال الادارة التي تحتاج اليها الصناعة » وكان فورد يبلغ

حين ذاك السابعة والسبعين وقال ان نحو نصف عماله كانوا فى سن الاربعين وما بعدها وكان القليلون بين الثمانين والتسعين (كان اسنهم حين ذاك فى السابعة والثمانين) وقال انه كان يفضل المسنين لانهم دائما ذروا أصالة فى الراى وتجربة أنضج وشعورا بالمسئولية اعمق .

لو صدق فورد فى قوله هذا فما تكون الحال ؟ وما اسخفنا جميعا حينئذ لو توقفنا عن العمل فى سن الستين أو الخامسة والستين !. اناعلى وشك ان نخطو خطوتنا الواسعة لا أن نترك الميدان فى برودة الموتى ، ان كل فلسفة العمل والنجاح والتدريب تقوم عليها رهوس مخطئة لاننا نطيل مدة الطفولة لأطول زمن ممكن ثم نسوق الشبان والمراهقين كما نسوق الرقيق ثم نطرد ذوى الأعمار المتوسطة بمجرد عجزهم عن متابعة الخطو الذى كانوا يخطونه وهم فى الثلاثين . فما النتيجة ؟ صبية فى عهد الطفولة لا يتخلون أبدا عن طرقهم الصبيانية وعمال شبان مجهدون ومتهدمون وهم فى مستقبل العمل وأكدهاس من حطام الحياة تتكدس حتى تبلغ الجبال طسولا من الرجال والنساء الذين لا يكادون يبلغون اقصى قواهم ثم شيخوخة خاوية حزينة فهل هناك ما هو اسخف من ذلك ؟

لو أن الرجال الحبيرين يظلون يعملون بعد الستين لوجب عليهم ان يقلوا من العمل لانهم بذلك يستخدمون مهارتهم وتجاربهم فى حالات كثيرة كمستشارين لبعض الوقت وواجب علينا أن ننشئ بين المراهقين بالعمل والذين لا يعملون عملا كافيا طبقة جديدة من ذوى الحزم يقتعدون مقاعد الحدائق لانهم سينقذون المراهقين من نتائج تفكيرهم العاجل الزلق وينقذون أنفسهم من مصير خير منه الموت وهو ملل الذهن الحامل .

ولتاخذ الحكومة أولا مستشارى بعض الوقت ثم ليكن الاختيار الثانى لرجال الاعمال وسيتبقى بعد ذلك فرص لآلوف من الرجال والنساء ينصحون لمنفذى الاعمال فيما لدينا من ألوف المشروعات عديمة الكسب وما أشد تنوع القرارات المطلوبة فى هذا المجال فدور أداء الديون تحتاج الى من ينصحون قادتها فى عشرات الموضوعات كل شهر وكذلك دور العجائز والكنائس وفرق الكشافاة وجمع كثير مما قد يذكره أى انسان .

ولن يستطيع أن يتقاضى الناصح اجرا الا من القليل وعلى ذلك فهذا العمل لا يستطيع أن ينهض به الا من يسعدهم الحظ بتخصيص جزء من وقتهم لأدائه بغير مقابل ومع ذلك فلدينا عشرات الآلوف من أمثال هؤلاء السعداء والكثيرون منهم يقضون الليل يؤرقهم التفكير فى كيفية قضاء

اليوم التالي وفي الوقت ذاته يقضى عمال كل الوقت في حقول الكروم
الكثيرة كل يوم مجهدين مهمومين وهائذا أعيد صرختي وأقول :

- فكوا اسار الأسرى واحملوا الكسالى على العمل ،
- واطنكم ستسمعون هذه الصرخة المتكررة مرة أخرى .

ان مئات من الرجال القريبين من المراكز العليا في الأعمال التجارية
الكبيرة لا يملكون من الوقت اللازم للتفكير الا أكثر قليلا مما يملكه
الموظفون المرهقون بالعمل فهم في حاجة الى مستشارين وان لم يعترفوا
بها خشية النيل من كرامة نفوسهم على أن الزمن سيضطربهم الى الاستعانة
بالشيوخ .

وان لم يعجلوا بهذه الاستعانة فقد يجنون هؤلاء الشيوخ منهمكين
في اسداء النصيحة للشبان كما كان يفعل بن فرانكلين Beh Fyanklin
في خير سنيه وهو لم يقتصر على الشبان بل كان ينصح للشيوخ كذلك
وكان ينصح للحكومة ، وقد لعب دورا في سنوات أمريكا الانشائية حدث
عنه ولا حرج . واذا كان واشنجتون أبا بلاده فان « بن » جدها ولقد
استخدم في خلال النصف الثاني من حياته ذكائه وحكمته ومعلوماته
الداخلية في ألف مشكلة ومشكلة مما كان يحير ألباب الساسة . ولن
تستطيع ان تذكر اسم رجل آخر احسن استخدام خير سني حياته
لمصلحة اخواته خيرا منه .

في السنة التي تلت الحرب الف كثير من رجال الاعمال جماعات
متطوعة تنصح قدامى المحاربين الذين يبحثون عن أعمال ووظائف وفرص
وكان الذين ليست لديهم العدة اللازمة للعمل الذي يريدونه يدرجون
عليه أو ينصحون بالتخلي عنه وكان الذين يوزهم المال يزودون به أو
يحولون الى حقول للعمل متاحة لذوى القليل من النقد . وفي الجملة قام
المستشارون بعمل جليل ولكن لم التوقف عند هذا الحد ؟

والشبان في حاجة دائمة للنصيحة التي يحصل عليها قدامى
المحاربين فهم يغادرون المدارس جاهلين حقيقة الحياة وممثلين ترهات
ومخافات فمطالبتهم بأن يضعوا جهودهم المجردة من المساعدة للقيام بعمل
تجاري حر تشبه استعمال هذه العبارة الحلوة في وصف مقامر يضع ماله على
عجلة الروليت وهي تدور في الظلام . ويفقد الكثير من هؤلاء الشبان كل
ما يملكون ويتألم لهم الجميع واذا لم يكن علينا أن نسند المفلس لكان
علينا أن نعيده ثانية الى عمله وسرعان ما نضطر الى تكرار هذه المرحمة
فالرجل الذي يكتسح من الميدان لجهله يصعب أن يفيد نفسه ما لم يتعلم

كيف يفيد من أخطائه وكلمنا عجل الحكماء بتبصيره كان ذلك أعود
بالخير علينا جميعا .

كان ينبغي أن نجد في كل مدينة منظمات صغيرة من عمال بعض
الوقت الذين أخذوا في الاستعداد لترك ميدان العمل يضطلعون بأعمال
الاستشارة هذه وواجب عليهم ألا يبدوا آراءهم إلا فيما يحذقون من
الاعمال ، وعليهم أن يقابلوا جميع الطلاب الناشئين ويستمعوا إلى قصصهم
ثم يحولهم إلى الاختصاصيين من المستشارين سواء اعتزلوا العمل أو لا
ويجب ألا تكون النصيحة لاذعة ولا سطحية ولا عامة بل يجب أن تكون
شخصية وأقعية دقيقة ، والا كانت من النوع الذى يشير إليه المثل
القديم الذى يقول ان أبخس الأشياء ثمننا فى الأرض النصيحة المجانية .

وهنا فرص مهمة لخمس وعشرين ألفا على الأقل من ذوى المقدرة
الذين جاوزوا الخمسين .

وإذا كنا نقدم مستشارى بعض الوقت لموظفى الحكومة ولكبار رجال
الاعمال وللشبان الذين على وشك مزاولة التجارة فلم لا نقدم هذه الخدمة
نفسها لعمال الشركات ولكن على أى وجه تكون ؟ لقد أجيب عن هذا
السؤال أولا فى الصناعات الكهربائية بأنه العديل الأدبى للحرب .

فالحرب تستخرج خير ما فى كثير من العمال ولكن كيف ذلك ؟
إنها تضيف على أحقرهم شعورا بأنه ذو أهمية كبيرة والعامل الذى لم يتلق
حياته كلمة طيبة من صاحب العمل الذى ذهب بلبه حب المال يجد على
كل لافتة أن الوطن فى حاجة إليه وإن عليه أن يستخلص النصر من أنياب
الهزيمة بأن يبذل خير ما تنطوى عليه نفسه فهو يتجه إلى مصنع يعامله
كل من فيه من المدير فنازلا معاملة الجندي الذى هب ينقذ رفيقا له ضاق
عليه الخناق . والاحاديث النفسية التى يسمعها تفتح أمامه عالما أكبر
ينتمى هو إليه ويستطيع أن ينقذه ويحسن أحواله وعلى الجملة أنه لم يعد
العامل رقم ٦٥٧٢٢ فى الإدارة حرف ج بالمبنى الشمالى بل أصبح الآن
جون دو القاطن بشارع المهرست .

ولكن كيف ينقل هذا إلى زمن السلم ؟ دع من هم أكبر منك منا أن
يفكروا فى هذا الواجب الدقيق دهرا أو دهرين وإنك لتستطيع حله ولكن
ليس بين عشية وضحاها فليس من اليسير أن تقنع رجلا بأن له اعتبارا
وهو متوجه للعمل فى قطعة صغيرة من أمشاج المعدن ثم يصقلها أعدادا
لتركيبها فيما بعد فى مقص العشب الذى يشحن مكدها فى القطارات
الحديدية ليباع إلى أحد متاجر الهند ولكن المحارب القديم يستطيع إذا

كان رقيق الحاشية أن يعيد الأمور الى نصابها والكل يتوقف على الاتصال الشخصى فليدرك العامل انه شخص له اسم يعرفه رؤساؤه وانهم يفكرون فيه كشخص آدمى وليعرفه المستشار لبعض الوقت وليعرف أهله ومطامعه الشخصية ومشكلاته فمع الزمن يظهر عدل الحرب الادبى .

يحتاج العمال الى النصيحة ولكن الأسر فى حاجة اليها أمس ، واشد الجميع اليها حاجة الشبان الذين يفكرون فى الزواج فكلنا يعلم أن عشرات المؤثرات كانت تعمل على تقويض الحياة المنزلية وتأجيل الزواج وتحديد النسل وازراق السلطات العامة بأنقاض هذه العوامل المخربة ولم يسبق قبل مثل هذا التيار من الأحداث المجرمين وقد بلغ عددهم فى بعض المدن الأمريكية أربعة أضعاف ما كان عليه بعد الحرب العالمية الأولى وقد بلغ فى لوس انيليز عدد الزيجات المحطمة أكبر رقم سجلته مقترنا بمائة وسبع وسبعين دعوى بالطلاق والبطلان والفرقة رفعت فى يوم واحد وتبدل البلاد طراً كل ما فى وسعها للحاق بلوس انجيليز .

ان فرقاً ثلاثاً تطلب المساعدة : الشبان الذين يرغبون فى الزواج ، والمتزوجون حديثاً الذين يرغبون فى الافتراق ، والمنسئون الذين تركهم أطفالهم وأقاربهم وكل فرقة تطلب نصيحة مستشارها الخاص ذى التجارب الواسعة والحكمة الكبيرة العميقة ونحن مغذو السير نحو تقرير نظام قومى واسع النطاق بتعيين مستشارين فى دور القضاء يعالجون شئون طائفة أو أكثر من هذه الطوائف .

فعلى أى وجه تعد العدة لهذه الاستشارات ؟ لقد أخبرنى دكتور بول بوبنو Dr. Paul Popenoe مدير المعهد الأمريكى لصلة الارحام Family Relations انه ليس فى الاستطاعة الاجابة الآن عن هذا السؤال ويشرح قوله بما يأتى :

« ان اسداء النصيح فن وعلم على قدم المساواة فكثير من اطباء الامراض العقلية أو حملة الدكتوراه فى علم النفس أو الاجتماع يقدمون أسوأ أنواع النصائح ، بيد أن النصيحة النصوح قد يقوم بها نساء رجال الدين أو مدربو كرة القدم أو كاتم سر جمعية الشبان المسيحية أو الزائرة الاجتماعية ويكاد يكون هؤلاء الاشخاص هم الذين يقومون بالنصح والارشاد » .

وماهى فرصة مستشارى كل الوقت ؟ يقول دكتور بوبنو انها فرصة ضئيلة وان أكثر النصيح يقوم به « عمداء الكليات ورجال الدين وأطباء الأسر وعشرات من طوائف الناس الأخرى ويتألف كثير من عملائهم ممن يحيلهم الأطباء عليهم » .

وهذا كله يشد من أزر مستشار بعض الوقت فهو لا يحتاج الى عمل يشغل كل وقته ولما كان قد قطع في الحياة عددا كبيرا من السنين فقد أصبح في امكانه أن يحرز الثقة أولا من الاطباء ثم ممن يحيله عليهم الاطباء وليس ما يضطره الى الاعلان للحصول على عملاء ثم الاستهداف للصعاب التي يشير اليها دكتور بوبنو وهي الاعلان بأساليب تعدها صناعة الطب مجانية لمكارم الاخلاق .

ان طريقة الابتداء هي الابتداء : عرف الجيران بما تصنع ، ووقف عليها محرر الجريدة المحلية ، وشجعه على كتابة مقالات رئيسية على هذه الحاجة فتثبت بذلك قدمك ثم قف حيث ينتهي نشاطك ولا تسعه مقدرتك المالية وسيأتى عليك حين تجزيك فيه المدينة ولكنك يجب أن تبدأ كما بدأ سنتا كلوز (١) Santa Claus من الطفولة .

تستطيع المرأة أن تتخذ خطواتها الاولى بسهولة في أكثر الميادين اهمالا ولتسمه « القلوب الوحيدة » واسخر منه اذا استطعت ولكن اعتذر بمذلة فيما بعد فهو أحد التبعات الخطيرة التي تواجه الآن أطباء العقل وموظفي الاصلاح الاجتماعي فلقد ولت المنازل القديمة وتقام الآن مساكن تكاد لا تتسع الا لزوج وزوجة وطفل وليس للآباء والامهات مكان ينامون فيه فيخرجون ويجدون في الاحياء المجاورة حجرات مفردة واذا ما برى الشتاء عظامهم بحثوا عن مناخ أكثر دفئا وأخذوا في التجوال والتطواف وما أشقى هذه النفوس المضاعة ولا يدرك مدى ضياعهم المروع الا من تحدث منا معهم جلوسا على مقعد احدى الحدائق في ضوء الشمس في فصل الشتاء .

يخبرك بعضهم كيف انهم كانوا يتضورون جوعا في المدينة الكبيرة وانهم شخصوا الى هذه القرية الدافئة ليحصلوا على ثلاث وجبات في اليوم وضياء الشمس ينصب عليهم ويخبرك بعضهم انهم لم يستطيعوا أن يتحملوا أن يكونوا على مقربة من اطفالهم الذين شبوا عن الطوق ولا يدعوا للعشاء في أحد امسيات الاحاد ولو مرة كل شهر ويخبرك البعض كيف ذهب الواحد اثر الآخر في سنوات قليلة فماتت الزوجة ومات الولد وقتل ابن الاخ في تونس وأصيب الاخ بالجنون فاعتقل ورحل ستة من قدامى الاصدقاء واصبحت المدينة القديمة مفرقة بما سادها من سكون وغشيتها من وجوه غريبة .

(١) بطل من أبطال قصص الاطفال ويصور على هيئة شيخ سمين مورد الوجتين يحمل الهدايا الى الاطفال الطيبين ليلة عيد الميلاد .

وساتنا كلوز تعريف لاسم سانت نيقولاس القديس الذي تمده روسيا قديسها الحارس ويقال ان من كراماته انه قدم بأسلوب معجز صدقات لثلاث فتيات فقيرات.

اعتادت امرأة أعرفها ممن يزاولن التجارة أن تقود عربتها كل صباح
عطر الشاطئ وتبسط ملحفة من الصوف وتستعرض عمل يومها ساعة
أو ساعتين قبل أن تتوجه الى مكتبها وكان يشغلها أولا الخطابات والبرقيات
والتقارير ولكن بعد أسبوع أو اثنين أخذ الناس يتهادون الى الشاطئ
ويقفون حولها ثم يبدون ملحوظاتهم عن الجو والحرب وكان بعضهم يقعد
بلا دعوة ويثرثر وكانوا قبل أن يفرغوا من كلامهم يعترفون بأنهم يشعرون
بالوحدة وانهم فى حاجة الى التحدث الى أى كان لأن أصدقائهم على بعد
مئات من الأميال وانهم اذا لم يتحدثوا أصابهم الخبال .

وكانت صديقتى تعطف عليهم فدعت البعض للشاي ووجدت
أقاصيصهم صادقة كل الصديق وكانوا من ذوى « القلوب الوحيدة » وكان
الزمن قد اختلس بعض الاصدقاء واختلست الحرب بعضا آخر وأبعدهم
ذلك عن الارتحال الى الباقين فألفت صديقتى مجموعة صغيرة منهم وتركتهم
ومشروعاتهم الخاصة وقد ملأ نفوسهم أسهم بعضهم ببعض بما هو أكثر
من الغبطة .

وحاولت أن تعود الى شاطئها الصباحى ولكنها اضطرت الى التوقف
عن ذلك لان عدد « القلوب الوحيدة » الذى أخذ يتردد على الشاطئ زاد
زيادة كبيرة .

قد يظن بعض الناس ممن لا يتجاوز سن أكثرهم الأربعين أن هذا
شئ يدعو للسخرية وقد يكون هذا إحدى مآسى الحياة الباقية على
الأيام . فماذا تستطيع التقاعدات أن يفعلنه حيالها وكيف يستطعن
استخدام بعض وقتهن لمساعدة هذه الارواح الوحيدة المضاعة سواء كان
ذلك بربح شخصى أولا .

وقد دهش كثير من ناشري صحف الأخبار حينما علموا أنهم
يستطيعون اكتساب القراء بمساعدتهم « القلوب الوحيدة » أكثر مما
يستطيعونه بآية وسيلة أخرى معروفة وسيسيكسب أى محرر ممن
يختصون بالمساعدة والنصيحة الأمينتين الصحيحتين للرجال والنساء
الوحيدين انصارا أكثر مما يكسبه انصار الرياضة البدنية ومن السهل
التكهن بما يقع لمن يحترف النصيح والصدقة لهؤلاء الناس : ستحل
به النكبات قريبا .

وليس لنا حتى الآن وعلى حسب ما أعرفه الا قليل من الاخصائيين
المحترفين فى «القلوب الوحيدة» غير أن مجتمعنا كلما نضج وجد بكل

تأكيد رجالات ونساء يزداد عددهم باطراد ووجد في هذا العمل مغامرة مفيدة لذينة بل مجزية ولست في حاجة الا الى تذكر قليل من مثل هذه الوقائع لكي تستوثق من صحة هذه الدعوى .

ان كثيرين ممن جاوزوا الستين رقيقو الحال بلا اصدقاء او قليلو الاصدقاء واغلبهم تموزهم الموارد الداخلية التي تعينهم على ان يشغلوا اوقاتهم بما يثير اهتمامهم وهم ينتفضون من برد الظلال التي تضيفها عليهم السامة والخمول وهم اولئك الذين يحيلون الحياة بعد السبعين شقاء وسيأتي زمن ننشئ فيه جيلا يقل فيه مثل هؤلاء البائسين المنكودين اما اليوم فنحن مسئولون عنهم وعلينا ان نعين بامرهم بشكل ما .

سيجد الناصح الذكي عملا مفيدا لمن يستطيعون العمل ولهوا سارا لم لا يستطيعون الا اللهو وسيبذل جهد طاقته لبقائهم في مجرى الحياة الراكدة المتخلفة ويدفع بهم كلما تيسر الى التيار الجاري .

ان الذين اضعوا انفسهم في سنوات النشاط من اجل الناس ومشكلاتهم سيلمعون اذا ما قاموا باسداء النصيح للمحبين من الشبان ولذوى البيوت الكسيرة والقلوب الوحيدة وانج أعهد بهذه القضايا للمدرسين والمرضات والاطباء والقضاة ورجال الدين ليختصوها ببعض وقتهم واراني محاييا لهم لانى رأيت رجال دين متقاعدین يعملون سنوات هدة مما يدعو الى امان النظر وكلما لمحت المطران المتأنق وهو يجرع النبيذ في نادى الجولف اتساءل : الا يزال في العالم من يشبهون هذه النافورة المتدفقة العجوز .

نعم لا بد من ذلك ولكن الجنس البشرى على ما فيه من سوء لا يمكن ان ينحط الى هذا المطران ونبيذه .

لقد اُسِمته النافورة المتدفقة العجوز لان الشبان من رجال الدين حوله هم الذين اطلقوا عليه هذا الاسم بعد ان التقينا به لأول مرة في أحد المطاعم ذات صباح قارس البرد وكنا توجهنا اليه لنتناول وجبة الغداء مبكرين وكان هو قد توجه اليه ليتناول وجبة الافطار متأخرا وكان قد ركب النهر متجها الى منبعه ليحل محل قسيس طريح الفراش بسبب ذات الرئة وكان يشبه الهنود لنحافته وسمرته معانه اسكتلندى قح وكان قد ذهب الى الهند وهو حدث حيث كان يعمل في احد مزارع الكرم الى ان قال له رئيس الادارة : « احسنت صنعا ايها الخادم الطيب الامين » . واعفاه من العمل بمعاش يكفل له حسساء الحضر وشراب

السعال فى حجرة علوية خلفية فى أحد مخادع النوم بمعهد تعليم دينى .

انظر كيف يتدفق : انه يقص عليك قصصا غريبة من التلال فى فصاحة غريبة ويحكى حكايات عن البنجال Bengal وجفرات Gujarat وبنجاب Punjab وكان يتلأأ وجهه بضوء الذكريات ولكننا لم تكن نلاحظ ذلك بسهولة لاننا كنا مأخوذين بسحر الرواية .

لقد كانت غريبة وطريقة وكانت تروى بأسلوب عذب لان النافورة المتدفقة العجوز كانت تقذف بالكلمات من حولها كما يقذف الساحر كريات البليارد لانه تمكن من اللغة الانجليزية بعد ان ظل يعلمها للهندوس سبعة وعشرين عاما وكان يزين نطقه لهجته الاسكتلندية وتلفظه حرف الراء من اصل الحلق وكان يتمتع بموهبة خارقة للعادة فيتكلم على هامش الموضوعات وكان كل ما يقوله يبدو وكأنه صادر عن جهاز سرى منظم التفكير واننا لم نسمع من قبل شيئا كهذا .

وبعد شهر آخر كان النافورة العجوز يتحدث فى جميع الكنائس عن الهند ولم يكن يسأل مالا ولم يقال فى اطراء البعثة التبشيرية وانما كان يقول ما كان يود الناس سماعه وكان يقوله بأسلوب بديع ولم يكن يتصنع الخطابة بل يتكلم بحسب ما هو مرسوم فى نفسه من خطوط عريضة لموضوعه ثم أخذ يزور المسنين والزمنى فى ثلاث قرى من قرى الكهان (أبروشيات) وكانوا يصحبونه ويقدمونه الى الناس لتقديم الصحيح وابتداء من هذه المرحلة تسلم العمل فكان يعظ كل يوم احد بالنيابة عن بعض صفار القسس فى القرى ممن يرغبون فى الاستراحة ذلك اليوم وكان ينتقل فى عربة على ان بعض الزارعين يقسمون اثم كثيرا ما راوه ممتطيا صهوة جواد ينشد الاناشيد الدينية لله العلى فى حين تقفز العربة الخالية فوق الحفر والحجارة ثم عرفنا بعد زمن صحة هذه الاقوال .

أصاب المرض أحد الرجال فى المدينة ولم تستطع زوجة أن تدير مطعمه الصغير فى احد الطرق الجانبية فى أحد اطراف المدينة ولكن النافورة العجوز استطاع هذا الامر ففى غضون ثلاثة اسابيع كان يطهو الطعام ويقدمه وهو مرتد ميدعة ثم ان أحد الكهان المنتمين لمذهب لوثر المصلح الالماني البروتستانتى اضطر الى أن يغيب عن جمعيته الدينية

الالمانية فى البلدة المجاورة يوم اءء لوفاء اخية فءاة فالفى النافورة العءوز أشهر موعظة ألمانية قىلت فى بلاد ءون وزلى (١) John Wesley وقء سمعت ان الالهالى لا يزألون يتءءءئون عنىفا فى فزع وطلب اءء أساتنة تارىء الكنىسة فى المعءء الءىنى المءلى الى النافورة العءوز ان ىءل مءله مءة أسبوعىن واخبرنى الطلاب انهم كانوا ىتمنون ان ىتءارك الله برءمته السرمءىة أسناءهم فىءءاره الى ءواره لكى ىواصل النافورة العءوز تءرىس مائته .

وبعء ستة أشهر عرف الناس كلهم ان النافورة العءوز كان الرجل المسعف لاتباع وزلى وللءمعىات الاخءوىة الءىنىة ولبعض شىع البروتستانت فى مقاطعات أربع متءاءورات وكان ىستطىع أن ىعزف على الارءون ذى الاتابىب بشكل مقبول وان كان بعض السىءاءات ىكمن ضءكمهن وكان ىستطىع ان ىعظ بءمس لفات ولقد فعل هذا فى مءىنة المصانع فى الءنوب ءىء ىشقى فى العمل عمال من عشرين ءنسا واذا كان شىء لا ىستطىع فعله فان هذا الشىء هو أن ىءلس بلا ءراك وىشهد العالم وهو ىمر به .

لم ىأت الىه العمل ابءا بل كان ىقتفىه الى مرىضه والظاهر انه كان ىتنسم التبعات كما تنسم الكلاب السلوقىة الثعالب وكان ىقضى الساعات معنا نحن طلاب الكلىة الصءار ىشرح مءءلف المتراءفات والفارق بىن اللغة الهندسئانىة وشىء آخر واسباب الثورة فى البنءال والوف الألوف من المسائل الاخرى التى لم ىعرض لها أسائءنا من قبل وكل هذا فى ئناىا الءءىء العابر ءون تظاهر بالعلم لأنه كان ءىىا ءىاء الفتاة ومع ذلك كان ما لءىه من علم ىءار منه أصحاب الموسسوعات وكان ىستطىع أن ىبز فى العمل قطىعا من البغال .

وانى أءكر هذه القطعة من قصته لأبىن أن بعض الرجال ىستطىعون ان ىعزلوا العمل مبكرىن ولقد فعلوا فهذا المبعوئ الءىنى المسن الغربى ظل ىقوم بئلك الواءبىات الصءىرة التى لا نهایة لها فى مساعءة كل من ىءءا الى مساعءة ءتى بلىء الضعف الى أن اصبء لا ىقوى على مقاومة رىء الشتاء وفى اءء الاىام أطارته الرىء ولكنه ءلف وراءه روح ءىائه

(١) ءون وزلى (١٧٠٢ - ١٧٩١) من رجال الءىن الانءلىز مؤسس مءهب «المنامىة» Methodism أو مسالك الءىاة .

النادرة المثال فكان رجلا عرف كيف يعيش مادام على قيد الحياة ثم استمر يعيش لأنه كان لديه ما يستحق أن يعيش من أجله .

وكلما تلفت حولي وشاهدت كبار السن الرخويين المرضى بالنقرس مدمنى الحمر بلداء الذهن وهم يجلسون للتشاور فيما بينهم لأنه لا عمل لهم ، اتنفس الصعداء واتمنى عودة عهد ينشئ رجلا مثل النافورة العجوز بل ربما اعتنقت مذهبه الدينى لو استطعت ان استعيده .

والواعظ الذى يخصص بعض وقته للوعظ يمكن أن يكون من أنبل الرجال خلال سنواته الطويلة التى يقضيها بعد اعتزال الاعمال.

ويمكننى ان افكر فى رجل لا يقل عنه نبلا والحاجة اليه امس فى هذه الايام ممن يعملون بعض الوقت ولو أردت ان اصرح عن رأى فى ذلك الرجل وهذه الحاجة لضاق نطاق هذا الكتاب عنه ولذا فسأتكلم من جزء يسير من رأى .

ان هذا الانسان قد يكون رجلا أو امرأة ، عالما أو أميا ، غنيا أو فقيرا ، قويا أو ضعيفا ، حضريا أو ريفيا ، ويمكن أن يأتى من احدى بقاع العالم وقد تكون لغته مدعاة للسخرية ولكنه يجب ان يمتاز دائما بخصلة واحدة هى : أن يكره الظلمة والمرضى بحب العظمة من كل نوع وليبلغ فى كراهيته هذه ما بلغه توماس جفرسون Thomas Gefferson وليعمل فى التو بوحى هذه الكراهية ولا يشنيه عن عزمه الجبناء الذين يظهرون له مخاطر الطريق ولا مواليه الذين يتوعدونه بالعزل وليعلم فى قرارة نفسه أن الحرية تكاد تكون الشيء الوحيد الذى يستحق أن يموت الانسان فى سبيله لأن الحرية وحدها هى التى تجعل من الميسور وجود شيء يستحق أن يعيش الانسان لأجله .

اسمع بعض الشبان من ذوى العيون البراقة يقولون أن العالم تحرر الى أبد الآبدين بهزيمة النازيين والفاشيين ولقد سمعت هذا القول مرة بعد ان شبت حرب ثانية وقد يمتد بى العمر لاسمعه بعد حرب ثالثة ، أنه أمنية الساذج الذى يتبنى فكرة ساذجة ، أنه الكذبة الباقية على الزمن التى تساعد على تولد الحروب وهو ينشأ فى الاذهان التى تتخيل ان الأرباح الطائلة فى حياة الناس تجنى مرة واحدة ثم تستمر

(١) ولد سنة ١٧٤٢ وتوفي سنة ١٨٢٦ ومن مشاهير الساسة الأمريكين وقد تولى رئاسة جمهورية الولايات المتحدة من ١٨٠١ الى ١٨٠٩ .

الى ماشاء الله فمثل هذه المقول ترفض ان تعتقد ان اليقظة الدائمة هي مهر الحرية ، أنها عقول لا تزال في المهد ، فلكي نتقى جميعا هذه المساوي يجب علينا أن نكون دائما على أهبة الاستعداد كامل العدة وان يكون لدينا إجموع من الرجال والنساء يستطلعون طلع الظلمة الطفأة حديثى الولادة ويستحقونهم قبل أن تتجمع لهم القوة .

يقال ان الشيوخ من خيرة من يتكهنون بما تأتى به الايام وهذه خاصية لا يجدر التهوين من شأنها لأن صروف الزمن تتلمس منعطفات الطرق لتختفى فيها وكل طريق سوى مؤد الى « أرض الميعاد » تحفه من جانبيه الأخاديد والحنادق العميقة وكل متفائل مرح مثل تحتم عليه طبيعته أن يستأجر محاميا من الطراز الاول من «امى الأبالسة وأن يمعن النظر فى مراجعة تقريره اليومي عن الناس والاشياء ويجب أن يعرف الاسوأ عن كل شىء قبل أن يخط للاحسن خطته ، والملاح الذى يسترشد فى سيره بالسحاب الأبيض الجميل الذى يظله متجاهلا الصخور التى تحف بجانبى المضيق ، هذا الملاح من أى طراز يكون ؟ سأخبرك به : انه فى أغلب الظن مأفون دربه أحد الدهاة الذين يبحثون عن القوة على ألا ينظر الى الاشياء الا من جانبها البراق واذا شددت عليه النكير فسرعان ما تجده يفخر بأنه لا يرى فى الناس الا الحسن دائما وهنا اطلب اليه ان يوقف السفينة وان يوصلك الى البر .

وكل جماعة تنفق كثيرا من الوقت وهي تتألق وتشدو لنفسها وتقول « ما اجملنى ! » وتبسط ذيلها أمام النظارة كما يبسط الطاووس ذيله وتهدر قائلة « فليباركنى الله » لهى جماعة حان وقتها لاستقبال الظالم العاتى فان قيصر يعرف دائما كيف يطرى الحمقى ويجتذبهم الى صفوفه واذا اقنعت اللعرة (١) بانها أسد هصور فسرعان ما تجد هذا الاسد الهصور وهو يمسح خطمه فى ساقك ويهر كما تهر الكلاب . كل هذا كلام معاد لا يعرفه الا الشيوخ . أما الشبان فيخوضون فى الدماء حتى يعرفوه .

وثقد أوعدنا الطفأة فى بضع السنوات الأخيرة ان يصبوا علينا من العذاب سيطا وكانت كثرتهم من أولئك الفجرة الذين عرفناهم على مر الزمان فالفجور يكاد لا يتغير مع الايام وسيظل الناس فى القابل من القرون والدهور يكافحون من كافحنا نحن ممن أوقدوا نيران الحرب العالمية

(١) اللعرة كنودة طائر تكون فى الشجرة لا تراها الا مدعورة تهر ذنبها .

الآخيرة ؛ وليس في استطاعة محبي السلام أن يمنعوا مولد أمثال هؤلاء الجبابرة العتاة وإذا ما ولدوا هددونا جميعا بالأيذاء والضرر فهل نستسلم لهم حينئذ ؟ كلا ! بل أن الواجب يقتضينا المبادرة إلى كبح جماح هؤلاء الطغاة العاديين وعلينا أن نبحث عنهم حتى إذا وجدناهم ذبحناهم قبل أن يشبوا ويكبروا وعلينا ألا نسالهم أبدا لأننا لا نتعامل مع شرفاء مهذبين بل مع صلال سامة وجراثيم للبرص وخلايا للسرطان ، نحن نكافح قوى الموت فهل نقبل وجنات الموت الباردة في سبيل الحب الأخوى ؟

والآن هيا إلى العمل . وما عسى أن يفعله الألوف منكم ببعض وقته أيها المواطنون المتقاعدون ؟ أن لكل عصابة وكلاءها وهي تعمل كل وقتها في الترويج لقضيتها وفي شراء المسترعين وفي ترويع الناهبين وفي تضليلنا جميعا بما يحيكون من أساطير عما يتحلون من فضائل وخصال وقد يكون لبعضها شيء من القيمة وقد يكون للبعض الآخر مساوي أغور جندورا ومنايات مما يخطر على البال فمن يدري ؟ لا يدري ذلك إلا القليلون منا ولهذا يتعين على المواطنين المسنين أن يرقبوا بعين اليقظة زملائهم حتى إذا ما لحظوا من أحدهم بادرة شر تتجمع نشروا نبأها وأذاعوه ليأخذ كل حذره .

ولن تنشر هذا النبأ إلا صحف قليلة ولن يحمله أحد على محمل الجد ولو أن أخبارا عن عصابات اجنبية طبعتها الجرائد على صفحاتها الأولى لما عنى نفسه بمطالعتها إلا القليلون ولذلك ينبغي لمواطنينا المتقاعدين أن يولوا وجوههم وجهات أخرى أما ما يجب أن يفعلوه فأمر ندعه بين يدي أولئك الذين يعالجون هذه المشكلات .

وكان على الكثيرين من الرجال والنساء أن يتمرسوا بالسياسة لكي يرقبوا ظهور الناشئين من الطغاة والمستبدين وأنا أعرف أن تخصيص كل الوقت للاشتغال بالسياسة أمر من الصعوبة بمكان ولكن اقتطاع جزء من الوقت لها يمكن أن يحقق الغرض نفسه وأن خمسا من النساء يستطعن أن يتناوين الاستماع في حلقة من حلقات التشريع وقد يستطعن أن يخرجن من وسط هذا الضجيج بأكثر مما يستطيعه أحد أعضاء هذه الحلقة وليس هذا الشيء سوى نشاط أذهانهن بما اكتسبته من الراحة والاسترخاء مما يتخلل نوبات العمل . والمراقبون الذين يسهل عليهم وضع نظام مناوبة لتابعة المناقشات البرلمانية واعداد مضابط دقيقة لها ساعة فساعة . هؤلاء المراقبون قليلو العدد .

ومع ذلك فسيأتي وقت على الكثيرين منكم تنفسون فيه الصعداء
وتتناولون فرغرة مطهرة وتنغمسون في السياسات الحزبية من منبعها
الأصلي وهو منبع أية حكومة تتولى الأمر فينا ولن تجنوا أي ربح من
تعريضكم للطفأة وكشفكم أياهم بعد أن يكونوا قد كسبوا الانتخابات .
والواجب عليكم أن تلقوا القبض عليهم وهم متلبسون بكسب السيطرة
وعليكم أيضا أن تقوموا بعمل أصعب مراسا وأشق معاناة . عليكم
أن تنكثوا غزلهم القدر وتنقضوا بنيانهم القبيح .

وكل منكم رجلا كان أو امرأة له مكانه في هذه الحربم التي لا تكف
رحاها عن الدوران اذا ما أردنا أن نحفظ بوطننا حرا كريما ، وان
تفوقنا في القوة وهو غير خاف على أحد يجعلنا هدفا لهجوم مستمر
غرضه الاستيلاء على قوتنا هذه ليحكم بها العالم فكل مجنون يحب
السلطة يورق ليله ما يضع من خطط وما ينصب لنا من أحاييل لمنحه
بعض قوتنا وثقوا أن جميل الحيل التي تقادم عليها العهد سيعاد حبكها
وسبكها في غضون السنوات القلائل القادمة فاذا ما فشلت وضعت
خطط جديدة ونمقت عبارات جديدة وزيفت نتائج جديدة ووجه الى
تبلنا وكرمنا او الى حقمنا وسفاهتنا الجديد من عبارات الاستجداء
والاستعطاف وسينال طبعنا اغرارنا النبلاء الانواط وشارات الشرف
والمناصب في المعاهد الأجنبية وسيظل يسطع نوط النسر الملكي من
الطبقة الرابعة لمقاطعة بساراييا (١) على صدر نائب عمدة المدينة في
الحفل السنوي الذي يقيمه « أصحاب الولاء من البساراييين »
وسيسهل ذلك عليه أن يعطى عقد المجاري الى أصدقائه الثلاثة الطيبين
من أهل بساراييا .

أليست الاخوة شيئا جديرا بالاعجاب ؟!

فأني تكون أيها المواطن حينما يعطى عقد المجاري هذا ؟!

(١) بساراييا : الجزء الشمالي الشرقي لرومانيا .

- ١٧ -

كيف تحتفظ بصلاحك واهليتك

ان السنوات المائة الاولى هي اشق السنوات .

ما أشد السنوات قسوة فى هذا القرن من الزمان المشحون بالأخطار؟
السنتان الأوليان من عهد التقاعد . فهذه الفترة القاسية هي التي ترتعد
منها فرائص الكثيرين حينما يواجهونها ، ولم هذا ؟

لان الناس فيها يضطرون الى ان يغيروا فى فترة قصيرة أكثر مايمكنهم
من عاداتهم القديمة فالخروج على حكم آية عادة صدمة والخروج على
حكم عدة عادات ثورة عصبية ومخالفة أقوى عادات الحياة فوق طاقة
الكثيرين من ذوى النفوس الضعيفة .

أتذكر أولئك الرجال الذين اعتزلوا أعمالهم فى شركة لويد بلندن ؟
انهم لا يعيشون الا ثلاث سنوات بعد اليوم الذى يطرون فيه مسجلاتهم
ويغلقون قماطهم ويودعون مكاتبهم أما من ساعدوا منهم حتى بلغوا
السبعين فقد التحقوا بمصانع بناء السفن وهذا يساير التجارب الحزينة
المؤسفة التي جربها كثير من مصارف المال ودور التجارة والصناعة فقد
انهى الى كثير من موظفيها مرارا وتكرارا ان مصاعب التطور لمواكبة
ظروف الحياة الجديدة هدت من عزائم بعض الاشداء ممن اعتزلوا العمل
وجلبت اليهم جميعا الضر والبؤس والشقاء فى ظرف سنتين اذا قدرت
لهم الحياة خلالهما أما الذين يواجهون هذه العاصفة القاتلة وينجون
بأنفسهم منها فتخرج بهم سفائنهم الى بحار مضيئة تحت سماوات
زرق .

ولهذا نرى لزاما علينا ونحن نختم هذه الدراسات أن نواجه مسألة
هذه الصدمة العنيفة التي تختلف كل الاختلاف عن جميع المسائل ذات
الصلة بالتمتع بخير سنى الحياة التي يتقدمها الطلسم اللعين . ولست
الا على سفر وجهتك « ارض الميعاد » التي كنت اتغنى بلبينها المصطفى
وشهدتها الشهى ولعلى أطلت فى التغنى والهداء والتشدد . ويفصل بين
هذه الارض والارض التي ترتكز عليها قدماءك مهاو تسوخ فيها الاقدام
من التردى فى الخطيئة وهي بقاع لم يهتد الى الكشف عنها علماء تقويم
البلدان فقبل أن تخطو خطوة فى رحلتك راجع نفسك وراجع زادك
ومثونتك وعتادك .

فهل نعلاك سليمان مريحان لهذه الرحلة الشاقة ، وهل مزادتك مملوءة بالماء ؟ وهل أعددت ممطرتك ؟ وهل فكرت في قاتل الحشرات «دود» وأين حدائك (١) ؟ وهل ملأت ساعتك وضبطتها ! وما مردناه عليك الآن ان هو الا نوع من مراجعة النفس ، وانت - لا أحد سواك - تستطيع ان تقوم بهذه المراجعة الذاتية فقم بها واحسن القيام بها واعمل حسبما تستخلصه من نتائج وأنا الزعيم لك ان تخرج من محنة هذه الايام الحرجة دون أن يمسك منها الا بضعة خدوش وقرحة بسيطة فوق ابهام قدمك . وابدأ بأول يوم تتقاعد فيه عن العمل فضع في مكان ظاهر بيانا بما سادى به الآن لك من أشياء ثم أعد قراءتها مرة على الاقل كل شهر وأبسط مراجعة نفسك على أيام الشهر كلها حتى لا تكون بين يديك اعمال كثيرة تضطر الى اداؤها في يوم واحد .

سبل نفسك عن كل مسألة أشير اليها واذا ما كنت في ريب من الجواب فسل عنه اصدقاءك ايضا :

١ - اتضايق من الناس اذا ما طلبوا اليك اداء عمل ولو كان تافها أو سهلا ؟

٢ - أتشكو من الصغائر أكثر مما اعتدت من الشكوى ؟

٣ - أشعر في نفسك بالرضا عن كل شيء والارتياح اليه ؟

٤ - أتقضى كثيرا من الوقت في النواح طلبا للمزيد من الأمان ورغد العيش ؟

٥ - أتتهرب من المخامرات حتى التافه منها ؟

٦ - يصعب عليك أن تقلع عن عادة من عاداتك حتى الهين منها ؟

٧ - آنت كبير الثقة بتجساربك الشخصية غير آبه بآراء الغير ؟

٨ - اذا تركت وشأنك أتجسد من الصعب أن تبدأ عملا لحسابك الخاص وتحت مسئوليتك ؟

٩ - أزداد اهتمامك بأحاديث الناس على ما اعتدته من قبل ؟

(١) العدة : الفاس ذات الحدين .

- ١٠ - أتكثر من نقدك تصرفات الاحداث ؟
- ١١ - أتعوذك الحماسة ؟
- ١٢ - أتشعر أنك فقدت النشوة ولا يستخفك الطرب حتى
فى المواقف التى ينتشى فيها من حولك ويطربون ؟
- ١٣ - أرايت أنك أقلت من ابتسداء الأحاديث واقتراح
المقترحات وان تحمسك لها قد فتر ؟
- ١٤ - أتؤثر رفقة لداتك وصحبة اندادك ؟
- ١٥ - أنت تبخع نفسك لنقد الناقدين ؟
- ١٦ - أتكثر الفترات التى يزيد فيها همك بالهنات الهينات ؟
- ١٧ - أترك أصبحت جعبة للجمعية : تخلق من الحبة قبة ؟
- ١٨ - أتفر من مجالى النشاط بحجة علو سنك ؟
- ١٩ - أترغب عن ملاقاته الأعراب ؟
- ٢٠ - أتشعر كثيرا أن ليس امامك ما تسعى له أو تأمل
فيه ؟
- ٢١ - أتستمرى الرثاء لنفسك ؟

التزم الحكمة والتعقل فأنت أنت لم تتبدل وان كثيرا من الشبان
ينحون بعض هذه المناحي وان ذوى الأسنان المتوسطة ومن هم فى ربيع
العمر يظهر عليهم كثير من هذه الأعراض وانت تعرف ما ابديت منها قبل
ان تعتزل العمل فخذ مقياسا لك حتى اذا وجدت أن ما يظهر الآن من
الأعراض أكثر مما كان يظهر منذ عشر سنوات فراقب خطوك لان هذه
الزيادة آية على تقدمك نحو الشيخوخة واعمل فى الحال عملا تصد به عنك
أم قشعر ذات المنجل الحاصد .

وربما تجد من العسير الاجابة عن بعض هذه الأسئلة الا أن السؤال
التالى يسر لا عسر فيه وهو من الأهمية بمكان كبير ولا يعتوره أدنى شك
وفى مكنتك أن تراجع صحة الاجابة عنه فى نفسك بدقة كدقة الحساب .

أتأكل الآن أكثر مما اعتدت ؟ (ولندخل الشراب فى المأكل)

أحسبك لم تكن تدري أن كثيرا من العادات السيئة فى البيان
المستفيض الذى سردناه آنفا تؤدي الى الاسراف فى المأكل والمشرب - انها

قؤدى حقا اليه ولا سيما صعوبة التخلّى عن عاداتك • وعدم الرغبة فى ابتداء شىء لحسابك وتحت مسئوليتك اذا تركت وشأنك ونقص التحمس والابتعاد عن مجالى النشاط لتقدمك نحو الشيخوخة • وافتقارك الى شىء تتطلع اليه ، وجميع هذه الاشياء العديدة التى تورث السّامة والملل التى مبعثها الحمل وفقدان العمل المثير للاهتمام والتلذذ •

والظاهر ان المرأة من هذه الناحية شر من الرجل ولكن كليهما - المرأة والرجل - يفرطان فى الطعام ويتناولان منه أكثر مما يستطيع البدن ان يستخدمه فيستحيل الفائض الى شحم ويضغط الشحم على الشرايين والأوردة فيتعب القلب فى ضخ الدم فيها ويجهد العمل ويأتى عليه زمن يضطره الى التوقف •

فراقب طبق عشاءك بعين الصقر وضمير الولي المتعبد وراقب مشروبك على مختلف أنواعه واذكر ان مع الدهن الخاوى معدة متخمة ومع المعدة المتخمة لحدا ممثنا •

ولنعرض الآن بكلمة عن المظاهر السّائعة لبعض المساوى التى ذكرناها :

تأمل الاسئلة المرقومة بالارقام ١٧٨٥ر١٦ر١٧ فى البيان المتقدم تجد ان التحفز والشكوى والحمول والهم والقلق تنشأ كلها على وجه الخصوص من هذا الاجهاد الذى اطنبت فى الكلام عليه فان جسمك اذا كانت قوته عشرة خيول وحملته على النهوض بما يحتاج لقوة اثنى عشر فلا تعجب اذا ارتفعت حرارته وأخذ يقذف الدخان والحمم •

فان وجدت نفسك فى مثل هذا الموقف فليس لك ما تفعل غير شىء واحد : هو أن تغير الحمل الذى تنوء تحته ولهذا التغيير طرق شتى فتفهمها وسرعان ما يشملك الهدوء والسكينة فقد تستطيع أن تملد فترة النهوض بالحمل حتى لا يصيبك الاعياء فى أى وقت ، وسألقى عليكم أبسط مثال لذلك :

حببت ذات مرة أن أقطع سيرا على الاقدام خمسة أميال فى الساعة ثم خفضت المسافة الى أربعة أميال ثم الى ثلاثة بعد فترة طويلة وهو معدل سرعتى الحالية الا فوق اليفاع والنجوم فمعدل سرعتى لا يَزِيد فيها على ميل واحد فى الساعة ولقد تعلمت طوال عشر السنوات الماضية أن أعامل كل طلب يطلب الى معاملة المشروع الهندسى المحض فإذا استدعى منى عملا فوق مقدار معين رفضت بكل احترام تنفيذه ولم أكن أتولى عملا على غير رغبة من اقترحه وبذا لم أستشيط غضبا حينما رغب الى أحد الاحسدّات أن أصعد التل مهرولا وذلك لاني لا أصعد التلال ركضا وهرولة كما ان

المياه لا تجري صعودا وهذا قانون من قوانين الطبيعة فكيف لي أن أخالفه ؟
ونظرتى الى المسائل نظرة المهندس تفوق كل فلسفة وكل أسلوب
ادبى فى تجنب الانفعالات المصاطفية التى تنشأ من الارهاق والاجهاد
وتحميل النفس مالا طاقة لها به وحيدا لو وضع لنا أحد العباقرة نظاما
معنويا كاملا مؤسسا على النظريات الهندسية الصحيحة : اذن لاصبح هذا
العالم جنة من جنات الفردوس ؟

فليس من مهندس يطمع فى أن تنهض آلة قوتها عشرة خيول بعبء
لا ينهض به الا اثنا عشر ولكن كم من غيرهم من يلج على اجراء التجربة
رعاية للعهد الماضى او لان مستخدمى المكتب يتوقعون الى لعب الكرة
والصولجان يوم العطلة وان الدافع الداخلى لعمل ما يحتاجه الآخرون او
ما يتوقعونه منا يؤدى الى مغامرات غير معقولة تنتهى بالبؤس والشقاء وبما
هو أسوأ منهما .

وكثيرا ما تبدأ الشكوى من التوافه بالاسلوب نفسه ولكن بطريقة
ماهرة خفية يصعب عليك معها تحليلها فان كثرة الاعمال الصغيرة خلال
اليوم تتجمع عند الغروب فيتكون منها عبء باهظ يعود بك الى سوء
التقدير الهندسى او قد يستدعى عدد كبير من صغائر الاشياء مهارة تجاوز
مقدرتك قليلا فتقضى فى كل منها وقتا طويلا وتبذل على الرغم منك فيها
جهدا يستنزف قواك وهكذا تعود ثانية الى الحكاية القديمة حكاية الاجهاد
والارهاق وتحميل النفس فوق طاقتها ولكنك تكتسب فى بطن مقاومة لهذه
التوافه وتكون شكواك فى أولى مراحلها فاعمل على تفهم هذا الموقف
حتى يسهل عليك علاجه .

ان الناس بعند الخمسين يكونون أشد حاجة الى الهندسة البشرية
منهم الى أى شىء آخر فكرر هذا لنفسك مائة ألف مرة فى السنة التالية
فقد يؤدى هذا الى ثبوتها واستقرارها فى قلبك وقد تجد نفسك فى حاجة
الى تكرارها مرات أكثر لكن يصح ايمانك بها .

وتأمل السؤال التاسع وتيقن أنك لا تسىء تأويله فقد تزداد بتقدم
السن اهتماما بالاحاديث الشخصية التى تتناول الأحاد دون أن تتأثر
كثيرا بها لان ذلك يتوقف على ما تصنعه بتلك الاقارب بعد أن تتلقاها كما
يتوقف على نوع ما تجرى وراءه منها وما تجمعه وكبار السن يميلون عادة
الى حصر افكارهم فى ذواتهم فيكادون يكونون معنيين بالشئون الخاصة

دون العامة نتيجة للحياة المستعارة التي عاشوها في أعمالهم وهم في
عنقوان العمر .

من سوء الخلق قضاء الوقت في تناول شئون الجار بالقييل والقال
وان كان من الحكمة البحث بحثا دقيقا عن هم في ضيق وكرب أو عن
يخلقون المتاعب والمشاكل وارع أن تنقد بعناية ما يلوكة لسانك من
الاقاويل فان أصاب محجة فلا بأس وان لم يكن الا همسا سخيفا تتناول
به فضائح تافهة فاقطع دابره .

أشعر بالحزن ويفشاك الاسى كلما نسيت اسم شخص أو عنوانه
بعد أن تكون قابله منذ اسبوع أو كلمسا نسيت وصف الطريق الذي
يوصلك الى منزل معين فتغمغم محدثا نفسك بان الشيخوخة تسرع اليك
وان ذهنك أصابه الكلال ؟

اقطع دابر هذه الوسواس أيضا فلقد تخلقت عن الركب .

ولا يزعجك ما تجد من صعوبة متزايدة في تذكر الأشياء الحديثة
لان هذه الصعوبة طبيعية بعد سن الستين ولا معدى عنها في الواقع ولكنها
لا تعنى ما يتخيله أغلب الناس بل خير علماء النفس لدنيا اخطأوا دلالتها .

ومن الأسباب الصحيحة التي تبرر ضعف تذكر المسنين للأشياء
الحديثة عما كانوا يعونه من قبل أن جميع الوظائف التي تشمل الانتباه
والاهتمام تتبع احكام قانون ويبر Weber أي انه كلما كبر الحافظ
ضعف أثر كل زيادة فيه واذا بدأ من لا شيء وزاد الى أن أصبح
شيئا ما كانت صدمته لنا شديدة نسبيا .

وهذه هي الحال مع الكتلة المتحركة للتجارب فقد نشأت من بين
ملايين الحوافز منذ الميلاد وكلمتنا نمت الكتلة ضعف أثر كل حافز
جديد فيها واذا جلست في ظلام مطبق ساعة من الزمن لاستطعت أن
ترى الجباحب على مبعدة نصف ميل منك واذا حملت في شمس الظهيرة
ولو خمس ثوان لما أمكنك أن ترى دارك وهي تحترق أمام ناظريك وبعد
أن تقضى في الحياة عاما واحدا ترى الدقيقة التالية كما كان يرى جدك
الشهر ، وبعد أن تكون بلغت المائة ترى الشهر التالي كما كنت ترى
الدقيقة من قبل .

وهكذا الشأن في الرأي والحكم فبعد أن تكون قد شاهدت مائة

صاعقة تنقض على مائة شجرة كبيرة فلن يشرب عجبك أن ترى الصاعقة الحادية بعد المائة تصيب الشجرة الحادية بعد المائة وبعد أن تكون شاهدت ألف ألف تفاحة تهوى إلى الأرض فلن يستفزك أن ترى تفاحة أخرى وهي تسقط فتصرخ من الدهشة وتهرع إلى إرسال برقية بالحدث إلى صحف الأخبار لأن التجارب السابقة اكتسبت معاني لا يزيد بها وضوحاً ما يقع بعدها من تجارب جديدة بل إنها تندمج في الآراء والأحكام القديمة وهي لا تنبت في أفئدتنا أفكاراً جديدة فهي التفاحة القديمة تسقط من الشجرة القديمة نفسها إلى الأرض القديمة نفسها والحافز واحد من الناحية النظرية ولكنه لا شيء أكثر من علامة التكرار في نطاق رأيك وحكمك .

وأراني سبيء الظن بكل رجل بلغ السبعين إذا تأثر بجميع ما يلقي من تجارب صغيرة في سنيه الأخيرة كما يتأثر الشاب واني لأظن هذا الشيخ ما برح في دور الطفولة وهو لم يقدر أن يتعلم كثيراً من الشطر الأول من حياته .

إن الشيوخ لا يمكن أن يعنوا عناية بالغة بالحوادث الجديدة لأن أكثرها مر بهم أمثاله من قبل وهي لا تعدو أن تكون لهم علامة من علامات التكرار ولذلك لا أقر ما يذهب إليه الجميع من حسابان ضعف تذكر الحوادث الجديدة آية من آيات الشيخوخة والهرم بل إنه أقرب إلى أن يكون معناه أن كبير السن قد نضج حتى ليرفض أن يعبر علامات التكرار عنايته فإن ما ترفض الاهتمام به مقياس تقاس به حكمتك كما تقاس بما تعنى به وكلما ازدادت علماً ومعرفة ازداد ما تفضي عنه لقلّة ما يحتويه مما لا تدريه والطفل يستثيره كل شيء ، والمعدة الممتلئة لا تشتهي طعاماً والدهن الشبعان لا يشتهي حقائق ، وكلما قل ما تعرفه عن العالم زاد ما تلحظه فيه ، وهذا شيء طبيعي . وهب أنك تلحظ كل شيء طول الوقت أذن لن يتبقى لغير ذلك شيء من الوقت والهمسة واذن من ذا الذي يدفع ثمن مطالب البيت في أول الشهر ؟ .

هل تتجنب الألعاب والرياضة والرحلات والحفلات والنسواوى ومجالى النشاط الأخرى لأنك تحس بأنك أقل مستوى من الشبان الذين ستختلط بهم ؟ واذن اعمل على أن تربا بنفسك عن هذه السخافات على التو والا ملأت بالسم خير سنى حياتك وهذه عادة حقيرة رماك بها نظام العمل الحر ، وفلسفة التنافس يجب أن تخضع إلى نظام أكثر

لينا ورفقا وأن صلحت هذه العادة لوحوش الغاب فلا تصلح للبشر .
وارث للتاجر الناجح الذي التزمها التزاما أبديا ليحقق بها النجاح .

فهو قبل الخمسين دائم الكفاح في سبيل التبريز والتفوق في كل ميدان من ميادين النشاط وقد نشأ ليحرز النجصاح وينساب بين عظام الامور والناس سواسية كاستنان المشط ولكنه يقسم برب العزة ليبزن كل منافس وليفوزن على كل خصم . ولكنه بعد الخمسين يخطو نحو المنسحدر : لم يعد يرأس من حوله من الكتبة ولم يعد الاستاذ الاول في مادته حتى اذا ما تقاعد عن العمل لفه ليل الحمل الساجي في طياته وثناياه فتقوم قيامة أعمق مواقفه وتثور ثائرتة وذلك الذي كان يسود الجميع أصبح اليسوم في حكم العدم وبعد فترة يفثا غضبه ويستحيل الى انقباض واستكانة : نعم لقد أصبح عدما وأمسى عدما فحق عليه ان يخفى (١) على الناس عجزه .

كم كهان ممن اشرفوا على اماكن الوعظ الديني ، وكم معلمين ممن اداروا حلقات العلم ، وكم ربابة ممن قادوا السفن ، وكم عشرات غيرهم من ذوي المناصب الرفيعة سقطوا في هذه الحالة السيئة ان عليهم ان يدركوا ان لا مخرج لهم منها الا بنبذ الفلسفة التي صنعت هذه الاحوال وهي فلسفة التنافس التي تمجد من يعتلى القمة وتتجاهل من يرمى الى القاع وتطعم الاناني الشبه وتلقم المتواضع الصواب والمر وهي - ايا كانت قائدتها في معركة الحياة عديمة القيمة ان لم تكن شديدة الضر لمن تنحوا عن تلك المعركة فنقل عاداتها الى مرحلة (خير سنى الحياة) اشبه شيء بطرائق القتال اذا اتبعها مروضو الأوابد والفدائيون مع من يلقون من خلائهم في اكبر طرق المدينة بعد ان تكون الحرب قد وضعت أوزارها .

ألم تكن تشترك قبل ان تبلغ الخمسين في نوع من انواع الرياضة النشيطة ؟ فاذا لم تكن فعلت ذلك فادرس بدقة حالتك البدنية واتخذ لك نوعا من الرياضة لا يجهدك ولا يحتاج الى عضلات أسرع استجابة من عضلاتك ولا الى عيين أكثر حدة من عيينك ورض نفسك عليه رويدا رويدا وتجنب الاجهاد ما وسعك واذا لم تستشعر التحمس لهذه التسرية فخذها في عبوس وجد كأنها دواء ناجع وقد تحبها مع مضى الزمن .

(١) خفى الشيء استتر أو ظهر فهو من الاضداد وبعضهم يجعل حرف الصلة فارقا فيقول خفى عليه اذا استتر وخفى له اذا ظهر ، ويتعدى بالحركة وبالهجرة ، وبعضهم يجعل الرباعي للكتمان والثلاثي للاظهار (يراجع التفصيل في المصباح) .

وبعد الحسين يصيب الانسان عادة بعض التعب والحيرة فهو ، على قول كثير من المراقبين، تعوزه روح الهواية ونوعها فهو يؤثر الاستماع الى الموسيقى على عزفها ، ومشاهدة مباراة للكرة على لعبها فهو بين النظارة من الطراز الاول وبين العاملين في الدرك الاسفل ، وقد لا يكون في هذا باس اذا وقع خلال السنوات الحارة التي يكون فيها منهما في جمع المال ولكن بعد ان يتمثل للتقاعد وينبرى عمله كما ينبرى القلم يستثقل ظل الوقت بين يديه فماذا يستطيع ان يفعل ؟ آه لو ان لديه دافعا من دوافع الهواية !

ما سبب نشوء هذه الحالة السيئة ؟ اظنني اعرف الجواب فالسبب هو الفلسفة القديمة نفسها ، فلسفة العمل الحر وما يتبعه من منافسة ، فالشبان يتجنبون الالعب التي لا يستطيعون كسبها لان المكسب لا اللب هو لذتهم الوحيدة وهم في اثناء دراستهم بالكلية يدرّبون على فلسفة مدرب مشهور يقول : لا خير في رجل يلعب الكرة لانه يجبرها اذ ان عليه ان يلعب ليكسب واذا لم يكن يستطيع ان يكسب فعليه ان يغادر الميدان ؟

وبعد الحسين ينسل الاذكيا من الناس من المعركة ليصارعوا غيرهم ويقتعدوا هم قمة التل .

هل تقضي كل وقتك في شيء واحد تحبه ؟ وهل تتبع نظاما دولابيا لا تحيد عنه ؟ وهل يضايقك أي خروج بسيط على هذا النظام أو يعكر مزاجك ؟ ان كان ذلك كذلك فاشرع على الفور في تخفيف وطأته والفاكك من ريقته واجعل هذا اول واجب عليك والحياة المبسطة مع ما فيها من متعة قد تكون متعبة .

ولقد قلت ان هذا الكتاب كان يجب ان يصنف لقراء ما بين السادسة والرابعة عشرة واليكم أحد الاسباب القوية وهو الاغراق في تركيز الحياة .

والحياة التي من هذا الطراز تسلط كلها بالقوة على موضوع واحد وفي هذا خطر خطير ولا سيما لمن جاوزوا الحسين وما نستطيعه لمعاونة ارباب الحسين الذين وجهوا حياتهم وجهة واحدة قليل وليس اكثر من مسكنات واثر المسكنات في علاج العلة ضعيف .

ويمكن ان تنصرف الحياة بخذائرها الى أي شيء سار ومن هنا ينبع النوع المغبول من المتألمين فقمه ينصرف احدهم بكليته الى حبيب أو الى

قضية سياسية أو الى جمع الثروة أو اكتساب السلطان أو المجد أو لعب الورق أو الى الوطن أو الى كلب مدلل أو العزف على الكمان أو ادمان التدخين أو الشراب أو الى اللاهوت أو دور الصور المتحركة وهلم جرا وقد يكون كامنا فينا جميعا جنسون الولع بشيء معين وقد تبكر في الظهور أعراض هذا المرض في الكثيرين منا فتصبح أذهاننا وأبداننا من ذوات الاتجاه الواحد حتى اذا بلغنا نهاية هذا الاتجاه ذهبنا هباء تذرؤه الريح من أثر الصدمة .

وفي عهد الشباب يقع الكثير من حوادث القتل والانتحار والسرقة ومنشأ هذا تلك العقول المدلّهة في الحب والغرام وفي عهد الشيخوخة تقع الجرائم والسخافات الصغيرة من فقدان مركز الحب ومركز الحياة ، وليس اختلال التوازن في الغالب الا الابتعاد عن المركز ويبتعد الناس عن المركز نتيجة تضييعهم اياه ولهذا ينبغي مراجعة نظم تربية النشء على الفور ويلزمنا أن ندرّبهم على أن يجدوا مواضع عامة واسعة النطاق تستدعي منهم الاهتمام والعناية وأن نحذّرهم من أن يفسحوا كثيرا من المحبة والتحمس والإيمان على شيء واحد دون غيره لأن هذا الشيء سيزول مع الزمن أو تظهر الايام أنه لم يكن جديرا بالحب واذن ماذا يصنع ذلك المتفاني فيه ؟ سيبقى أعزل عاجزا عن السير عجز السفينة التي أخرجت من الماء . ولن يكون له ما يعيش من أجله وقد يكون هذا بعد الخمسين خطرا محققا وضرا مهلكا .

دربوا جميع الاطفال على أن يجدوا ما يفعلونه من الأشياء السارة في ميادين مترامية الاطراف بعيد بعضها عن بعض وربوهم على أن يستخدموا جميع أعصابهم وعضلاتهم على وجوه متباينة فان لم ينتج عن هذا شيء فانهم على الاقل يبلغون مرحلة « خير سنى العمل » أكثر ليونة وأوسع ادراكا وأكثر تشوقا للطريف الجديد .

واذا كنت قد ودعت الشباب فخذ نفسك بتصميم مضاعف لتبلغ هذه الغاية . هل نال منك القنوط أخيرا لاخفاقك في تفهم درس القاء معلك في فصل لتربية المراهقين وهل كنت على وشك أن تتحول عن هذه الدراسة لان سنك كبرت ولا تقوى على هضم هذه الدروس ؟

اذن . . أنهى اليك نبا طيبا ما كنت تستطيع أن أنهيه اليك منذ خمس سنوات حين لم يكن أحد قد كشف عن أغرب مظاهر الاستذكار . واليكه مهذبا مشذبا منمنما كأنه قرص من اللوآء :

ان « سمث » سريع الحفظ و « جونز » بطيئه وبعد الحفظ بشهرين
يستبقى سمث ما حفظ احسن مما يفعل جونز ولكن شيئا غريبا يقع ،
فسريع الحفظ اخذ الآن ينسى وبطيئه انشا يستعيد ما لم يستطعه من
قبل وانتهى الامر بأن أصبح لجونز الوانى ذاكرة سمث المتعجل .

فتأمل هذا وتمن فيه وانت تنقذ دكان طباقك .

ولا تقولن بعد اليوم أنك لا تستطيع أن تحفظ أشياء جديدة بل قل
أنك تحفظها في بطن وأناة وانك بذلك تجيد حفظها .

ونظم شئونك وفق أحكام هذا القانون ولا تقبل أن تحفظ شيئا على
وجه السرعة وخبر الناس أنك تحفظ في بطن .

لا تحاول أبدا أن تحفظ شيئا مهما ما لم تتحقق من أهميته وخذ
كل ما حدثتك عنه هنا بجدة وعناية أكثر مما كنت تبذل في عملك القديم .

لنترك قضيتنا الآن :

ليس من شاب فى العصور التى خلت تطلع الى المستقبل الذى تواجهونه الآن فالعالم فى خلال السنوات التى عشتوها أحرز من التقدم أكثر مما أحرزه خلال الوف السنوات السابقة وقد بلغ الأوج بتحطيم الذرة فالامر اليكم الآن لتمنعوا التكوّص لأن التكوّص يعود بكم الى الفقر والقذارة والمرض والطيرة والمظالم التى كانت تسود عهد ما قبل الذرة .

فالآلوف المؤلفة من الناس رجالا ونساء ممن جاوزوا الستين يتمتعون بصحة وقوة وحكمة خير مما تمتع به أعظم الشبان والرجال ممن عاشوا فى العهود الغابرة فعصرنا الحاضر عصر الرجال غير المألوف والناس اليوم وقد امتلئوا حياة وحيوية أصبحوا اليوم مبرئين من الخوف لأن الخوف لا يفشو الا بين الضعاف الخائرين . والناس - وقد تجردوا من الخوف - أصبحوا يحاولون القيام بمغامرات جريئة ويتخلون عن القديم وينشدون الجديد وهو خير على كل حال .

وسيقول ذوو الجراءة والاقدام لأول مرة فى التاريخ ما قاله مونت كريستو (١) : «العالم لى» . ولأول مرة يستطيع الناس أن يطرحوا الاعمال المكتبية ويولوا وجوههم شطر مغامرات اغلى وأثمن وأصبح من المستطاع أن يضطلع حفنة من العمال بجميع دولاب العمل فى العالم بأسره وليس يربط أغلب الناس بمكاتبهم بعد الستين الا التقاليد . ولأول مرة أيضا يستطيع جمهورتنا أن تهجر العمل وتركن الى الاسترخاء وتستمتع بما تود الاستمتاع به فى حين نستمتع بالبحر والزهر وتفريد الطير وكركرة الاطفال بالضحك .

ففى هذا العالم الباسم المطرب المثير ، عالم الذرة ، ستتقاعدون عن العمل وقد حصنتم أنفسكم بما حصلتم من معارف جديدة عن نفوسكم وعن

(١) Monte Cristo من مارسيليا بطل قصة مشهورة باسم كونت مونت كريستو وضعها اسكندر ديماس الكبير (عام ١٨٤١) اظهر فيها ولع خياله وعلب حديثه .

لذاتكم وعن مهارتكم وعن عاداتكم . وعلم الطبيعة البشرية لم يتقدم تقدم علم الذرة ولكنه يقدم ما يكفي لتعبيد الطريق أمام كثير كانوا بالأمس فقط يرونه حزنا صعبا وستجنون الكثير اذا ما خففت من اعمالكم تخفيفا تدريجيا قبل الاعتزال النهائي بزمان طويل واذا ما بحثتم عن مستقبلكم في طيات ماضيكم وسيجنى العالم اكثر بتحقيقكم لجميع رغباتكم واختصاصكم كلا منها بما يتيسر لكم من وقت وجهد ابتداء من الالاعيب الفارغة الى المحافظة على حرية الوطن .

والكتاب مجموعة من كلمات يضعها الكاتب ليعيط قارئه علما بما يدور في خلده وليس من كتاب حمل شخصا ما على أن يؤدي عملا ما وما اظن هذا الذي بين أيديكم يخرج على هذه القاعدة العريضة في القدم وان كان لابد من صنع شيء فعليكم أن تصنعوه .

والامر اليكم الآن .

حدث ذات مرة أن اكتسب أحد كبار المهرجين قلوب النظارة بشكله المضحك وكانت حفلاته مكتظة بالمتفرجين ليلا ونهارا وبعد أن جمع المال وعدده اعتزل العمل .

وبعد ان قضى في الراحة عاما زايله السكون وعراه الملل ثم غشيه الهوس واخذ اخوانه يتدبرون حاله فلحظوا انه لم يضحك قط في حياته الا وهو يقوم بدور المهرج وكان يفتعل الضحكة تحت أضواء المسرح ولذا فقد الاصدقاء الأمل في بعث البهجة الى نفسه .

وبينما هم يعقدون مجلس التشاور كان المهرج القديم يهيم على وجهه في الطرقات حتى وصل الى مسرح كانت تظهر فيه فرقته السابقة فابتاع تذكرة ودخل .

ورأى حجاب الدار بعد انصراف النظارة انه باق وحده فتوجهوا اليه ووجدوه في حالة اعياء من الضحك العصبي العنيف (الهستيرى) وكانت الدموع تنهمر فوق وجنتيه .

وهرع اليه مراسل الصحف عن المسرح وسأل الاستاذ الشيخ عن الممثل الذي جعله يضحك هذا الضحك .

وتحامل المهرج القديم على نفسه وقال في صوت متهدج : - انك لا تعرف ما في الدنيا من سخرية حتى تخرج منها لقد كنت اضحك ممن كانوا يضحكون من أولئك المهرجين الباليين .

ثم قضى نحيبه من الضحك .

ومباراة كرة القدم بالنسبة للاعب شيء وبالنسبة للنظارة القاعدين على الكراسي شيء آخر ، ثم هي شيء بالنسبة لهاوى سماع اللاسلكي الجالس بجوار جهازه اللاقط يستمع الى المذيعين وهم يصفون اللعب وشيء آخر بالنسبة للمحرر الصحفي بالمدينة الذي يتساعل يختص الموضوع بزيادة المساحة نهرا او ينقصها نهرا .

فالحياة برمتها تتخذ مظاهر مختلفة بالنسبة للاعبينها ثم تتخذ مظهرا مغايرا كل المغايرة بالنسبة لمن يعتزلونها ثم يتلفتون اليها . ولقد قال بلورليتون (١) Buiwer-Lytton : ان الرجل ذا الرغبة في اعتزال العمل رجل ذو حاسة اضافية لانه يرى الاشياء بطريقة لا يستطيعها الانسان الاعتيادي بحواسه المعروفة وهذه الحاسة الاضافية ليست اضافية بمعنى هذا اللفظ ولكنها اقرب ما تكون اليه بل هي في اساسها منظار جديد .

ولا يسعني ان اقرر ان هذا جزء كل من يعتزلون الاعمال فهو لا يحصل عليه الا من ينعمون باللب واصالة الراى وان الفلاسفة والعلماء يجلسون في سنواتهم الاخيرة اسعد اوقاتهم بسبب هذه التجارب الغضة النظرة وهم يلجون دنيا جديدة يرون فيها باسماء ماكانوا يرونه عابسا وماكان شائعا اصبح الآن يتمتع بصفة فريدة لايشركه فيها احد كان الانسان بعد ان قضى حياته وهو يتطلع الى وجه القمر الوضاء ركب متن صاروخ طاف به في الفضاء وتطلع الى الوجه الآخر للقمر فوجد المدن الحية تغمره وقد شيلت من لبن اخضر .

والامر لك اذا اردت ان تغرس في نفسك حب التقاعد الى ان تقول كما قال جورج سانتبانا George Santayano (٢) وهو في سن الثانية والثمانين : « لم اشعر فيما قضى من حياتي بما اشعر به الآن من سعادة » .

وهذه هي الحياة حكمة الحسنة .

(١) قصصى انجليزى مشهور ولد سنة ١٨٠٢ وتوفي ١٨٧٢ وهو مؤلف آخر ايلم بومبيلى وغيرها من القصص المعروفة .

(٢) اديب وفيلسوف - ولد سنة ١٨٦٢ .

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجمين	٣
مقدمة المؤلف	٧
اهداء الى بنجامين فرانكلين	٩
لم لا ؟	١٣
خير سار	١٧
ما هي خير سنى العمر	٢٣
الحلم يتحقق	٢٩
لماذا تقول؟ أاعتزل العمل؟ كلا!	٤٥
وطن نفسك على اعتزال العمل	٥٧
استسهل الصعب	٧١
لا تخصص كل وقتك لعمل واحد	٧٧
الانسحاب التدريجى	١٠١
ما خير طريقة لك ؟	١١١

الموضوع	الصفحة
ان من يبكر في الحضور يتاخر في الانصراف	١٢٧
استخدمها أو دعها	١٣٩
متساعب الراحة	١٤٧
اسبق الزمن	١٥٧
ابق في معترك الحياة	١٦٩
خير فترات الزمن	١٧٩
كيف تحتفظ بصلاحك وأهليتك؟	٢١١
الأمر اليكم الآن	٢٢٥

هذا الكتاب

ان التمتع بالحياة وإطالة العمر هما أمنية كل انسان . وهي مشكلة قديمة عزت واستعصت على العلماء والفكرين في كل حين . وفي هذا الكتاب الذي يمتاز مؤلفه بوسع معلوماته ، وفيض أبحاثه ، يبشرنا الكاتب بإطالة العمر ، ويرشدنا الى خير السبل للاستمتاع بحياة لا يظلمها المرض ، ولا يقعدها العجز ، ولا يشينها عن العمل خوف الوهم ، ويهدينا الى راحة البال والطمأنينة ، بما يقدمه من آراء ونظريات وحلول مدعمة بالأدلة والبراهين .

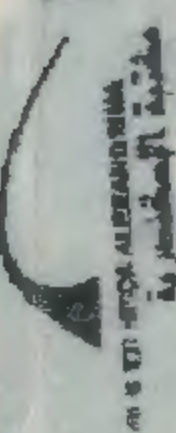
الدار القومية للطباعة والنشر

العدد ١١٨

الثمن ٣٠

١٩٦٤/٨/١٩

Bibliotheca Alexandrina



0237027